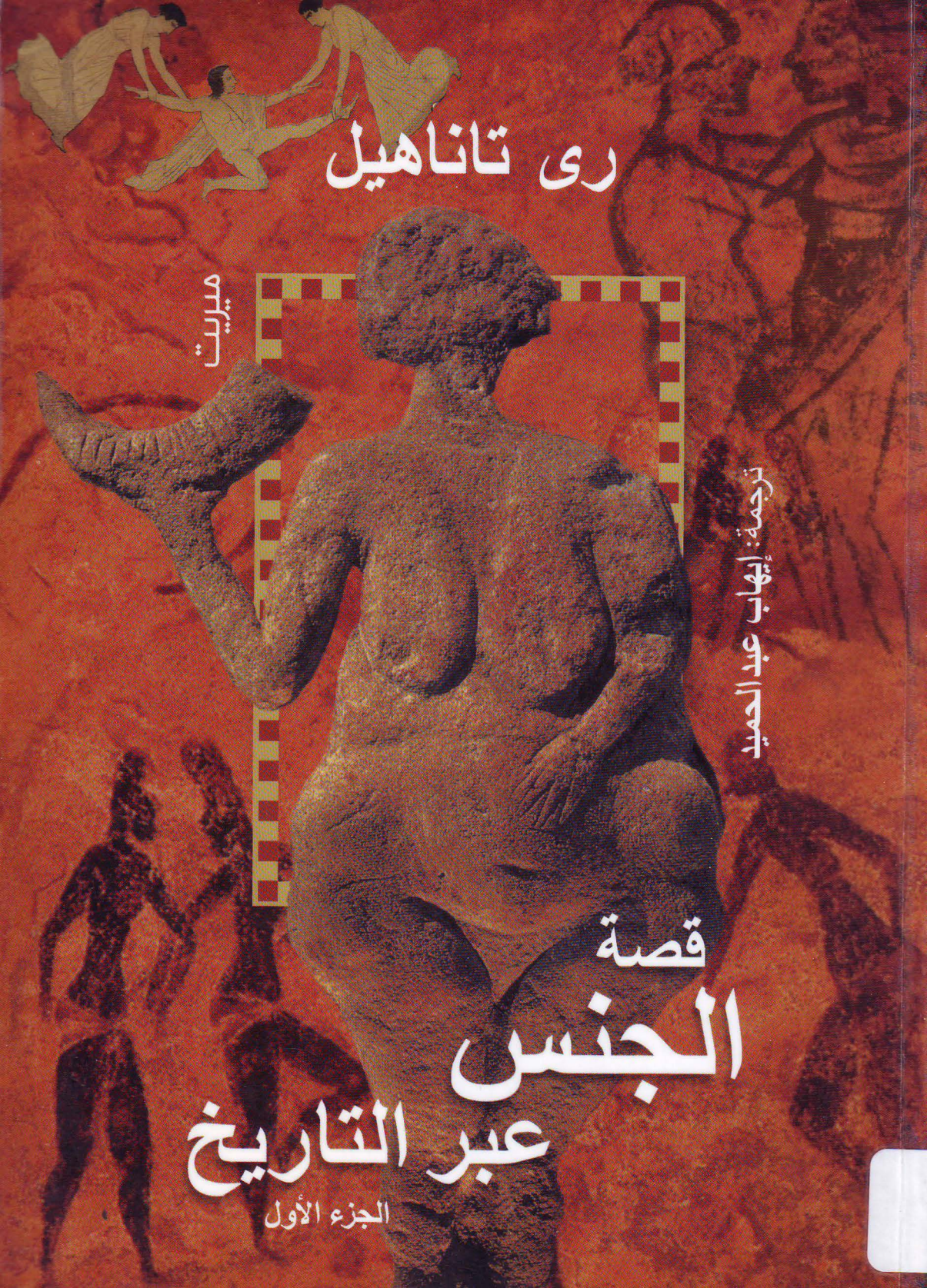

رى تاناهيل
ميريت
ترجمة: إيهاب عبد الحميد
قصة
الجنس
عبر التاريخ
الجزء الأول

قصة الجنس عبر التاريخ

رى تاناهيل

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
(ك) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل. القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف: أحمد اللباد

المدير العام محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٨١٨

الترقيم الدولي: 977-351-403

ري تاناهيل

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

قصة الجنس عبر التاريخ

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٨

هذا هو الجزء الأول من الترجمة الكاملة لكتاب

SEX IN HISTORY

من تأليف

REAY TANNAHIL

القسم الأول

عالم ما قبل التاريخ

هناك القليل جدا من الحقائق المؤكدة حول العلاقات بين الجنسين قبل بداية التاريخ المدون عام ٣٠٠٠ ق.م. ولكن يبدو أن العلاقات الجنسية عند الإنسان كانت قائمة على التعددية أولا. بيد أن الروابط "الأسرية" بدأت فى التطور عندما شاعت حياة الكهوف قبل نحو ربع مليون عام. مع ذلك فما من سبب يدعونا للاعتقاد أن الرجل كان على أدنى دراية بدوره الجسدى فى إنجاب الأطفال. بل إن هذه الدراية لم تأت —فيما يظهر— حتى أوائل عصر الزراعة فى وقت ما بعد عام ١٠٠٠٠ ق.م. وكان لهذه الدراية أكبر الأثر على تصور الرجل لذاته. كما بلورت غريزة حب الامتلاك لديه. فمفهوم "ابنى" تطلب أن تكون أم الطفل مرتبطة برجل واحد فحسب. وقد اتجه عقل الرجل إلى طريق التطور التكنولوجى والاكتشاف خلال ثورة العصر الحجرى الحديث Neolithic Revolution بسبب سلسلة من المصادفات على الأرجح. بينما ظلت المرأة لصيقة بالواقع اللحظى، ومن ثم حدث التكيف الجينى الذى أكد الاختلاف والتمايز العقلى بينهما. فقبل ثورة العصر الحجرى الحديث كان يبدو أن الرجل والمرأة يحتلان المكانة نفسها تقريبا. وأثناء ذلك العصر حظى الرجل بدفقة هائلة من الإحساس بالذات، وتيقن من أفضليته، وبعدها خرجت الإنسانية إلى ضوء التاريخ المدون. ولم يكن هناك من شك فى أن الرجل هو السيد.

١- فى البدء

فى عام ٤٠٠٤ ق.م. وبالتحديد فى التاسعة من صباح يوم الثالث والعشرين من أكتوبر "خلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم."•

وقد حسب اثنان من علماء القرن السابع عشر عام ويوم وساعة الخلق-والتى لم يحددها الكتاب المقدس. وذلك بعد دراسات كرونولوجية مضنية للعهد القديم[١]. ورحب معظم معاصريهما-الذين اعتادوا أن ينظروا للكتاب المقدس باعتباره الحقيقة المطلقة-بتلك النتيجة. وذلك ليتمكنوا من اعتماد تاريخ للخلق يمنحهم حقيقة مريحة.

كان يجب أن تمر مائتا عام أخرى قبل أن يبدأ العلم الحديث فى العصر الفيكتوري• فى التخفيف من حدة الوهم التوراتى. وبعد ذلك فى عام ١٨٥٩ صدر كتاب تشارلز داروين "فى أصل الأنواع بطريق الانتخاب الطبيعي". وساد الجدل الفكرى فى الأوساط العلمية طويلا. لكن العامة لم يعرفوا شيئا عن تلك النظرية. وبرغم أن نظرية داروين كانت تُعنى فى الأساس بالنباتات والحيوانات وليس الإنسان فإن منطقها كان قويا بحيث لا يمكن الفرار منه. لم تكن هناك عملية خلق واحدة. بل أن الإنسان-كبقية أنواع المخلوقات- تطور عن أشكال أدنى من الحياة. وقد عرّف كتاب "أصل الإنسان" المنشور عام ١٨٧١ تلك الأشكال الأدنى من الحياة بأنها حيوانات مغطاة بالشعر من ذوات الأربع تنتمى إلى فصيلة القردة العليا. أى أنه قرد فى الواقع.

• العهد القديم. سفر التكوين ١/٢٧. (المترجم)

• الملكة فيكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١) ملكة انجلترا. (المترجم)

ويقال إن زوجة أسقف ورستر علقت قائلة "لنأمل ألا يكون ذلك صحيحا. أما إذا كان كذلك فلندع الله ألا يعرفه الجميع". ولم يذكر التاريخ ما إذا كانت قد تساءلت "عن أى نوع من القردة ينحدر الإنسان؟".

ولكن هل يهم ذلك؟ ربما–للعجب–أن السؤال عن أسلاف الإنسان المباشرين "الرامابيثكوس" Ramapithecus• وإلى أى الأنواع هم أقرب (الجيبون أم الشامبنزى أم الغوريلا) كان سؤالا مهما وحيويا. إلا أن داروين نفسه لم يستطع الإجابة عنه. حيث لم يتح له استكمال دراسته عن التطور. فبرغم أن الفرق بين الطبع والتطبع –الوراثة والبيئة– كان معروفا بالفعل إلا أن اكتشاف الجينات ودورها والهرمونات لم يتم حتى أوائل العقد الأول من القرن العشرين. أى بعد أكثر من عشرين عاما على وفاته. كما لم تكن ثمة حفريات للإنسان الأول أو حتى أى دراسة تحليلية عن سلوك الحيوان يمكن الاعتماد عليها.

وفى القرن التالى لصدور "أصل الإنسان" استطاعت أجيالٌ من علماء الأحياء والحيوان والأنثروبولوجى أن تملأ فراغات لم ينتبه إليها داروين. لكن قصة أصل الإنسان ظلت غامضة، وما تزال معظم المعلومات "المعروفة" محل جدل كبير.

والنظرة الشائعة حاليا عن التحول من القرد Ape إلى الإنسان أن سلالات من القردة تفرعت –قبل ٢٠ مليون إلى ١٤ مليون عاما– إلى ثلاثة أفرع من شجرة العائلة. تطور الأول منها إلى أسلاف الغوريلا والشامبانزى وإنسان الغاب Orangutan بينما تطور الثانى إلى نوع ضخم من القردة الأرضية–قريبة الشبه بالبابون Baboon•– عاشت فى آسيا لفترة غير محددة قبل أن تنقرض. وتطور الفرع الثالث إلى أسلاف الإنسان المباشرين (رامابيثكوس)[٢].

وخلال بضعة ملايين أخرى من السنين تخلى الرامابيثكوس عن حياة الأشجار وبدأ الحياة على الأرض. وصار يأكل اللحوم كما يأكل الفواكه والخضروات. ما أمده ببروتينات إضافية ربما كان لها دور–إذا أمكن أن نسرد

• الرامابيثكوس: أقدم شبيه بالإنسان. اكتشفت أولى حفرياته عام ١٩٣٤ فى جنوب الهند على يد عالم الجيولوجيا الأمريكى G.E.Lewis وترجع أقدم حفريات له إلى ١٤ مليون عاما. ويختلف العلماء فى تصنيفه حول ما إذا كان ينتمى للعائلة الإنسانية أم إلى عائلة القردة العليا. (المترجم)

• البابون: نوع من القردة يتراوح طوله بين ٥٠ و١١٠ سم. يعيش فى السهول الصخرية فى آسيا وإفريقيا. (المترجم)

التاريخ كحقائق- فى الإسراع من تطوره بشكل ملحوظ نسبيا. إذ أثبتت الخمسة آلاف عام الأخيرة أن الشعوب التى يحتوى غذاؤها على نسبة عالية من البروتينات عادة ما تكون أكثر ديناميكية من الشعوب النباتية[٣]. وقد احتاج الرامابيثكوس أن يكون ديناميكيا، حيث المنافسة شرسة على الغذاء -اهتمامه الأوحد- بينه وبين القطط الملساء الصيّادة Sleek Hunting Cats والتى كانت تفرض سيطرتها على الأراضى العشبية. وأخيرا اكتشف أن قدمين ويدين- يمكنه بإحداهما أن يطلق رماحه على أعدائه-أجدى بكثير من مجرد أقدام أربع. وكانت النتيجة هى التحول إلى ما يعرف (دارجا) بالحركة على قدمين Bipedal Locomotion.

من منظور التطور كان ذلك التحول عاملا مساعدا أكثر منه هدفا نهائيا. وكان من نتائجه المباشرة ولو على المدى البعيد ظهور أشياء مثل "فينوس دى ميلو" • Venus de Milo والكاماسوترا•، وملكة جمال العالم. ومتعة الجنس • The Joy of Sex إن القامة الرأسية دفعت الإنسانية إلى إعادة النظر فى وضع الجماع التقليدى للرئيسيات Primates ثم -بعد ذلك- تقدير الجمال بعين مختلفة[٤].

الجمال ووضع الجماع

فى وضع الجماع المعتاد عند الرئيسيات تُقدم الأنثى مؤخرتها للذكر. ويكون الجماع قصيرا وفظا ووظيفيا. والدوافع الفسيولوجية لتلك العملية لا تتوافر عندما

• فينوس دى ميلو: تمثال من الرخام يبلغ ارتفاعه ٢١١ سم ويصور أفروديت ربة الحب والجنس والجمال عند الإغريق. عثر عليه فى جزيرة ميلوس ببحر إيجه عام ١٨٢٠ ويرجع إلى العصر الهيللينى. وهو الآن من مقتنيات متحف اللوفر بباريس. (المترجم)

• الكاماسوترا: رسالة هندوسية فى فن الحب كتبت فى وقت ما بين القرن الأول والرابع الميلادى. وترجمت إلى الإنجليزية عن السنسكريتية عام ١٨٨٣. ويعنى المقطع Kama الحب والمتعة الحسية. أما المقطع Sutra فيعنى الحكمة. (المترجم)

• The Joy of Sex: أول كتاب جاد وصريح عن الجنس يلقى رواجا واسعا فى العصر الحديث. وضعه أليكس كومبورت ونشر عام ١٩٧٩. وهو بمثابة دليل جنسى يستعرض مختلف أوضاع وفنون الجنس. (المترجم)

يلتقى الزوجان وجها لوجه. إلا أن اللقاء الأمامى يجعل العضلات ونهايات الأعصاب والأنسجة الحساسة وزاوية الإيلاج تشارك جميعها فى تكوين خبرة حسية لا يمكن للرئيسيات غير الإنسانية إدراكها -على الأقل بالنسبة للأنثى. إذ تزعم نظرية حديثة أن الأورجازم• Orgasm عند الأنثى-والذى لا تعرفه بقية الرئيسيات- ظهر مع وضع الجماع الجديد[٥]. ومهما يكن فقد أصبح الجنس الآن ممتعا حسيا بالإضافة إلى وظيفته الغريزية. وأصبح للسعى وراء المتعة وإشباع الغريزة سلطتهما-الصريحة أحيانا والمتوارية فى أحيان أخرى- فى مسار التطور الإنسانى اللاحق ككل.

وصحب ذلك عددٌ من التغيرات. فبعد أن اعتاد الإنسان الأول على الوضع الأمامى بدأ-على الأرجح- فى التخلص من معظم الفراء الذى كان يغطى أجساد أسلافه. ولكنه وجد من الضرورى إنماء بعضه ثانية لتجنب الاحتكاك عند الجماع. وعلى المستوى البنيوى أيضا تسبب الوضع الجديد فيما وصفه عالم الجينات البريطانى دارلنتون D. Darlington.C بـ"التمايز التشريحى العظيم فى الأعضاء التناسلية بين أعراق وأفراد الإنسان اليوم". والمثال التقليدى على ذلك يتضح فى قبائل البوشمان Bushman فى كالاهارى . فالمنطقة الدهنية التى تعلو العانة Mons Pubis لدى أنثى البوشمان كبيرة بشكل غير عادى. لذا يحتاج الذكر لقضيب أفقى تقريبا كى يتمكن من الإيلاج. مما جعله مادة سخرية لجيرانه من القبائل. وشكّل بالتالى عاملا مساعدا فى كراهيته لهم دون شك.

على مستوى آخر يقال إن الجنس الأمامى جعل أنثى الإنسان معرضة لشىء يستحيل فسيولوجيا على بقية الرئيسيات التعرض له. ألا وهو الاغتصاب. ففى عالم الأحياء لا يوجد سوى نوع وحيد من العناكب يشارك الإنسان فى قابلية إتمام الجماع دون رغبة الأنثى[٦].

لم يفكر داروين فى الانتخاب الطبيعى باعتباره كلا لا يتجزأ. بل اعتقد أن هناك بالتأكيد نوعا من الانتخاب الجنسى يعمل دائما لصالح الخصائص التى تحظى بالاستحسان الأكبر من الإنسانية. فالأشخاص الأكثر جاذبية ستكون

•أورجازم: هناك ترجمات عربية للمصطلح من بينها "رعشة الجماع". لكننا فضلنا استخدام اللفظة الإنجليزية لشيوعها (المترجم)

فرصتهم أكبر فى ممارسة الجنس. ممارسته فى سن صغيرة وإنجاب أكبر عدد من الأطفال. لذا ستميل الكفة دائما ناحية توريث جمال متزايد وسحر متصاعد. ورغم أن نظرة إلى عالم اليوم لن تؤكد ذلك على الفور باعتباره فرضية لا تقبل الجدل فإن نوعا من الانتخاب هو المسؤول بالتأكيد عن لحية الرجل وجسد المرأة الأملس. كما أن الانتخاب نفسه هو المسؤول عن طول الرجل وثنيات جسد المرأة.

وطوال فترة تعلق الإنسانية بوضع جماع الرئيسيات القديم كان الرجل يرى شريكته فى العملية الجنسية من منظور خلفى فقط. ويبدو أنه أعجب أيما إعجاب بجمال المؤخرة المدورة الغنية. بينما لم تكن المرأة تراه بالمرة. فبالنسبة لها كانت تتبنى –ربما– فلسفة أن "الجميل هو من يفعلها بجمال". ولكن عندما حدث التحول. حوّل الرجل حماسته عن المؤخرات–باستثناء حالة أو اثنتين ملحوظتين مثلما فى قبائل الهوتينتوتس Hottentots • – إلى النهود والبطون المرنة. وبدأ الوجه أيضا فى اكتساب أهمية لدى الجنسين. وحتى الآن–ونحن ننظر إلى معرض الوجوه الإنسانية عبر خمسة آلاف عام من الحضارة– يمكننا أن نلتقط لمحات قديمة خاطفة وراء طرق تصفيف الشعر والملابس وأدوات التجميل. تتضح فى أنواع معينة من الوجوه التى تنتمى دون شك إلى فترات معينة من التاريخ. تلك المنتجات التى لم يبتكروها بأنفسهم وإنما أخذوها عن مقاييس جمالية لأجيال سابقة.

لا أحد يعرف متى بدأت سلالة الرامابيثكوس فى التحول إلى وضع الجماع الجديد. بل أن أحداً لا يعرف فى الواقع متى بدأ ظهورهم على الساحة. وهناك جدل حول تصنيفهم. فهل يجب أن يصنفوا كأسترالوبيثكوس Australopithecus • يحملون من القرد أكثر مما يحملونه من الإنسان. أم

• الهوتينتوتس أو الخوى خوى Khoikhoi: قبائل تعيش فى جنوب إفريقيا على الرعى. وتتحدث اللغة الخويزانية Khoisan. وبعد الاستعمار الأوروبى بدأ أفرادها فى التزاوج مع المستوطنين الجدد وبدأ عددهم فى التقلص. (المترجم)

• Australopithecus: اكتشفت أولى حفرياته (جمجمة طفل) عام ١٩٢٤ فى تاونج Taung بجنوب إفريقيا. ويسمى أيضا الإنسان الجنوب افريقى. ويقدر العلماء أن هذا النوع والذى يعتبر أول أسلاف الإنسان قد عاش قبل مليون ونصف إلى ثلاثة ملايين عام. (المترجم)

يلتقى الزوجان وجها لوجه. إلا أن اللقاء الأمامى يجعل العضلات ونهايات الأعصاب والأنسجة الحساسة وزاوية الإيلاج تشارك جميعها فى تكوين خبرة حسية لا يمكن للرئيسيات غير الإنسانية إدراكها -على الأقل بالنسبة للأنثى. إذ تزعم نظرية حديثة أن الأورجازم* Orgasm عند الأنثى-والذى لا تعرفه بقية الرئيسيات- ظهر مع وضع الجماع الجديد[٥]. ومهما يكن فقد أصبح الجنس الآن ممتعا حسيا بالإضافة إلى وظيفته الغريزية. وأصبح للسعى وراء المتعة وإشباع الغريزة سلطتهما-الصريحة أحيانا والمتوارية فى أحيان أخرى- فى مسار التطور الإنسانى اللاحق ككل.

وصحب ذلك عددٌ من التغيرات. فبعد أن اعتاد الإنسان الأول على الوضع الأمامى بدأ-على الأرجح- فى التخلص من معظم الفراء الذى كان يغطى أجساد أسلافه. ولكنه وجد من الضرورى إنماء بعضه ثانية لتجنب الاحتكاك عند الجماع. وعلى المستوى البنيوى أيضا تسبب الوضع الجديد فيما وصفه عالم الجينات البريطانى دارلنتون D. Darlington.C بـ"التمايز التشريحى العظيم فى الأعضاء التناسلية بين أعراق وأفراد الإنسان اليوم". والمثال التقليدى على ذلك يتضح فى قبائل البوشمان Bushman فى كالاهارى. فالمنطقة الدهنية التى تعلو العانة Mons Pubis لدى أنثى البوشمان كبيرة بشكل غير عادى. لذا يحتاج الذكر لقضيب أفقى تقريبا كى يتمكن من الإيلاج. مما جعله مادة سخرية لجيرانه من القبائل. وشكّل بالتالى عاملا مساعدا فى كراهيته لهم دون شك.

على مستوى آخر يقال إن الجنس الأمامى جعل أنثى الإنسان معرضة لشىء يستحيل فسيولوجيا على بقية الرئيسيات التعرض له. ألا وهو الاغتصاب. ففى عالم الأحياء لا يوجد سوى نوع وحيد من العناكب يشارك الإنسان فى قابلية إتمام الجماع دون رغبة الأنثى[٦].

لم يفكر داروين فى الانتخاب الطبيعى باعتباره كلا لا يتجزأ. بل اعتقد أن هناك بالتأكيد نوعا من الانتخاب الجنسى يعمل دائما لصالح الخصائص التى تحظى بالاستحسان الأكبر من الإنسانية. فالأشخاص الأكثر جاذبية ستكون

---

*أورجازم: هناك ترجمات عربية للمصطلح من بينها "رعشة الجماع". لكننا فضلنا استخدام اللفظة الإنجليزية لشيوعها (المترجم)

فرصتهم أكبر فى ممارسة الجنس. ممارسته فى سن صغيرة وإنجاب أكبر عدد من الأطفال، لذا ستميل الكفة دائما ناحية توريث جمال متزايد وسحر متصاعد. ورغم أن نظرة إلى عالم اليوم لن تؤكد ذلك على الفور باعتباره فرضية لا تقبل الجدل فإن نوعا من الانتخاب هو المسؤول بالتأكيد عن لحية الرجل وجسد المرأة الأملس. كما أن الانتخاب نفسه هو المسؤول عن طول الرجل وثنيات جسد المرأة.

وطوال فترة تعلق الإنسانية بوضع جماع الرئيسيات القديم كان الرجل يرى شريكته فى العملية الجنسية من منظور خلفى فقط. ويبدو أنه أعجب أيما إعجاب بجمال المؤخرة المدورة الغنية. بينما لم تكن المرأة تراه بالمرة. فبالنسبة لها كانت تتبنى –ربما– فلسفة أن "الجميل هو من يفعلها بجمال". ولكن عندما حدث التحول. حوّل الرجل حماسته عن المؤخرات–باستثناء حالة أو اثنتين ملحوظتين مثلما فى قبائل الهوتينتوتس Hottentots • – إلى النهود والبطون المرنة. وبدأ الوجه أيضا فى اكتساب أهمية لدى الجنسين. وحتى الآن–ونحن ننظر إلى معرض الوجوه الإنسانية عبر خمسة آلاف عام من الحضارة– يمكننا أن نلتقط لمحات قديمة خاطفة وراء طرق تصفيف الشعر والملابس وأدوات التجميل. تتضح فى أنواع معينة من الوجوه التى تنتمى دون شك إلى فترات معينة من التاريخ. تلك المنتجات التى لم يبتكروها بأنفسهم وإنما أخذوها عن مقاييس جمالية لأجيال سابقة.

لا أحد يعرف متى بدأت سلالة الرامابيثكوس فى التحول إلى وضع الجماع الجديد. بل أن أحداً لا يعرف فى الواقع متى بدأ ظهورهم على الساحة. وهناك جدل حول تصنيفهم. فهل يجب أن يصنفوا كأستراوبيثكوس Australopithecus • يحملون من القرد أكثر مما يحملونه من الإنسان. أم

• الهوتينتوتس أو الخوى خوى Khoikhoi: قبائل تعيش فى جنوب إفريقيا على الرعى. وتتحدث اللغة الخويزانية Khoisan. وبعد الاستعمار الأوروبى بدأ أفرادها فى التزاوج مع المستوطنين الجدد وبدأ عددهم فى التقلص. (المترجم)

• Australopithecus: اكتشفت أولى حفرياته (جمجمة طفل) عام ١٩٢٤ فى تاونج Taung بجنوب إفريقيا. ويسمى أيضا الانسان الجنوب افريقى. ويقدر العلماء أن هذا النوع والذى يعتبر أول أسلاف الإنسان قد عاش قبل مليون ونصف إلى ثلاثة ملايين عام. (المترجم)

ينتمون إلى فصيلة "الإنسان صانع الأدوات" Homo Habilis* الذين استطاعوا استخدام الأدوات والأقرب إلى الإنسان من القرد. لكن الصيد وصناعة الأدوات والأعمال التى تحتاج إلى قدرة ذهنية كما تحتاج إلى مهارة يدوية أدت إلى التحول التدريجى إلى مرحلة الإنسان منتصب القامة Prehuman Homo Erectus* (والذى عرف استخدام النار وكان بارعا إلى حد كبير فى الصيد حتى أنه كان يتمكن من الإيقاع بفيل أو خرتيت أو نمر أو جاموس وحشى). ثم تحول بعد ذلك -منذ مائتى ألف عام- إلى الإنسان العاقل البدائى Proto human Homo Sapiens* والذى أصبح مؤهلا لأن يكون أبا للإنسان الحديث Modern Man.

أحادية أم تعددية

عالم الإنسان العاقل Homo Sapiens الأول لا يقلّ غموضا عن عالم أسلافه. فمعظم ما هو معروف حتى بداية التاريخ المدون عام ٣٠٠٠ ق.م مبنى على خليط مشوش من الحقائق المحدودة لعلم الآثار القديمة. إلى جانب ملاحظة طرق تفكير البدائيين الذين يعيشون فى العصور الحديثة.

وحقائق علم الآثار القديمة دائما ما تكون مادة للكثير من التفسيرات. كما أن القبائل البدائية-مثلها فى ذلك مثل الإحصاءات- يمكن استخدامها لإثبات أى شىء تقريبا. وعلى الأقل فإن المعروف عن المائة وخمسين ألف عام الأولى من تواجد الإنسان العاقل لا يثبت شيئا، فالآثار الوحيدة المطبوعة على رمال

---

* الإنسان صانع الأدوات Homo Habilis: اكتشفت أولى حفرياته عام ١٩٦٤ فى تنزانيا. وتتميز حفرياته عن تلك الخاصة بالأسترالوبيثيكوس بكبر الفراغ المخصص للمخ وصغر الأسنان الخلفية. كما أن عظامه أشبه بعظام الإنسان الحديث. ويعتقد العلماء أنه عاش قبل ١.٨٥ إلى ١.٧ مليون عام. (المترجم)

* الإنسان المنتصب Prehuman Homo Erectus: اكتشفت أولى حفرياته عام ١٨٩١ فى إندونيسيا. ويبدو أنه عاش فى الفترة من ١.٥ مليون إلى ٣٠٠ ألف عام مضت. وكان يمشى منتصبا كما كان حجم مخه يصل إلى ثلثى حجم مخ الإنسان الحديث. (المترجم)

* الإنسان العاقل Protohuman Homo Sapiens: عاش منذ نحو ربع مليون عام وهو أول من استخدم الأدوات الحجرية فى العصر الحجرى. (المترجم)

الفرضيات العلمية –المتقلبة– تعتمد على الأدوات والعظام وركام من أطلال مساكن عاش فيها الإنسان. أما حياته الشخصية فكل ما هو معروف فِعليا عنها أنه طور نوعا من الاعتقادات الدينية أو الإنسانية التى قادته للعناية بالمرضى والمسنين ودفن الموتى. أما حياته الجنسية فقد بقيت لغزا غامضا.

وبما أن التاريخ بأكمله سلسلة متصلة، وكل ما يحدث يرتبط بطريقة ما بما حدث من قبل. لذلك فالحياة الجنسية للإنسان العاقل الأول–مثلها مثل حياة الإنسان العاقل اليوم – كانت نتاجا وإن كان بعيدا للحياة الجنسية والعائلية منذ خمسمائة ألف. أو خمسة ملايين. أو خمسة عشر مليون عام مضت. لذا فمن المثير والمهم أن نسأل "بأى أنواع القردة كان أسلاف الإنسان قريبى الشبه" حتى لو لم تكن ثمة إجابة قاطعة. فبعض الأسئلة العاطفية التى تشغل بال الناس هذه الأيام– عن المجتمع البدائى وما إذا كان واقعا تحت سيطرة الرجل أم المرأة وما إذا كان تَتبُّع النسب فيه عن طريق الأب أم الأم وما إذا كانت ربات الخصب قد لقين احتراما أكبر أم هؤلاء الأرباب الذكور المتعصبون لجنسهم– هذه الأسئلة يمكن الإجابة عليها (جدلا) إذا عرفنا ما إذا كان الإنسان العاقل أقرب للجيبون الأحادي– وفى هذه الحالة سيسيطر عليه النظام الأبوى من البداية. أم هو أقرب للشمبانزى صاحب العلاقات الجنسية المتعددة حيث لا يمكن أن يسود سوى النظام الأمومى.

فى وقت ما اكتشف الإنسان –فى صورته قبل الإنسانية– لسانه. إذ كان الصيد وصناعة الأدوات أعمالا جماعية فرضت عليه تكوين نظام للاتصال على مستوى أكثر تعقيدا من اتصال الرئيسيات. فحتى الجيبون –الذى كان أحد أكثر القردة ثرثرة– لم يكن لديه سوى عدد قليل من الأصوات والمتتاليات الصوتية. كل منها تحمل معنى محدداً. وإحداها وثيقة الصلة بظروف حياة الإنسان البدائى. إذ تنقل رسالة مفادها "ابق بعيدا عن زوجتي!" [٧]

الجيبون وحده بين القردة يحتاج لمثل هذا التعبير. إذ أن الجيبون وحده لديه زوجة. فباقى الرئيسيات غير الإنسانية تعيش فى جماعات تمارس الجنس الجماعى. حيث يسود جنس واحد غالبا. وحيث لا توجد "روابط زوجية". فأنثى الشامبانزى مثلا تضاجع ذكورا عدة فى تتابع دون أن تربطها بأى منهم علاقة خاصة.

وعادة الجيبون فى الزواج الأحادى ترجع إلى حقيقة أن أنثاه–مثل أنثى الإنسان وعلى عكس بقية الرئيسيات– لا تتعرض للدورة "النزوية". وهى دورة

الإخصاب التى تعد الأنثى لاستقبال العملية الجنسية فى يوم أو يومين فقط تكون فيهما القدرة على الإخصاب فى أقصاها. وذلك عند التبويض. وتقول النظرية إنه ما دام الجيبون قابل للاستقبال طوال الوقت فبإمكان الذكر أن يُرضى رغبته الجنسية فى أى وقت يحتاجه مع شريكة واحدة. لذا فإن شريكة واحدة هى كل ما يحتاجه. وربما من الأصح أن نفترض أن شريكة واحدة هى كل ما يريده. ومن المؤكد أن تلك الأحادية مريحة إلى حد ما. مقارنة بحالة الشامبانزى والغوريللا والبابون الذين يظلون تحت الطلب دائما لإشباع شهوات كل أنثى تشتعل رغبة فى القبيلة.

كان إرنست هايكل Ernest Haekel • -مبسّط العلوم المعاصر لداروين- هو أول من أشاع فكرة أن الجيبون هو أقرب أقرباء الإنسان. وقد لاقت تلك الفكرة استحسانا لدى المؤرخين الغربيين. حيث جعلت من السهل نسبيا إعادة رسم تصور لمسيرة التطور المبكر للإنسان طالما أن حياة الجيبون العائلية تشبه كثيرا حياة إنسان الغرب الحديث. فالزوج والزوجة والأطفال يعيشون مع بعضهم كجماعة. وعندما يكبر الأطفال يتركون بيوتهم (أو يُطردون منها) ويعيشون فى بيوت خاصة بهم. فإذا كان هذا ما بدأت به البشرية وهذا ما انتهت إليه ، سيمكننا هذا التماثل والتشابه أن نملأ آلاف السنين الواقعة بينهما بشكل مفهوم وحتى الجانب العاطفى منها. فنرسم صورة للبيت أثناء الحياة اليومية حيث يذهب الرجل للصيد وترعى المرأة المنزل (أو الكهف). وربما أخذوا قسطا من الراحة ليزوروا جيرانهم بأعلى التل، ولكن لسوء الحظ فإن هذا التصور المريح ليس حقيقيا. فعلى مدار خمسة آلاف عام من التاريخ المدون كانت التعددية الجنسية هى السائدة فى أغلب الأوقات.

للوهلة الأولى يظهر الشامبنزى ذو العلاقات الجنسية المتعددة باعتباره المرشح الأكثر قوة لمنصب القريب الأقرب للإنسان. ولم تكن دراسة عدد الكروموسومات (الصبغيات) وبروتينات الدم سوى جزء من الأبحاث الأخيرة التى وقفت فى صفه وبقوة، إذ كان ذكاء الشامبنزى عاملا آخر أساسيا لذلك، فبينما يعد الجيبون القرد الأقل ذكاء بين جميع القردة اليوم نجد أن الشامبنزى-بعد تطوره فى الفرع الخاص به من شجرة العائلة فى الملايين الأربعة عشرة الأخيرة من السنين أو نحو

• إرنست هايكل: عالم أحياء ألمانى (١٨٣٤-١٩١٩) (المترجم)

ذلك- بإمكانه أن يستخدم الأدوات البدائية (أوراق الأشجار الغضة الاسفنجية لامتصاص الماء من الشقوق. والسيقان لاصطياد النمل من أعشاشه. والعصى كروافع) وأن يدافع عن نفسه برجم المغيرين غير المرغوب فيهم بالأفرع والحجارة ومختلف المقذوفات. تعلّم أن يصطاد ويقتل ويأكل الظباء الصغيرة والقرود. كما تعلم أن يقف--بل ويتحرك أحيانا- منتصبا. وأن يطور نظام اتصال واسع النطاق وإن توقف عند مرحلة الإيماءات والأصوات غير المحددة. وشامبنزى هذه الأيام يسلك سلوكا مشابها لسلوك سلف الإنسان "الرامابيثيكوس" عندما وضع قدميه على أول الطريق الذى قاده بعد ذلك نحو التطور إلى الجنس البشرى[٨].

وإذا كانت عائلة الإنسان فى أيامه الأولى قريبة الشبه بعائلة الشامبنزى. فقد حدث تحول بيولوجى أساسى واحدا على الأقل. وإن استحالت معرفة متى بدأ ومتى اكتمل. إذ حلت الدورة الشهرية لأنثى الإنسان تدريجيا محل الدورة النزوية عند الرئيسيات. ذلك التحول الذى كان من نتائجه على المدى الطويل التأثير على حالة المرأة الجنسية. بالإضافة إلى ما طرأ من مضاعفات على العلاقة بين الرجل والمرأة على المدى الطويل. مع ذلك فلا يمكن أن نؤكد بشكل قاطع ما إذا كان هذا التحول قد أدى بالضرورة إلى تفضيل الأحادية تفضيلا مطلقا أم لا. فبالرغم أن علماء الأنثروبولوجى ربطوا بين الأحادية من جهة وغياب الدورة النزوية من جهة أخرى (ذلك الرأى الذى يبدو قائما على مجرد استنتاجات نظرية متأخرة أكثر منه على معطيات تاريخية) فإن علماء الجينات كان لهم رأى آخر.

قال داروين إن الصراع المحورى فى الحياة هو صراع من أجل البقاء والتكاثر. وادعى ورثته الروحيون -علماء الاجتماع الحيوى Sociobiologists هذه الأيام- أن أطراف الصراع ليسوا هم البشر وإنما الجينات. هذه الأجزاء متناهية الصغر من الكروموسوم- والتى حلت محل الشعراء كمشرّعين مغمورين للعالم. وتلك الجينات مدفوعة بغريزة البقاء أكثر من مدير شاب فى شركة كبرى. ويؤكد هؤلاء العلماء أن كثيرا من أفعال وأحوال الإنسان التى لم يمكن تفسيرها حتى الآن ليست سوى نتاجا لقرار جيناته بالإفصاح عن نفسها. وفقا لهذه النظرية فإنه عندما كانت الظروف قاسية فى العصر الحجرى (وكانت دوما كذلك) وجب التعاون بين كلا الأبوين لتأمين البقاء. ليس بقاء أطفالهما فى المقام الأول وإنما بقاء الجينات التى استثمرها الوالدان داخل أجساد

الأطفال. مما أدى إلى ظهور الأحادية الجنسية بصرف النظر عما كانت عليه عادة الأسلاف. مع ذلك ففى الظروف الأفضل عندما سيصبح باستطاعة الأطفال أن يعيشوا فى كنف أمهم فقط سيتجه الرجال نحو العلاقات الجنسية المتعددة لأن رغبات الجينات ستحبذ الانتشار. وفى الواقع فإن كازانوفا العصر الحجرى لم يكن مدفوعا برغبة أعضائه التناسلية وإنما بالحمض النووى DNA فى كروموسوماته. بينما لم يكن للأنثى مثل هذا التفويض الحيوى Biological Carte Blanche. إذ لا يتم الإعلان عن جيناتها إلا من خلال الأطفال الخارجين من جسدها. والنتيجة-بغض النظر عن الظروف المناخية- كانت حافزا جينيا عظيما يدفعها لحماية هؤلاء الأطفال•[٩].

وما من سبب يدفعنا للافتراض بأن "القاعدة" فى العصر الحجرى كانت إما الأحادية أو التعددية. فربما كان غياب الدورة النزوية عند أنثى الإنسان محفزا للأحادية، ولكن افتراض ذلك لا يعنى بالضرورة صحته. لأن الدوافع الجينية للإنسان ترجح الأحادية أحيانا والتعددية فى أحيان أخرى. مع ذلك فالجينات ليست هى القوة الوحيدة. إذ نجد على الجانب الأخرى نظرية تعد من أقوى الفرضيات العلمية تؤكد أن الجنس البشرى يشبه قريبه الشامبنزى أساسا فى كونه متعدد العلاقات، لكن "الطبيعة الإنسانية"- خلطة العوامل الوراثية والبيئية التى لا يمكن تجنبها- بدأت فى التطور ومن ثم بدأ نمط الحياة فى التغير، وخلال الجزء الأكبر من التاريخ المدون كان من "الطبيعة الإنسانية" أن يتعلق الأفراد بآخرين حينما تحدق الأخطار وتصبح الحياة غير آمنة. وأن يصبحوا أكثر انبساطا عندما تتحسن الأجواء. حيث كانت ظروف الحياة تتذبذب من الجيدة إلى المعتدلة إلى القاسية عبر آلاف السنين من العصر الجليدى. وربما كانت هنالك حركة بندولية بطيئة تقرب الإنسان من التعددية ثم الأحادية ثم تعود به إلى التعددية مجددا، بل وربما كانت المرأة- وليس الرجل- هى من يمارس التعددية. حيث كانت تمثل الفئة الأقل بين الجنسين (انظر ص ٢٥).

• لا يدل هذا على أن المشاركين فى تلك الدراما الإنسانية كانوا على أدنى دراية بعملية الحماية هذه وكيفية عملها. هم لم يعرفوا على الإطلاق. ولكن الجينات عرفت. وهذا كان كافيا

الجنس ودور المجتمع

أيا كان وضع الأمومة عند الإنسان صانع الأدوات وأحفاده فإن الأجواء التى عاشوا فيها – بل وتمكنوا (للعجب) من التطور – لابد أنها أتاحت فى البداية نوعا ما من حياة المجتمعات.

والظاهر أن الإنسان الأول كان يعيش حياة الارتحال سواء كان ذلك نابعا من حاجة أو اختيار. فبالرغم من أنه ربما ورث غريزة الاستقرار من أسلافه يبدو أن عقله بدأ فى تجاوزها. ومع ندرة الصيد ونقص النباتات خلال فترات التغير المناخى سيجد أنه استهلك الجزء الخاص به من الأرض. لذا عليه أن ينتقل إلى مكان آخر. وربما وجب عليه فى بعض الأحيان أن يدخل فى منازعات حول المنطقة الجديدة مع سكانها الأصليين ومن ثم تنشب الحرب. ويجد المهزومون أنفسهم مجبرين على الخروج أو–إذا كانوا قلة– على الاندماج فى قبائل المنتصرين.

لم يبدأ الإنسان فى الاستقرار قبل ٣٥٠ ألف عام مضت. ويبدو أن سبب ذلك كان تدهورا فى مناخ العالم. ففى معظم فترات العصر الذى يعرف جيولوجيا باسم البلاستوسين Pleistocene –وهو المحصور فى المليونى سنة الأخيرتين– كان هناك تقلب فى المناخ من الدفء المحبب إلى البرد القارص. وخلال أسوأ نوبات البرد تتمدد أنهار الجليد التى تحدها عادة سلاسل جبال عالية. وتندمج معا حتى يصل سمك طبقة الجليد أحيانا إلى مئات الأقدام. وتمتد جنوبا حتى مدن نيويورك ولندن وكييف حاليا. وفى مثل هذه الأوقات يتجمع النصف مليون نسمة –الذين كانوا يمثلون كل سكان العالم من الإنسان الأول– فى المناطق معتدلة المناخ حول البحر الأبيض المتوسط مثلا– حيث كان لا يزال هناك ما يمكن وصفه بالصيف. وفى مناطق مثل الصحراء الكبرى حيث تسقط الأمطار الغزيرة فتساعد على ازدهار الحياة النباتية والحيوانية وهو ما يبدو غريبا الآن. لكن أحد أفرع عائلة الإنسان منتصب القامة –متمثلا فى إنسان بكين• – اكتشف أن بإمكانه العيش على حافة

• إنسان بكين: اكتشفت أولى حفرياته فى منطقة تشو كو تين قرب بكين فى (١٩٢٧–١٩٣٧) ويرجح أنه عاش قبل نصف مليون عام. (المترجم)

الطبقات الجليدية تقريبا عن طريق اللجوء إلى الكهوف. واستخدام ذلك الشيء الذى لم يسيطر عليه الجنس البشرى من قبل ألا وهو النار. ولم تنتشر حياة الكهوف فى أوروبا قبل مرور ربع مليون عام أخرى. ومع ذلك كان لأسلوب الحياة الجديد- مع حلول الدفء والضوء والأمان محل البرد القارص والظلام وما به من أخطار- أكبر الأثر على تطور عملية التحول إلى الإنسان الحديث.

وفى حين كانت الأراضى الخضراء الواعدة بصيد وافر كافية لجذب الإنسان المتجول. كانت لإنسان الكهف متطلبات خاصة. إذ كانت الكهوف أكثر ندرة من المراعى الجيدة. وعندما كان يجد الاثنين معا تصبح الظروف ملائمة له فيستقر.

لقد فرضت حياة الكهوف منطقها الخاص. وكانت الكهوف الكبيرة -مثل ذلك الكهف الشهير المزدان بالرسوم فى ألتا ميرا Altamira فى الساحل الشمالى لأسبانيا. والذى يمتد خلال الأحجار الجيرية الصلبة لمسافة ٣٠٠ ياردة تعد استثناء للقاعدة. إذ كانت الكهوف الأكثر شيوعا بحجم الكهف المستدير الشهير فى لاسكو Lascaux فى فرنسا -والذى كان مسكونا ومزخرفا برسوم رائعة لحيوانات منذ أكثر من خمس عشرة ألف سنة- ويبلغ طوله ثلاثين ياردة وعرضه عشر ياردات فحسب. حيث لا يزيد كثيرا فى مساحته عن منزل حديث مقام على قطعة أرض كبيرة. بل وكان الأكثر شيوعا أن تجد المجتمعات الإنسانية المهاجرة نفسها مجبرة على التكيف فى كهوف أصغر مثل خلية نحل.

ما من شك أن الانتقال من الريف الواسع المفتوح إلى الضيق المكانى والنفسى الذى تسببه الجدران الحجرية أدى إلى شيء من الاضطراب فى المجتمع. حتى بعد أن حدد النظام الهرمى لعسكر النيران من يسكن أحسن تلك الكهوف ومن يسكن أسوأها. وكانت عملية تشظى الجماعات وإعادة تكوينها من العمليات الضرورية. وربما كانت تلك المرحلة هى بداية تحول فكرة "الأسرة" إلى حقيقة واقعة.

وقد تمركزت أسرة ما قبل التاريخ حول المرأة كتمركز السيتوبلازم حول النواة. حيث كانت علاقة الأمومة هى العلاقة الوحيدة المميزة عن شتى العلاقات القبلية. ويجب أن نذكر أن دور الرجل فى الإنجاب لم يكتشف-على الأرجح- إلا فى مرحلة متأخرة جدا من مراحل التطور. وكان من دواعى دهشة علماء الأنثروبولوجى فى المائة عام الأخيرة أن اكتشفوا أن ثمة قبائل بدائية لا تزال تجهل العلاقة بين الجماع والحمل. ويبدو أن الجهل بتلك العلاقة استمر حتى عام ٩٠٠٠ ق.م (انظر ص ٣٧).

وخلال معظم زمن العصر الحجرى تعايش الإنسان فى علاقة (أنا–أنت) مع العالم من حوله. فبينما ينظر إنسان المدينة الحديث إلى بقية الكائنات باعتبارها ذوات غير عاقلة It كان الرجل البدائى ينظر إلى النهر والبحر. والطيور والأسماك. والأرض والشجر. والحيوانات والنباتات باعتبارها ذوات عاقلة Thou تختلف عنه فى المظهر وليس فى الجوهر. وحتى عندما تطورت صناعته للأدوات اليدوية وتغير أسلوب حياته واتسع نطاق تفكيره. بقى فى كثير من الجوانب لا يختلف كثيرا عن بقية الحيوانات التى استوطنت أراضيه. كان مايزال فى طور التطور "من" أسلافه الرئيسيات. لكنه لم يبدأ بعد فى التطور "نحو" أحفاده البعيدين إلا قبيل نهاية العصر الحجرى على الأرجح. ولم يسأل أبدا — وربما كانت تلك من صفاته الموروثة– لأن الأمور كانت "طبيعية". كانت دائما كذلك. وما يبدو طبيعيا بطبيعة الحال هو آخر ما يمكن اكتشافه. لقد كان من الطبيعى بالنسبة للرجل والمرأة. والآيل وأنثاه. والكبش والنعجة أن يمارسوا العملية الجنسية دون أن يروا فيها أى شىء أكثر من مجرد إشباع جسدى. فالجنس والأخلاق لم يجتمعا إلا فى مرحلة متأخرة نسبيا من الحضارة الإنسانية.

أما الأبوة فلها مستويان: اجتماعى وبيولوجى. ويمكن للأول أن يتوافر دون معرفة الثانى. وفى المجتمعات المبنية على التعددية الجنسية لا نلاحظ أيا من المستويين. إذ تقع كل من المسؤولية والنسب على عاتق الأنثى. أما الأبوة فلا تظهر إلا مع ظهور علاقة دائمة بين ذكر واحد وأنثى واحدة. أو بين ذكر واحد وعدة إناث. وإذا أخذنا القبائل البدائية كمثال نجد أن رجل العصر الحجرى كان على استعداد أن يحمل على عاتقه الواجبات الاجتماعية للأبوة. بأن يصير مرشدا ناصحا. وأن يوفر الغذاء لأطفال المرأة (أو النساء) التى تربطه بها علاقة جنسية. مع ذلك ظل الدور النفسى للرجل –إذا جاز استخدام كلمة "نفسي" مع العصر الحجري– دورا ثانويا. ففى الصراع الداروينى من أجل التناسل لم يكن الرجل أكثر من عامل مساعد.

مع ذلك استطاع الرجل بمهارة أن يعوض هذا النقص عن طريق تفوقه فى الصراع من أجل البقاء، فلا قيمة لقدرة المرأة على الإنجاب دون غذاء يبقى على حياة الإنسان. وفى ذروة العصر الجليدى كان الرجل هو صاحب الفضل فى بقاء الجنس البشرى. ونتيجة لذلك ارتفعت مكانته الاجتماعية إلى الذرى. حتى وإن كانت تلك المكانة تتراجع فى الأوقات التى يتحسن فيها المناخ وتصبح المرأة قادرة على منافسته فى توفير الغذاء.

كان هناك نوعان من المجتمعات فى العصر الحجرى. ففى بعض المناطق كان النظام الغذائى قائما فى الأساس على نوع واحد من الحيوانات -مثل الرنة فى بعض مناطق فرنسا، وبعد ذلك بكثير بدأ سكان الأراضى العشبية فى أمريكا فى الاعتماد على الثور الأمريكى بالطريقة نفسها. وقد شكلت هجرة تلك الحيوانات -التى كانت تمثل أهم مصادر غذاء الإنسان-طريقة حياة القبائل التى اعتمدت عليها، فأينما ذهبت الرنة -أو الثور الأمريكي- تبعها الصيادون. ولأن الصيد كان هو الدعامة الرئيسية للقبيلة فقد سيطر الصيادون -الرجال- على المجتمع.

مع ذلك فربما كانت مجتمعات (الصيد-الجمع) هى الأكثر انتشارا. على الأقل فى نهاية ذلك العصر. وكانت تلك المجتمعات تنتفع بكل ما يمنحه الريف: الحيوانات والأسماك والمحار والطيور والنباتات. واتخذت تلك المجتمعات من الكهوف أو الملاجئ الصخرية محلا دائما للإقامة. لكنها اعتادت الانتقال صيفا إلى معسكرات نظامية فى التلال وراء الطرائد الأصغر حجما مثل الغزلان والأغنام والماعز خلال هجرتها السنوية من الأراضى الواطئة إلى المراعى العلوية الغنية.

بالطبع لا تتوافر لدينا أدلة محددة حول تقسيم العمل فى العصر الحجرى. لكن معظم الآراء تتفق على أن الرجل كان هو الصياد بينما كانت المرأة تقوم بعملية الجمع. وهذا صحيح على وجه العموم. مع ذلك فأحيانا يثار جدل أن المرأة ربما كانت لا تقل عن الرجل مهارة فى الصيد. حيث لا يوجد سبب منطقى يمنع امرأة شابة بصحة جيدة من الصيد تماما مثل الرجل الشاب الصحيح. وحتى الحمْل -فى مراحله الأولى- لم يكن عائقا للمرأة كما هو فى المجتمعات المتقدمة. فنساء الـ "أينو" Ainu• فى اليابان يعملن بحماس أثناء الحمل إذ يعتقدن أن ذلك يساعدهن على ولادة سلسة. أما نساء الـ"مبوتى" Mbuti• الأقزام فلا يعرن الولادة أدنى اهتمام. حيث يعدن إلى العمل بعد ساعتين أو ثلاثة من الوضع. ولا تمثل الرضاعة أى مشكلة إذا كان هناك الكثير من النساء يتناوبن القيام بدور المرضعات مما يتيح لبقية الأمهات أن يعدن للعمل فى الحقول. ولكن العمل فى

• الأينو: شعب يعيش فى جزر المحيط الهادى الشمالية. يعتمد على الجمع والصيد. (المترجم)

• المبوتى: شعب بدائى يعيش فى غابة إيتورى فى الجزء الشمالى والشمالى الشرقى من جمهورية الكونغو الديمقراطية. (المترجم)

الحقول يختلف تماما عن مطاردة غزال أو محاولة صيد ماموث* ضخم مغطى بالصوف. تلك الأنشطة التى تتطلب من الإنسان أن يكون فى ذروة قوته الجسدية —خاصة حين يكون المناخ قاسيا والصيد قليلا. وهذا بالتحديد ما لا تستطيع المرأة إنجازه فى فترة الحمل. حيث تصبح شديدة الحساسية للبرودة وسوء التغذية. وليس من الغريب أن يرفض آباء القرن العشرين أن يمنحوا بناتهن فرص استكمال تعليمهن لأنهن "سيضيعنه بالزواج". وربما كان هذا هو نفس شعور آباء العصر الحجرى إزاء تدريب البنات الطويل على الصيد.

وترجح الأبحاث الجينية أن خبرة الإنسان بالصيد قد بدأت منذ مليون عام. واليوم فى اختبارات القدرة على تحديد الأبعاد (القدرة على رؤية جسم ما والاحتفاظ بموقعه فى الذهن) يحرز الرجل درجات أعلى من المرأة. وقد نجح اثنان من العلماء الأمريكيين مؤخرا فى الكشف عن صلة وثيقة بين هذه القدرة وبعض المهارات الأساسية للصيد. منها القدرة على تحديد المسافة. ودقة التصويب. وهذه القدرة مرتبطة جينيا بالجنس. مما يوضح أن ذلك قد أكسب الذكر مزية خاصة[١١]. ولم يعتمد دور المرأة فى توفير الغذاء على تخمين المسافة أو البراعة فى التصويب. إذ كان قاصرا على جمع النباتات والقواقع وسرطانات النهر وبلح البحر والسلاحف الصغيرة وجوز البلوط وحبوب الفستق. وبالرغم من هذا فقد تأكد أن قدرة المرأة على الرؤية فى الضوء الخافت تفوق قدرة الرجل. كما أن المرأة تمتلك سمعا أكثر حدة[١٢]. تلك المؤهلات التى كانت أهميتها تتضح عند صيد الفرائس الصغيرة المختبئة تحت الأرض. أو السرطانات النهرية المندسة فى بعض الشقوق فى إحدى البحيرات تحت الظل.

صائدات أم جامعات؟ السؤال ليس أكاديميا فحسب. فقد كانت حياة القبائل الصيادة تتكيف بأكملها لتلائم نوع الحيوانات التى تتغذى عليها. وبالتالى لتلائم متطلبات الصياد. فكلما توفرت الطرائد كانت القبيلة توجه كل طاقتها لمساعدة الصيادين وإعدادهم لهذا العمل الشاق. ومن ثم فإن حياة القبيلة تتمركز حولهم. وحتى عندما تغير العالم ولم يعد الصيد بنفس الأهمية بقى الوضع القديم ولم يندثر. وبقى الرجل على القمة.

---

* الماموث: نوع من الفيلة عاش فى عصر البلاستوسين الجليدى فى شمال أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية. وقد اكتشف أول ماموث بتجمد عام ١٤٤٠. (المترجم)

أما فى مجتمعات (الصيد–الجمع) فقد كان الأمر مختلفا. ففى الظروف المناخية المعتدلة كانت المرأة تجمع تماما مثل الرجل. وكان هناك نوع من المساواة بين الجنسين. وأخيرا أصبح الرجل الصياد هو الرجل الراعى. وتحولت المرأة الجامعة إلى المرأة المزارعة. وكان لهذا التغير آثار لا تعد ولا تحصى على مستقبل العلاقات بين الرجل والمرأة.

التابو الأول

سرعان ما بدأ أسلوب الحياة الجديد الذى تطلبته حياة الكهوف فى التأثير على البناء الداخلى للقبيلة. فقد أدى الاستقرار الذى وفرته الكهوف إلى تطور عادات اجتماعية وأعراف أكثر عددا وتنوعا بدرجة لا تغيب عن أى متابع لإرساليات الإغاثة الحديثة.

كان المناخ البارد الذى تطورت عبره حياة الكهوف ملائما للحيوانات الأكبر والأقوى مثل الماموث المغطى بالصوف وثور المسك والثور الأمريكى. وكان حجم الحيوان لا يسمح بأن يصطاده أو يقتله اثنان أو ثلاثة من الرجال الذين لا يتعدى طول كل منهم خمسة أقدام. حتى وإن كان ذلك بمساعدة النساء الحوامل والأطفال الذين يصلون بالكاد للركبة. لذا كان العمل التعاونى ضروريا. وخاصة أنه سيكون ضربا من الحماقة من جانب أى قبيلة –فى صراعها من أجل البقاء– أن تصر على وضع حدود فاصلة بينها وبين القبائل الأخرى. فماذا لو اختار القطيع الوحيد فى مسافة عدة أميال أن يرعى على الجانب الخاطئ من الحدود؟

ويتفق المؤرخون على أن تلك كانت هى المرحلة التى بدأت فيها المفاوضات الدبلوماسية بين القبائل المتجاورة والتى أدت إلى تكون أحلاف الصيد. وكنتاج طبيعى سوف تبدأ المجتمعات المتفرقة فى التجمع. وأخيرا سوف تشرع التجمعات القبلية الأصغر فى الاندماج مع بعضها البعض والتحول إلى عشائر أكبر. وإن كان ذلك بشكل غير كامل. وبرغم أن كل قبيلة ستحافظ على درجة من الاستقلالية فإن القبائل جميعها ستسعى لتطوير طرق متشابهة فى التفكير. ومعايير متشابهة. وعادات متشابهة. ثم سينتج عن ذلك الاتحاد الفيدرالى بعض الاحتفالات والطقوس المشتركة كطقس البلوغ. هذه الطقوس التى تحوى خبرات شخصية مؤلمة امتدت لتصل إلى صورتها النهائية فى فصول التعليم الجنسى فى مدارس هذه الأيام.

كان من آثار زيادة التواصل بين القبائل المختلفة اتساع آفاق العشق. فالغرباء وحدهم هم الذين يقعون فى "الحب من أول نظرة". ويعتقد المؤرخون —متمثلين فى أذهانهم العائلات الملكية الحديثة— أن القبائل كانت تشجع على الزواج المتبادل كوسيلة لدعم التحالفات الأساسية. وهو احتمال قوى حتى وإن لم تكن كلمة "الزواج" هى الكلمة المناسبة فى السياق. إلا أن المؤرخين يعتقدون —وهم بذلك يحاولون ضرب أكبر عدد من العصافير بحجر واحد— أن القبائل كانت تشجع هذا النوع من الزواج عن طريق تحريم أى نوع آخر. وكانت تلك هى الخطة التى وضعت (بطريق المصادفة) نهاية لعلاقات زواج الأقارب التى حافظت على حياة الإنسانية خلال ملايين السنين من تطورها الأول.

والزواج الأسرى Incest هو الصورة الأكثر تطرفا من عادة قصر الزواج داخل الجماعة المجتمعية الواحدة وبين أقارب العصب Inbreeding. وعلى المدى البعيد يتسبب زواج الأقارب • فى ظهور جنس نقى موحد متأقلم تماما مع البيئة التى يعيش فيها. ولكن ذلك يعنى أن الاختيار الجينى الوحيد يقع بين بدائل متشابهة تماما. لذلك لا يمكن للانتخاب الطبيعى أن يعمل. ومن ثم لا توجد آلية يتحول بها مثل هذا المجتمع ليلائم الظروف الخارجية المتغيرة. فعندما تتبدل الأجواء أو تسوء ينحدر المجتمع. وعلى العكس من ذلك فإن المجتمعات المختلطة التى تشجع زواج الأباعد Outbred Societies توفر لنفسها المادة التى تتيح للانتقاء الطبيعى أن يعمل. ولذلك فهى جاهزة جينيا لتحقيق التكيف اللازم للتطور[١٣].

فى المجتمعات الإنسانية التى ظهرت قبل أن يبدأ الاتصال بين القبائل كان زواج الأقارب ضروريا، فقد كانت هناك فترات طويلة من التاريخ ظهرت فيها مجموعات لا يزيد تعداد كل منها عن أربعين أو خمسين فردا. وهؤلاء عاشوا حياتهم معا دون رؤية أى شخص آخر. وبالرغم من ذلك لم يكن الجنس البشرى ليستمر فى الحياة خلال كل التقلبات المناخية فى عصر البلاستوسين ما لم تكن هناك ظروف ملائمة لظهور بعض الطفرات فى الحمض النووى DNA. طفرات

• سنفرق فى هذا الجزء بين الزواج الأسرى Incest وهو زواج أقارب الدرجة الأولى. وبين زواج الأقارب Inbreeding. (المترجم)

تمكنه من مواجهة كل ظرف بمجرد ظهوره. ولا بد أن عُرفا ما تسبب فى تحاشى الاتصال الجنسى الأسرى وإلا لما أصبح البشر قادرين على الاختلاف والتباين.

إن تابو الزواج الأسرى تابو عالمى. مما يرجح كونه أحد المكونات الأساسية فى النظام الإنسانى منذ بداياته الأولى. وقد اعتاد الجميع أن ينظروا إلى هذا التابو باعتباره "طبيعيا" بالنسبة للإنسانية. مما جعل الحكام فى فترات متأخرة —من مصر إلى بيرو- يؤكدون سموهم عن البشر وأصلهم المقدس عن طريق كسر ذلك التابو عمدا.

وقد تصور العلماء أن الحيوانات لا يمكنها تحاشى الزواج الأسرى كونها لا تستطيع ملاحظة صلة القرابة. لكن إحدى الدراسات الحديثة للبابون الإفريقى أوضحت أن لديه نظاما للزواج ينفى إمكانية الزواج الأسرى عمليا. فخلال سبعة أعوام انتقل خمسة عشر ذكرا من بين عشرين —من المجموعات الثلاثة محل الدراسة- إلى قبيلة أخرى حتى لا يضطروا للزواج من أسرتهم. أما الخمسة الباقين فقد ماتوا أو رحلوا واختفوا —الأمر واحد فى الحالتين من وجهة نظر الزواج الأسرى[١٤]. وبدراسة أنواع أخرى من القردة وجد أن لديها ذلك التابو بشكل أساسى وغريزى وإن كان بدرجة أقل. فالأم عند قرد المكاك Macaque تتحاشى مضاجعة أبنائها. ونفس الأمر فى الشامبنزى[١٥]. أما فى الجيبون فالأمر مختلف. فالأب —عند مفارقة زوجته- يمكنه مضاجعة ابنته. والأم الأرملة كذلك يمكنها مضاجعة ابنها.

وأيا كانت الحقيقة فقد كان الزواج الأسرى هو تابو البشرية الأول. وليس أكل لحم البشر كما يعتقد الكثيرون. وبمجرد أن أصبح هناك اتصال كاف بين القبائل يتيح فرصة زواج الأباعد بات هذا النوع من الزواج هو الشائع. وكانت القدرة على التكيف العقلى والجسدى الناجمة عن هذا النوع من الزواج من أسباب زيادة سرعة التطور البشرى خلال الأعوام الخمسين ألف التالية مباشرة لثورة العصر الحجرى الحديث.

المشكلة السكانية

كان طبيعيا أن تقضى امرأة العصر الحجرى جُلّ وقتها إما فى الحمل أو فى رعاية أطفالها. ولكن ذلك لا يعنى أنها كانت تتحرك فى الحياة وهى تجرجر

عددا من الأطفال مختلفى الأعمار متعلقين بجونلتها المصنوعة من جلد الغزال. فلم يكن المواليد بتلك الكثرة. كما أن قليلا منهم فقط كان يبقى على قيد الحياة.

واليوم فى بعض أجزاء من إفريقيا توجد نسبة كبيرة من النساء (٢٠ إلى ٤٠ بالمائة فى مناطق الجابون والسودان والكاميرون وزئير•) لا يبقى لهن طفل واحد على قيد الحياة. كما أنه من المعتاد فى بعض مناطق زئير أن يصل معدل وفيات المواليد إلى ٤٥ بالمائة[١٦]. لكن الموقف لم يكن أبدا خطيرا مثلما كان فى العصر الحجرى (باستثناء بعض المناطق الجيبية المنعزلة) حيث كان هذا الوضع يهدد بفناء الجنس البشرى عن بكرة أبيه.

تعداد السكان الذى يعتقده العلماء يوضح عدد الأطفال الذين ولدوا وعاشوا حتى البلوغ. فمنذ مليون عام كان تعداد السكان —كما يظن العلماء— نصف مليون نسمة. وحوالى عام عشرة آلاف ق.م —بداية العصر الحجرى الحديث— ارتفع العدد إلى ثلاثة ملايين[١٧]. وترجح تلك الأرقام أن معدل الزيادة السكانية فى معظم الأوقات لم يتجاوز صفرا بالمائة. حيث يولد أطفال ليحلوا محل الذين يلقون حتفهم وحسب. ونظريا إذا نجح كل زوجين (بافتراض أحادية العلاقة) فى إنجاب ثلاثة أطفال بدلا من اثنين فقط يحلان محلهما لتضاعف الجنس البشرى ستة مرات خلال أربعة أجيال فحسب. أو أقل من مائة عام. لكن ذلك استغرق مليونا من السنين. وتلك بالطبع حسابات تقديرية تقريبية لا تمثل أكثر من نقطة انطلاق فحسب. وهى عرضة لكثير من التعديل والتغيير.

فيبدو أن النساء —على سبيل المثال— كن أقلية واضحة. وترجح دراسة الهياكل العظمية أن عدد الرجال كان يزيد على عدد النساء بمرتين أو ثلاثة. وأن الرجل غالبا ما كان يعيش لمدة تزيد عن المرأة بثمانية أعوام تقريبا[١٨]. وإذا كان الأمر كذلك لوجب على كل امرأة أن تنجب أربعة أطفال لتحقق نسبة الـ"صفر بالمائة" فى النمو السكانى.

بالإضافة إلى ذلك كانت سنوات خصوبة المرأة قليلة نسبيا. ففى العصر النياندرتالى Neanderthal• (منذ حوالى ٧٠ ألف عام) نجد أنه بين كل عشرة

• زئير: الكونغو الديمقراطية حاليا. والإحصائيات الواردة ترجع — على الأرجح — إلى سبعينيات القرن الماضى (المترجم)

• النياندرتالى: نسبة إلى كهف وادى نياندر Neander بألمانيا الذى اكتشفت بداخله أولى حفريات هذه المرحلة من التطور البشرى بمحض الصدفة عام ١٨٥٦. (المترجم)

يمرون بمرحلتى الطفولة والبلوغ يامل اثنان فقط أن يمتد بهما العمر حتى سن الثلاثين. وقد تحسن الأمر لفترة قصيرة منذ ٣٠ ألف عاما. فكان بإمكان اثنا عشر شخصا من بين كل مائة أن يبلغوا سن الأربعين[١٩]. لكن الظروف تدهورت ثانية حتى أصبحت أسوأ من العصر النياندرتالى نفسه حيث كان ستة وثمانين من كل مائة يموتون قبل الثلاثين. وينجح خمسة فقط من الناجين فى الاستمرار على قيد الحياة حتى قبيل الأربعين. وذلك جعل للمرأة المتوسطة خمسة عشر أو ستة عشر عاما من الخصوبة فحسب هى الفترة بين البلوغ والموت.

كان النمو السكانى أبطأ مما ينبغى. وكان هناك عدد من الأسباب التى أدت إلى ذلك بعضها ليس للإنسان يد فيه. فالمرض كان عاملا أساسيا رغم أن علماء الأنثروبولوجى الطبى الحديث –والذين لا يجدون سوى العظام لدراستها– لا يستطيعون تحديد الأمراض الباطنية التى تفشت فى العصر الحجرى الحديث. ولكن لا شك أن عصور ما قبل التاريخ شهدت أمراضا تشبه السيلان وداء الفيل. وهما المرضان المسؤولان بنسبة كبيرة عن العقم فى جنوب الصحراء الكبرى اليوم. وذلك رغم أن تناثر السكان ساعد فى المحافظة على حصر تلك الأمراض المعدية وتحديد انتشارها. ولما كان "علم الوقاية" مصطلحا حديثا فما من شك أن أمراضا معدية أخرى أقل تحديدا قد تفشت أثناء كل من فترتى الحمل والولادة.

سوء التغذية كان أيضا من العوامل التى أثرت فى النمو السكانى. إذ كان بمثابة خطر فصلى فى فترات طويلة من التاريخ، بل كان يستمر أحيانا لعدة سنوات متتالية فى ذروة العصور الحجرية. ويتسبب سوء التغذية فى خفض نسبة الخصوبة بطرق مختلفة. فهو يؤخر سن البلوغ عند البنات ويؤدى إلى الإجهاض أو ولادة أطفال موتى. وهو مسؤول كذلك عن موت الأمهات أثناء الولادة. وعن نسبة كبيرة من وفيات الأطفال الرضع. وكانت امرأة البانتو Bantu • بإفريقيا فى أربعينيات القرن العشرين تضع اثنتى عشرة بطنا ليبقى لها طفلان فقط على قيد الحياة[٢٠]. وفى الهند –وحتى أوائل السبعينيات– كان تسعة أطفال من كل مائة

• البانتو: شعب يحتل جزءا كبيرا من البروز الجنوبى لقارة إفريقيا. يمتد من ميناء دوالا فى الكاميرون على المحيط الأطلنطى وحتى كينيا على المحيط الهندى. ويبلغ عدد سكانه الآن نحو سبعين مليون نسمة. والكلمة Bantu تعنى الشعب. (المترجم)

يموتون من سوء التغذية قبل الخامسة[٢١]. ويعتقد العلماء أيضا أن سوء التغذية خلال العامين الأولين من حياة الطفل لها أثر دائم ومستمر على تطور المخ[٢٢]. وحيث أن سوء التغذية فى العصر الحجرى كان مؤثرا فى المجتمعات وليس فى الأفراد وحسب. فربما كان هذا قد تسبب فى تأخر التطور العقلى والجسدى للجنس البشرى.

ويعد طول فترة الرضاعة عاملا آخر من عوامل تقليل الخصوبة. ففى أيام إنسان بكين البعيدة —منذ نصف مليون عام— كان طفل الإنسان قد صار معتمدا فى غذائه على أمه لمدة أطول من بقية الرئيسيات. وتوضح بقايا الحفريات أن الأطفال الذين عاشوا فى "دراجون بون هل" Dragon Bone Hill نبتت لهم أسنان لبنية أكثر من القردة فى نفس مرحلة النمو. وحتى اليوم فمن الشائع فى المجتمعات القبلية أن ترضع الأمهات أطفالهن حتى سن عامين أو ثلاثة.

لم يكن الجنس البشرى فى مراحله الأولى يمتلك كثيراً من الوسائل التى تؤهله لمواجهة تلك العقبات على كثرتها. بل ربما لم يحاول من الأساس. لقد كان شيئا فطريا أن يتأقلم مع تلك الظروف عندما لم يكن هناك غذاء كافٍ للجميع. وترجح الدراسات التاريخية الحديثة أن القدرة على التأقلم هذه أفصحت عن نفسها —حتى فى فترة مبكرة مثل العصر الحجرى— من خلال الممارسات الغريزية —والتى قد يسميها المتخصصون فى علم الاجتماع الحيوى جينية— والتى كانت تهدف إلى تنظيم الكثافة السكانية بحيث لا تزيد بأى حال من الأحوال عن الموارد المتاحة.

وكانت الوسيلة الأبسط والأوضح لخفض عدد السكان هى قتل الأطفال. تلك العادة التى ظلت منتشرة فى أوروبا والهند والصين حتى القرن التاسع عشر مثلما انتشر الإجهاض فى الغرب هذه الأيام. وقد اتخذت هذه العادة أشكالا مختلفة. فأحيانا كان الأمر يقتصر على ترك الرضيع يواجه عناصر الطبيعة. أو تقديمه لإحداها ببساطة لتفتك به. وأحيانا كان الأمر أكثر بشاعة من القتل. وقد عرفنا مؤخرا أن بعض قبائل البولينسيان Polynesian* قتلت ثلثى أطفالها. أما

---

* البولينسيان: هم سكان جزر المحيط الهادى العديدة المتفرقة. ويرجح أنهم جاءوا إليها من الاتجاه الآسيوى. ويزيد تعدادهم اليوم عن مليون نسمة (المترجم).

الجاجاز Jagas –رعاة أنجولا المقاتلون– فقيل إنهم قتلوا جميع أطفالهم حتى لا يعوقوا النساء أثناء السير والارتحال. وعند الحاجة فهم يتبنون بالقوة بعض مراهقى القبائل الأخرى. وفى القرن التاسع عشر –فى غرب استراليا– كانت هناك قبيلة تأكل كل عاشر مولود حتى يقللوا من عدد السكان للحد الذى تحتمله أراضيهم(٢٣).

فى معظم حالات قتل الأطفال كانت الضحية هى الأنثى. ليس تعصبا ذكوريا. بل لأن تلك الضحية كانت ستصبح مصدرا آخرا لإنجاب مزيد من الأطفال فى المستقبل، مما يهدد كمية الغذاء المتاحة ليس من خلال شخصها فحسب وإنما من خلال ذريتها أيضا. وبالإضافة إلى كل ما سبق فقد كان هناك احتمال كبير لموت الأطفال عرضا أو فى المشاجرات الطفولية أو فى الحروب بين القبائل.

ومن وسائل تحديد النسل التى يرجح أن الإنسان استخدمها خلال الفترة الأخيرة من العصر الحجرى كانت موانع الحمل. وهى ليست اختراعا حديثا كما يظن الكثيرون. فقبل بدء الزراعة بوقت طويل كانت النساء على دراية تامة بخصائص معظم النباتات التى كانت تنمو بقرب أماكن معيشتها. بل أن الشعوب البدائية التى تعيش فى العصر الحديث كانت تستخدم عقاقير نباتية لمنع الحمل قبل أن يسمع أحد عن "الحبوب" بوقت طويل. وقد أثبتت تلك النباتات فاعليتها. فى غابات بارجواى الوسطى يجفف نبات الستيفيا Stevia Rebaudiana ويسحق ثم يغلى فى الماء. وتتناول المرأة التى ترغب فى منع الحمل كأسا منه يوميا. وتستخدم قبائل النيفايو Nivajo –أو استخدموا– شايا من الباهيا Bahia Regleaf. والشوشونى Shoshoni فى نيفادا يستخدمون شرابا من نقيع البذور الصلبة. والهوبيس Hopis مسحوقا من جذور الأرسمية Jack-in-the-pulpit المجففة. وبالرغم من أن الأطباء يترفعون عادة عن الطب الشعبى إلا أن التجارب المعملية على الحيوانات رجحت أن أدوية الباراجواى والشوشونى لها بالفعل خصائص مانعة للحمل. ولأن دور الذكر فى الإنجاب ظل مجهولا كان العقار الذى يؤثر على المرأة هو مانع الحمل الوحيد الذى يظهر فى الصورة.

وأخيرا كانت هناك وسائل اجتماعية بحتة لمحاولة تحديد النمو السكانى. وكان معظمها –بالضرورة– موجها نحو المرأة. وطبيعى أن بعض التابوهات الخاصة بالحيض (انظر ص ٣٩) لا تعنى شيئا إذا نظرنا إليها بعيدا عن هذا

السياق. وكمثال على ذلك فقد اعتاد الهنود الحمّالون Carrier Indians* في كولومبيا البريطانية أن يرسلوا البنات اللاتى جاءهن الحيض ليقضين ثلاثة أو أربعة أعوام في عزلة تامة في البرية. وكانوا ينظروا إليهن باعتبارهن خطرا على أى شخص يراهن. بل اعتقدوا أن أقدامهن تدنس أى طريق يطأن[٢٥]. وعند تعرية هذا التابو من جانبه الرمزى ومن العلامات القدرية التى كانت من دعائم هذا النظام. نجد أنه لم يكن سوى وسيلة لإقصاء البنات وإبقائهن فى عزلة كان يعرف "الحمّالون" أنها تصرف خصوبتهن.

وبالرغم من أن إنسان القرن العشرين لن يصدق بسهولة —من موقعه المتميز— أن إنسان العصر الحجرى الحديث قبل عشرات الآلاف من السنين كان على أدنى دراية بخطر الانفجارات السكانية. أو كانت لديه أدنى رغبة فى تحديد النسل. فإن علماء العصر الحديث اكتشفوا علاقة متبادلة بين ثبات عدد السكان والظروف العصيبة. وبين تزايد عدد السكان وتحسن الظروف. مما يؤكد أنهم كانوا يتمتعون بتلك الدراية. إذ لا يكفى التحسن فى موارد الغذاء وحده كتفسير لتلك الزيادة السكانية الضخمة التى صاحبت ثورة العصر الحجرى الحديث واكتشاف الرجل أن بإمكانه —أخيرا— التحكم فى مصادر غذائه.

رمز الجنس فى العصر الحجرى

الصورة المرسومة عن أناس العصر الحجرى غير واضحة المعالم. فنحن نعرف القليل عن طرق وأماكن معيشتهم، ولكن كيف كانوا يفكرون؟ وكيف كان شكلهم؟ أكانوا جادين مثلما يصورهم المؤرخون الجادون؟ أما كانوا يتمتعون بروح الدعابة؟ وتمثال فينوس* الذى وصلنا والذى أثار جدلا واسعا. أكان يمثل ربة أولى للخصب؟ أم مجرد تصوير لسيدة بدينة تجلس فى أحد أسواق العصر الحجري؟

---

* الهنود الحمالون: يعيشون فى أمريكا الشمالية. وسبب تسميتهم بالحمالين ترجع إلى عادة طريفة عندهم وهى أن الأرملة التى ترغب فى الزواج عليها أولا أن تحمل رماد زوجها الراحل فى سلة لمدة ثلاث سنوات كاملة بينما تقوم بخدمة أهل ذلك الزوج. (المترجم)

* فينوس: إحدى آلهة الرومان. وهى المقابلة لأفروديت ربة الجمال عند الإغريق. وتستخدمها الكاتبة من الآن فصاعدا كرمز أو نموذج للجمال. (المترجم)

التكنولوجيا —تلك الثروة العظيمة والكنز الثمين– تترك آثارا صريحة يمكن أن تتبعها الأجيال التالية. مع ذلك فبعض هذه الآثار يصعب فك شفراتها. صحيح أن صنارة ما قبل التاريخ هى صنارة ما قبل التاريخ. وعلماء صيد الأسماك المتحمسون هم وحدهم الذين سيقضون وقتهم فى تحليل جوانبها الفنية وخلفياتها الفلسفية ودلالاتها الروحية. لكن تمثال فينوس شىء مختلف.

اكتشفت أكثر من ستين من تلك التماثيل. معظمها فى شرق أوروبا الوسطى وقليل منها فى فرنسا وأوكرانيا وسيبيريا. وهى مصنوعة منذ أكثر من عشرين ألف سنة من عاج الماموث أو الأحجار الناعمة أو الطين المحمص بعد خلطه بالرماد. وهى تماثيل صغيرة فى العادة لا يتجاوز طولها أربع أو خمس بوصات (١٠ إلى ١٢.٥ سم) وبلا أى محاولة لرسم الوجه --باستثناء اثنتين وهما غير مكتملتين على أى حال. وينصب التركيز على انحناءات وتعرجات الجسد العديدة. وهى كما يصفها أحد المؤرخين منذ خمسين عاما "نحت للنموذج المثالى للأنثى مع تضخيم الأجزاء الأمومية." [٢٦]

أما الآراء الحالية فهى كالتالى:

أ–التركيز فى هذه التماثيل "جنسى بلا أدنى شك" جراهام كلارك Graham Clark.

ب–"لم تلعب التفاصيل الجنسية مثل هذا الدور الضئيل فى تصوير الأنثى من قبل" رينيه نوجيير Rene Nougier.

ج–تمثال فينوس "صلاة سحرية للخصب" والتر توربرج Walter Torbrugge.

د–إنه "ليس رمزا للخصب. بل امرأة كهلة شوهت كثرة الولادة جسدها" ريتشارد لوينسون Richard Lewinson.

هـ–"يجب النظر إلى التماثيل فى السياق الرمزى لفن الكهوف الذى هو دينى بالدرجة الأولى.." مدرسة أندريه لوروا جوران Andre Leroi-Gourhan.

و–"يمكن أن نرفض تماما وببال مرتاح أى اعتقاد بأن لها أهمية دينية" تشارلز سيلتمان Charles Seltman. [٢٧]

ولأننا اعتدنا أن نشير إلى الفنان بوصفه "هو" وهو ما يحمل دلالات جنسية واضحة. ثمة توجه عام لاعتبار فنان العصر الحجرى —والذى بات خبيرا بالفعل فى رسم الصور ثنائية الأبعاد للحيوانات البرية– قد حاول ببساطة أن يجرب يديه فى تصوير من حوله مستخدما "موديل" بعد أن أقنعها بالوقوف أمامه ساكنة ريثما

ينتهى من عمله. والاعتراض التقليدى على قبول هذه التماثيل بوصفها تصوير لأناس حقيقيين يرجع إلى اشمئزاز غريزى من شكل الجسد الذى صوره فنانو العصر الحجرى. فنجد ريتشارد لوينسون يبدى ملاحظته قائلا "لابد وأن الحياة الجنسية فى العصر الحجرى كانت تفتقر إلى الإيروتيكية. حيث أن هذه الـ"فينوس" (من ويلندورف Willendorf فى النمسا)• لم تكن أكثر من كتلة من الشحم". مع ذلك فحتى عين الإنسان الحديث —والتى شكلتها الثقافة الغربية وثقافة مشدات الصدر– يجب أن تكون قادرة على تمييز الشبه العائلى بين الأثداء والبطون البندولية فى تماثيل فينوس وتلك الخاصة بنساء المجتمعات القبلية فى العصر الحديث. ومع أن تماثيل فينوس ربما تكون "مُنجَدة" بكرم أكبر. إلا أنها صنعت فى فترة لم يكن شكل الإنسان قد تأقلم فيها بعد —بسبب تأخر التطور– على الظروف الأحسن الناتجة عن انحسار الجليد. فالتاريخ المدون يوضح أن الذين يعيشون فى مناخ بارد دائما ما تتكون لديهم طبقة وقائية من اللحم. وأحيانا ما تكون تلك الطبقة نتيجة الاعتياد على تناول الأطعمة الدهنية. بل وقد تصبح وراثية على المدى البعيد. والفرضية التى تقول أنه لا يمكن لامرأة —أو امرأة يرغب فيها الذكر– أن تكون على شاكلة تماثيل فينوس هى ضرب من الغطرسة الغربية الحديثة. فليس هناك دليل ينفى كون تلك التماثيل الشكل البدائى —فى العصر الحجرى الحديث– الذى تطورت عنه فكرة "فتاة الجنس لهذا الشهر" The Playgirl of the Month.

وينصب التركيز فى تلك التماثيل على خصائص المرأة الجنسية مثل الأثداء الفسيحة ودهن العانة Mons Pubis وكذلك على الخصائص الأنثوية الأقل قيمة مثل البطن المنتفخة والأرداف، وربما اختار الفنان أن يبالغ فى هذه الخطوط مثل رسامى الكاريكاتير فى أيامنا. وإن كانت له أسباب مختلفة بالطبع. ربما كان الدافع كذلك هو متعة اللمس البحتة. والرضا الاستطيقى الذى يسببه التعامل مع تلك الكتل. وتحسس البطن والأشكال الناعمة والكروية. وهذا يوضح أيضا —دون شك– التعامل السطحى مع الأذرع والأرجل. ويفسر لماذا كانت كل التماثيل الكاملة التى وصلت إلينا ذات وجوه مصمتة وبلا ملامح.

• تمثال فينوس ويلندورف: اكتشف عام ١٩٠٨ ويرجع تاريخه إلى عام ٢٥ ألف أو ٣٠ ألف ق.م. يبلغ طوله ١٠.٢ سم ويظهر فيه الثديان والردفان بشكل متضخم. أما الرأس فهو بلا ملامح. (المترجم)

عدم تصوير الوجوه لا ينفى القدرة على تصويرها. فالواقعية كانت عنصرا أساسيا فى رسوم الكهوف. والتى كانت تتم –كما يرجح البعض– لفرض سيطرة سحرية على الحيوانات المرسومة. وليس من الصعب تخيل مرحلة من مراحل التطور العقلى ساوى فيها الإنسان بين القدرة على الإمساك بصورة ما وبين الخطر الذى يحيق بأصل تلك الصورة. وبينما كانت المرأة على استعداد أن تسمح للفنان بتصوير جسدها ربما كانت لا تزال متحفظة فى أن ينحت وجهها –الخاص والمتفرد– ويشكله بالطين. وهناك أمثلة مشابهة لذلك فى أوقات متأخرة. فأثناء القرون الأولى من الإسلام– على سبيل المثال– كان تصوير الوجوه (البورتريهات) مكروها كراهة شديدة وبسلطة الأحاديث.

وتؤكد تماثيل فينوس بوضوح أن امرأة العصر الحجرى فى أوروبا الوسطى كانت لحيمة وبادية التفاصيل وتعانى من ترهل فى عضلات الصدر والبطن. وربما كان ذلك لتعدد مرات الحمل.

وبالطبع كان فنانو ما قبل التاريخ يقصدون الكثير من وراء ذلك. أكثر من مجرد الشكل. وهناك نظريتان أساسيتان تقول الأولى –والتى أثيرت الشكوك حول مصداقيتها مؤخرا– إن تلك التماثيل تصور الأمومة بمفهوم نصف تجريدى يجمع بين الأمومة المادية من جهة وبين دور الأم فى حماية أطفالها من جهة أخرى. بعض التماثيل تصور امرأة حبلى بلا جدال. وإن كان أحد علماء التاريخ الطبى له رأى مختلف عن تمثال عثر عليه فى لوجيرى باس Laugerie Bass بفرنسا إذ يقول "ربما تنتظر تلك المرأة حدثا سعيدا بالفعل. مع ذلك فليس من المستبعد أن تكون مصابة بكيس على المبيض Ovarian Cyst ليس إلا"[٢٨]. ولسوء الحظ ففى هذا المناخ الخانق لدراسات العصر الحجرى لا تصبح تلك الواقعية الصارمة على هذا القدر من الأهمية. فما يهم ليس هو ما كان يقدمه الفنان. وإنما ما كان يعتقد أنه يقدمه. والاعتراض الرئيسى على فكرة الأم–الحامية أنه لم يتم اكتشاف تمثال لأم وطفلها سويا. بالرغم من أن مثل هذا التمثال كان سيعبر عن تلك الفكرة أصدق تعبير.

أما النظرية الثانية فهى تجمع بين مظهر التماثيل شديدة الجاذبية وبين ما يعرف بخطوات الإنسانية المترددة نحو دين فى طور التكوين. وهنا تصبح فينوس صنما للخصب إن لم تكن ربة خصب مكتملة. ومشكلة هذه النظرية تتلخص فى أن الإنسانية –فى تلك الفترة– لم يكن لديها الكثير من الحماس تجاه الخصوبة البشرية. فزيادة الأطفال يعنى زيادة المشاكل. وإن كانت فكرة الخصوبة قد

وجدت لكان يجب أن تتضمن أكثر من الحمل. كان يجب أن تتضمن العمل على تجنب الإجهاض وولادة أطفال موتى والتغلب على مشكلة وفيات الأطفال الرضع. والسعى نحو تربية الطفل بأمان حتى يصل لسن المراهقة. وياله من طموح هذا النحات الذى كان سيفكر فى تصوير كل هذا فى تمثال واحد من أربع بوصات (١٠سم). وإن كان رجل العصر الحجرى قد عنى بالخصوبة من الأساس لاهتم فى المقام الأول بخصوبة حيواناته مصدر غذائه. فغزال حبلى أو بقرة حبلى ستكون أجدى من امرأة حبلى. وفى الواقع فإن كل أصنام الخصب التى ظهرت فى أوائل فترات التاريخ المدون ليست موجهة لا للإنسان ولا للحيوان وإنما للتربة. ويبدو أن الأمر لم يشغل بال الإنسان إلا عندما تحول إلى مزارع فى وقت ما بعد عام ٩٠٠٠ قبل الميلاد.

وسواء كان لتلك التماثيل أهمية سحرية أم لا فمعظمها —على الأقل— يشبه امرأة العصر الحجرى مع بعض الاختلافات. أما بالنسبة للرجال فالفن لم يذكرهم تقريبا. فليس هناك سوى القليل من الرسوم البدائية لرجال فى مناظر الصيد. وعدد من التماثيل متخفية تماما خلف أقنعة وجلود حيوانية —ذلك اللباس الذى استخدم عند الصيد والذى يُعتقد أن السحرة الأوائل أو رجال الطب كانوا يضعونه لأسباب طقسية. ولكن فى كل أنواع الفنون فى العصر الحجرى كان من الشائع استخدام القضيب للإشارة إلى الرجل. وهو رمز شيق بالنسبة لعلماء العصر الحديث وإن كان لا يقدم معلومات محددة•.

وبافتراض أن الرجل لم يكن قد اكتشف دوره الحيوى بعد فإن هذه الرموز تدفعنا للاعتراض على النظرة إلى تماثيل فينوس كتماثيل للخصب. فالقضيب إن كان رمزا لشىء ما فهو بالتأكيد رمز للرجل كرجل. وربما كذكر فحل. وإن كان هذا صحيحا يمكن اعتبار تماثيل فينوس بالتبعية تصويرا مماثلا للمرأة كامرأة. وكشريك فى العملية الجنسية.

• إلا حول عقول الفنانين الذين أبدعوها أحيانا. ويلاحظ المدققون نوايا إبراز ذلك الجزء من الجسد حتى فى الصور والتماثيل التى كانت بريئة تماما من أى هاجس جنسى فرويدى.

٢- الرجل فى السيادة

قبل نحو ١٢ ألف عام كان الرجل والمرأة قد استطاعا تنمية مهاراتهما البشرية الطبيعية —بل والحديثة – بالقدر نفسه. رغم ذلك لم يبرعا سوى فى الافتراس. ومن ثم كان تأثيرهما على العالم المحيط لا يتعدى تأثير الأسد أو الذئب أو ابن آوى. كانت لهم عقول وبدؤوا بالفعل فى استخدامها. إذ عرفوا صناعة الأدوات والملابس وبناء الملاجئ. كما كانوا فنانين ونحاتين وطهاة مهرة. لكن أيا من تلك المهارات لم تكسبهم القدرة على الاستقلال عن بيئتهم. كانت حياتهم بأكملها قائمة على مصادر الغذاء. وكانت تلك المصادر شيئا لم يتعلموا السيطرة عليه بعد. مع ذلك كانت الثورة الحديثة على الأبواب. وعندما اكتشف الإنسان زراعة المحاصيل وتربية المواشى تغير أسلوب حياة البشرية. بل وتغير وجه الأرض وحياة كل ما عليها.

لم يكن العصر الحجرى الحديث ثورة بالمعنى الحديث للكلمة. لم يكن سلسلة من الأحداث المحددة التى يمكن حساب تواريخ محددة لها. بل كان مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى حدثت فى أوقات مختلفة فى أماكن مختلفة من العالم. ففى جنوب شرق آسيا بدأ مبكرا. ربما فى عام ٩٧٥٠ ق.م. وفى الشرق الأدنى —الذى يعد تاريخيا أفضل المناطق الموثقة للعالم القديم– بدأ فى نحو عام ٨٠٠٠ ق.م. وبعد ذلك فى المكسيك عام ٧٠٠٠ ق.م تقريبا. وليس قبل عام ٥٠٠٠ ق.م فى المناطق الشمالية من قارة أوروبا. أما فى الجزر البريطانية فقد بدأ متأخرا نسبيا فى نحو عام ٤٠٠٠ ق.م.

أثناء العصر الحجرى الحديث تحول الرجال والنساء إلى مزارعين. ويعرف علماء النبات أنواع الحبوب التى كانوا يزرعونها. وبالنسبة للرعاة فقد استطاع علماء الحيوان توضيح مراحل ترويضهم للحيوانات. أما عن الخزافين فقد عثر علماء الآثار على حفريات من الأطباق والأوانى مازالت محتفظة بنقوشهم عليها. وهناك أيضا تماثيل للآلهة والملوك الذين خضعوا لهم وسلموا لهم أمرهم. وأخيرا ثمة ألواح طينية تحمل نقوشا تؤكد أنهم قد عرفوا الكتابة والحساب. ووضعوا

تقويما لأيام عامهم. وتؤكد كذلك أنهم خضعوا لقوانين واجبة الطاعة. وطقوس موسمية واجبة الأداء. وضرائب واجبة الدفع أولا بأول. مع ذلك فلا يزال هناك بُعد كامل مفقود من السبعة آلاف عام المذهلة التى قفزت بالبشرية من تلك الحياة التى توصف بأنها (كريهة وقاسية وقصيرة) إلى حياة الحضارة الكاملة. وذلك البُعد المفقود هو بُعد الاكتشاف.

ثورة العصر الحجرى الحديث

كانت المسألة مسألة توقيت. مسألة تناغم وتناسق بين حالات العقل وتغيرات الطقس. ففى أحيان كثيرة قبل هذا العصر —على طول مسيرة التطور الإنسانى— كانت الثلوج تنحسر ويتحسن الطقس. لكن أبدا لم يظهر من قبل الناس المناسبون فى المكان المناسب. وتحديدا فى الوقت المناسب.

فى مكان ما. وحوالى عام ١١ ألف ق.م بدأ الثلج فى الانحسار شمالا إلى حد ما للمرة الأخيرة. ونتج عن ذلك ظهور شتاء بارد رطب وصيف حار وجاف فى الشرق الأدنى. مما شجع على ظهور الأعشاب البرية سريعة النمو على حساب ذلك النوع من النباتات الذى يحتاج لفترة نمو أطول. وفى الأراضى المفتوحة نبتت حقول طبيعية من القمح البرى والشعير. لكن الحبوب البرية لا تحتفظ بالبذور طويلا. لذا فإن ذلك المحصول الغنى من الغذاء المجانى لم يكن متاحا إلا لهؤلاء الموجودين لحصده خلال أول أسبوعين أو ثلاثة. حيث تكون البذور الناضجة لا تزال عالقة بالساق. كان هناك ما يكفى قبيلة كاملة لعام كامل. بل وربما عدة قبائل إذا ما كانت السهول واسعة. لكن الإنسان لم يكن قد اخترع "العجلة" بعد. ولم تكن لديه حيوانات جر. لذا كان من المنطقى أن تنتقل العائلة إلى الحقول بدلا من نقل منتجات تلك الحقول إلى العائلة.

وثمة اعتقاد حاليا أن تلك كانت المرحلة التى بدأ فيها ظهور القرى حول الحقول. والتى كان من أهم نتائجها بداية تناقص الحبوب البرية حيث كانت تُحصد بانتظام، ولم يكن لتلك المشكلة من حل سوى بالتدخل المدروس من الإنسان. وتدريجيا اختفى نظام جمع المنتجات الطبيعية العتيق. وحل محله نظام الزراعة الذى كان بدائيا ربما ولكنه يفى بالغرض.

وإذا كان هناك من يُنسب إليه الفضل فى أحد التطورات التاريخية التى يمكن وصفها بأنها صانعة عهد جديد فهى المرأة دون أدنى شك. إذ تطورت

الزراعة على أساس معرفة المرأة. ومن الواضح أن المرأة قد عرفت أن النباتات الجديدة تنتج من البذور. وأن تلك المعرفة دامت لعدة آلاف من السنين. لكن ترجمة تلك المعرفة إلى حقول متموجة من القمح كان عملا يفوق خيال العصر الحجرى. حتى حدث ذلك بالصدفة كنتاج لإحدى حيل المناخ.

كانت تلك هى نقطة البداية التى تفرعت منها كل التطورات التالية. كانت نقطة بداية العمل والنظام والمسؤولية التى كانت غير ذات معنى فى سياق حياة العصر الحجرى. لقد أصبح العقل البشرى بتأثيره بعيد المدى عرضة لنظم جديدة وصارمة.

بسرعة كبيرة تزايدت سيطرة الإنسان على أحد مصادر غذائه الدائمة. مما أتاح له الفرصة لبدء مشروع جديد. فبرغم أنه كان قد روض الكلب (الذئب الآسيوى الصغير) فى أواخر العصر الحجرى. إلا أنه أراد أن يغامر بمحاولة ترويض حيوانات الغذاء. والتى كان غذاؤها متداخلا مع غذاء الإنسان. وتلك المغامرة كانت عظيمة وجديرة بالاهتمام. فالخروف الواحد يمكنه أكل مائة رطل (٤٥ كيلوجراما) من العشب فى أسبوع واحد. أى ما يعادل دزينة من البشر. مع ذلك فقد جعل نظام الزراعة الجديد تربية المواشى أمرا محتما. إذ اجتذبت الحقول بعض الطرائد الصغيرة مثلما اجتذبت الإنسان. وبدأت تلك الحيوانات فى التكاثر فى العراء على حواف الغابات والأجمة الجديدة. ويبدو أن ترويض أولئك المغيرين كان أسهل من حماية الحقول من هجماتهم. وكان يمكن تقسيم الحبوب الفائضة. فبعد الحصاد كانت تُطلق المواشى لترعى على البقية الباقية. كان من بين تلك المواشى الأغنام والماعز. وهى حيوانات تعيش فى قطعان بطبيعتها ولا يصعب ترويضها. وفى حوالى عام تسعة آلاف ق.م بدأت أولى مراحل الترويض فى كل من العراق ورومانيا.

لمئات الآلاف من السنين ظل الرجل دارسا للحيوانات فيما كانت المرأة خبيرة النباتات. ورجحت كل من الفطرة والجينات استمرار هذين الدورين. لقد حولت المرأة عصا الحفر التى كانت تنتزع الجذور من التربة والسراطين من الشقوق إلى معزقة. ثم إلى محراث. أما الرجل فقد عكف على المواشى بدلا من الحيوانات البرية. واكتشف أن تلك المواشى يمكن أن تمد القبيلة ليس باللحم والصوف والجلد والشحم فحسب. وإنما —للمرة الأولى— باللبن واللبن الرائب والجبن. تلك العناصر الجديدة والقيّمة فى غذائه. ولأن الرجل أصبح لديه وقت فراغ أطول من ذى قبل —حيث لا جلسات تخطيط مكثفة ولا تدريبات للمحافظة على اللياقة ولا

أيام طويلة فى التجوال ولا مجهود جسدى وذهنى يبذله فى الصيد- فقد وجد الوقت الكافى للجلوس والتفكير.

ربما لا يبدو ذلك واضحا. لكن معظم العادات وكثيرا من الاختراعات التى ظهرت فى الفترة من بداية ثورة العصر الحجرى الحديث وحتى بداية التاريخ المدون بعدها بسبعة آلاف عام كان الفضل فيها يرجع للذكر دون شك. ويُرجع المؤرخون الذكور -الشجعان منهم- ذلك أحيانا إلى تفوق ذكورى طبيعى. أما الكاتبات النسويات فيتجادلن حول ما إذا كانت هناك مساهمة نسوية تم إخفاؤها عن عمد. أم أن امرأة العصر الحجرى الحديث كانت تحت السيطرة لدرجة أن أفكارها وآراءها ذهبت هباء. وإذا نحينا جانبا عواطف العصر الحديث وانحيازاته سنجد أن المرأة كانت مشغولة لدرجة لا تسمح لها بالأفكار التأملية. فقد كان عليها القيام بالزراعة وجمع الوقود ورعاية البيت وما يشتمل عليه من ولادة الأطفال وتربيتهم. بالإضافة إلى الجهد العضلى الجهيد فى تقشير الحبوب. بينما كان الرجل -الذى يرعى قطيعه فى سلام- لديه الوقت والفرصة للتفكير البنّاء. كما كان لديه الوقت ليطلق العنان لتخيلات جديدة. وأن يربط الحقائق ويتساءل وينتج العناصر التى سوف تتكامل فى النهاية لتصنع الحضارة.

مع ذلك فإن هذا يظل جزءا من التفسير فحسب. فلا قيمة للوقت أو الفرصة إذا لم يصاحبهما زيادة الثقة بالنفس.. ذلك الشعور الذى يمكنه أن يفتت الجبال.

نظريات التكاثر

ليس من السهل قبول أن الإنسان العاقل -بعد ظهوره بصورته الكاملة بأكثر من مائة ألف عام- كان لا يزال جاهلا بحقائق الحياة البيولوجية عندما بدأت ثورة العصر الحجرى الحديث.

مع ذلك فحتى فى القرن العشرين ما تزال هناك شعوب قبلية تعيش فى جهل تام. فال"بيلونيز" Bellonese سكان جزر سليمان كانوا يعتقدون أن الأرباب التى يمثلها أسلافهم هى التى ترسل الأطفال إليهم. وأن الفائدة الوحيدة للجماع هى المتعة فحسب. وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى تم تنويرهم عن طريق البعثات التبشيرية المسيحية فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين. وفى الستينيات كان زنوج نهر التولى Tully River Blacks فى شمالى كوينزلاند (الاسترالية) يعتقدون أن المرأة تحمل لأنها ظلت تجلس على النار التى شوت

عليها سمكة أعطاها إياها أب المستقبل. وكانت قبيلة أسترالية أخرى تعتقد أن المرأة تحمل عن طريق تناول لحم بشرى. أما سكان جزر تروبرياند Trobriand -وبرغم معرفتهم التامة لوظيفة الجماع عند الحيوانات- لم يربطوا بين ذلك وبين الإنسان بأى حال من الأحوال. وفى بابوا نيوغينيا ما تزال قبائل الهوا Hua تؤمن أن الرجل بإمكانه أن يحمل (إذا أكل الأبسوم) وربما يموت أثناء الولادة. وعندما فسر أحدهم حقائق الحياة والأبوة الغريبة لواحدة من النساء فى إحدى قبائل استراليا استنكرت ذلك ورفضته رفضا قاطعا. وردت باحتقار "هو.. لا شىء!"[1]. وحتى الشعوب التى تعرف الدور الحيوى للأب أحيانا ما تكون معرفتها بالتفاصيل مشوشة. ففى الهند فى القرن العشرين قال أحد الزعماء المهمين فى قبيلة سيما Sema لأحد الزوار الأوروبيين إنه "من السخف افتراض أن الحمل ينشأ عن مرة جماع واحدة فحسب"[2]. وحتى داروين نفسه قال ما يشبه ذلك ولم يعرف أبدا أن الإخصاب يتم عن طريق حيوان منوى واحد.

وينظر بعض علماء الأنثروبولوجى إلى معظم تلك الحالات باعتبارها خيال محض. أو سلسلة من سوء الفهم المتعمد. أو حتى خدعة عملاقة ابتكرتها الشعوب القبلية لاختبار مدى السذاجة الغربية. ويعترض أولئك العلماء على ذلك بأن الجنس قد أصبح كتابا مفتوحا منذ العقود الأولى من القرن العشرين.

ولكن هل الأمر كذلك حقا؟ فى انجلترا الحديثة التى تغطيها وسائل الإعلام من أقصاها إلى أقصاها وفى عام ١٩٧٧ كتبت إحدى الفتيات التى أنجبت من عشيق أسود لباب المشكلات فى مجلة نسائية بارزة. إذ كانت على وشك الزواج من رجل أبيض. وتساءلت عما إذا كان الدم الزنجى ما زال بداخلها وهو ما يعنى أنها ستسمر فى إنجاب أطفال سود؟ وتساءلت فتاة أخرى عما إذا كانت الحبوب التى تمنعها من الحمل من زوجها تفعل نفس الشىء مع عشيقها؟ ويبدو أن بعض الرجل كانوا يتناولون الحبوب مع زوجاتهم أو صديقاتهم "فقط لمزيد من الأمان"[3].

فى العصر الحجرى كان من الطبيعى أن تحمل المرأة. ولم يكن ثمة سبب محدد للتساؤل عن كيفية ذلك. وكانت إناث الإنسان وإناث الحيوان تشترك فى هذا الأمر. مع ذلك فقد كان هناك نوع من الاختلاف. وربما كان هذا الاختلاف هو نقطة البدء التى تطورت عنها كل تأملات الرجل اللاحقة. ففى النصف الشمالى من العالم -حيث وصلت معرفة الجنس البشرى مرحلة النضج- كانت الحيوانات تختلف عن النساء (وفى الواقع عن بعض حيوانات النصف الجنوبى

أيضا) فى أنها لا تتعرض لذلك النزيف الوقتى الغامض الذى يسميه العالم الحديث بالحيض.

التابو الثانى

فى عالم ما قبل التاريخ —وكما جاء فى سفر تثنية الإشراع بعد ذلك بزمن طويل— كان الدم هو الحياة. منذ اللحظة الأولى عندما ابتكر الرجل (أو المرأة) سؤال "لماذا؟" —وهو السؤال الذى كان علامة التحول النهائى من طور القردة إلى طور البشر— بدأ (أو بدأت) فى محاولة نسج أفكار عن العلاقة بين الحياة والموت، واللحم والدم والروح. ومن السهل إدراك كيف أدت محاولات التفكير المترابط تلك إلى استنتاج أن الدم ليس أساسيا للحياة فحسب بل هو سر الحياة. فهناك دم فى لحظة الولادة. ودم —غالبا— فى لحظة الموت. ومن ثم اعتقد الإنسان الأول أن للدم قوة إيجابية خفية، ولأنه كان ينظر إليه باعتباره عامل الإحياء (والبعث) فقد استخدمه فى طقوس سحرية عديدة. وفى معظم طقوس الموتى. وفى غالبية تعاملاته مع الآلهة والأرواح[٤].

وعندما ظهرت مشكلة دم الحيض —كما تظهر الآن بكثرة عند مناقشة العلاقة بين الحالة النسبية للجنسين فى الماضى والحاضر— كان يجب أن يتذكر الإنسان الأهمية الغامضة للدم ككل. ومثل معظم مواضع الخلاف الأخرى يبدو أن جذور تابو هات الحيض لا ترجع إلى كراهية متعمدة. وإنما إلى جهل أحد الطرفين ولا مبالاة الطرف الآخر.

لم يلاحظ الإنسان —بالطبع— الوظيفة البيولوجية للحيض حتى وقت متقدم جدا. كل ما لاحظه قبل التاريخ كان أن دم الحيض —بالرغم من كونه دما بحق ومن ثم سحري— ينافى كل القواعد المعروفة. ففقدانه لا يسبب الموت. ولا حتى الألم أو الضعف. فهو ينزف بلا سبب ظاهر. ويستمر لأيام بدلا من أن ينقطع بعد ساعة أو ساعتين. وهو ظاهرة مميزة ليس للرجال ولا الصبيان ولا الأطفال وإنما للنساء فقط. ولا سيما الصغيرات منهن. كان هذا النوع من النزيف غير قابل للتفسير مما جعله مخيفا. لذا فليس من الغريب أن يعتقدوا أن لدم الحيض قوى خاصة تجعله أداة مفضلة لكل من يمارس السحر أو السيمياء حتى القرن السابع عشر، بل وحتى الآن فى بعض مناطق من العالم (التبت على سبيل المثال).

بالطبع مع مرور الوقت بات واضحا أن بدء الحيض هو علامة على النضج الجسدى. علامة توضح أن المرأة مستعدة لولادة الأطفال. وكان انقطاعه أثناء فترة الحمل يفسر بأن له علاقة مباشرة بخلق حياة جديدة. وبالقياس على القبائل البدائية فى الحاضر ندرك أن ردة فعل رجل العصر الحجرى لهذه الاكتشافات كانت تتضح بطريقتين: فربما كان قد شعر ببعض الحقد بسبب ذلك الشىء الذى يظهر كحد فاصل بين المراهقة والنضج. فالصبى المراهق ينساب على طريق الرجولة على مراحل غير محددة. ويعتقد بعض علماء النفس أن طقوس واحتفالات البلوغ أو الالتحاق بالجماعة —والتى كانت مظهرا مهما من مظاهر الحياة القبلية— لم تكن بمثابة نقطة يبدأ بعدها الذكر فى تحمل مسؤولياته كفرد بالغ (وهى الفكرة الشائعة) بل ابتدعت أساسا كمحاولة للربط بين أول ظهور للحيض وأول ظهور يقابله لصفات البلوغ عند الذكر[٥].

إذا كان الأمر كذلك فقد توقف التقليد عند هذه الخطوة. فطقوس البلوغ لا تستطيع أن تمنح الرجل قدرة على ولادة أطفال وخلق حياة. ولفترة فكر الرجل أن الدم قد يحقق ذلك. ومن ثم نجد أن معظم طقوس البلوغ دموية بشكل أو بآخر. لكن قليلا منها يشبه ما تمارسه بعض قبائل القرن العشرين فى وسط أستراليا ونيوغينيا. فتلك القبائل تستخدم نوعا من التشويه يسمى القطع التحتى Sub-incision ويتم فيه شق الجانب الأسفل من العضو الذكرى من نقطة بقرب الصفن ولمسافة بوصة أحيانا. وأحيانا أخرى بطول العضو بالكامل. ويسمى الدم السائل من هذا الطقس "حيض الذكر". وكان من الممكن التعامل مع الأمر على أنه إحدى النكات البقبلية إذا لم نعرف أن كل التابوهات المفروضة على النساء أثناء فترة حيضهن تفرض كذلك على الرجال طوال فترة استمرار النزيف[٦].

لا سبيل لمعرفة إلى متى استمر الرجل البدائى فى محاولة إخراج هذا النوع المتميز من الدم والمرتبط بولادة الأطفال من أعضائه التناسلية الخاصة. وصفحات التاريخ مليئة بأساطير خيالية مازالت ناجحة فى تجديد نفسها والاستمرار على مر الأجيال. لكن المحاولة نفسها ربما كانت كافية لإثارة تساؤلات مهمة: فلماذا تستطيع المرأة ولادة الأطفال بينما لا يستطيع الرجل ذلك مهما حاول؟ وكان الإحباط الذى يصيب الرجل من جراء فشله فى الفهم عادة ما يثير غيظه.

ربما كان سحر الدم والارتباك البسيط كافيان لإثارة قلق الرجل من المرأة خلال فترات الدورة الشهرية. لذا قرر عزلها كنوع من التأمين ضد مجهول. ويبدو أن المرأة نفسها لم تبد أى اعتراض.

لكن ثمة جدل يقول إن تلك النظرة للمرأة الحائض باعتبارها ساحرة ما كان يمكن أن تنغرس فى عمق اللاشعور الإنسانى إذا كانت نابعة من مجرد انحياز جنس ضد آخر. إذ يبدو أن المرأة أذعنت –أخيرا– للتابو القديم. ربما كان ذلك لاعتقادها أن المسألة لا تستحق الخلاف. بل وربما رحبت ببضعة أيام تتحرر فيها من روتين الحياة العائلية. وربما أنها نفسها وجدت الحيض مثيرا للأعصاب. حيث أن معظم النساء –برغم الإجهاض وولادة أطفال موتى وكل المخاطر الأخرى للأمومة فى العصر الحجري– اعتدن أن يقضين وقتا لا بأس به من حياتهن بعد البلوغ إما فى الحمل أو فى الرضاعة. لذلك كان الحيض خبرة غير منتظمة (ويجب أن نضيف هنا أنه على الرغم من وجود عدد من الصور المتطرفة –القاسية أحيانا– لهذا التابو عبر التاريخ فإن الفكرة الرائجة والمتكررة دائما هى النجاسة. والتى لا يجب النظر إليها من منظور سحرى أو دينى فقط. فالاستحمام المنتظم كان نشاطا لم يبدأ فى ممارسته قطاع كبير من الجنس البشرى إلا فى أوقات متأخرة).

ومع ذلك أيا كان مصدر هذه التابوهات. فالمؤكد أنها لم تتطور لصالح المرأة. ويعتقد بعض علماء الأنثروبولوجى أن رجل ما قبل التاريخ اعتراه نوع من الدهشة لدى رؤية معجزة الولادة. وهى دهشة ربما تلائم "سنوهوايت" وهى تدلل حيواناتها الصغيرة فى عالم "ديزنى" العجيب أكثر مما تلائم سكان الكهوف الذين كانوا يرتعدون على حواف عصر البلاستوسين الجليدى، ومن ثم استنتج هؤلاء العلماء أن تابوهات الحيض التى ازدادت وأصبحت أكثر صرامة مع تطور الجنس البشرى لم تكن فى الواقع سوى انعكاس لتمجيد الرجل للمرأة بوصفها والدة الرجل. وأن هذا العزل الطقسى أثناء فترة الحيض كان تشريفا أكثر منه نفيا[٧]. ربما كان هذا التفسير ليبدو أكثر إقناعا إذا كان الحيض علامة على الحمل وليس العكس. كما أن ذلك التفسير يتجاهل حقيقة مهمة وهى أن ولادة الأطفال لم تكن أصلا سوى إحدى الوظائف الجسدية الموروثة عن أسلاف الإنسان من الرئيسيات. ومن ثم لم يكن هناك سبب لتمجيد المرأة على فعل طبيعى. وربما اقتربت الحركات النسائية المعاصرة من الحقيقة إذ اعتقدت أن التابوهات –بمجرد رسوخها– تحولت عمدا إلى سلاح ضد مطالبة المرأة بحقوقها[٨]. حيث كان الرجل –فى مرحلة ما خلال العصر الحجرى الحديث– قد احتل دور القيادة. وتعلّم كيف يستخدم كل وسيلة متاحة للحفاظ على هذا الدور.

لا يعرف أحد متى أو كيف اكتشف الرجل أن المرأة لا تستطيع الإنجاب وحدها (دون مساعدته). ولكن من المحتمل أن ذلك كان خلال الفترة الأولى من العصر الحجرى الحديث. وأن ذلك الاكتشاف شدد من موقفه تجاه الحيض. فإذا كان منيّه هو العامل الغامض الذى تتوقف عليه العملية التى تنتهى بالحمل فيجب أن يُفهم الحيض –والذى كشف عن فشل المرأة فى الحمل– على أنه إهانة للرجل واعتراض عليه بنزف الدم بقسوة بشكل يوضح فشله فى دوره كصانع للأطفال.

صورة الأب

لم يكن دور الرجل فى الإنجاب أمرا يسهل استنتاجه فى سياق الحياة اليومية للعصر الحجرى. حيث كانت الممارسات الجنسية متعددة والحمل شيئا مألوفا. وحيث كان القمر هو الوسيلة الوحيدة لحساب الزمن. والإحساس الزمنى بتسعة أشهر بالنسبة للعمر الافتراضى لا يختلف كثيرا عن الإحساس بعامين حاليا. ونظريا يمكن أن يكون هذا الاكتشاف قد تم بعد وصول الإنسان إلى مرحلة الإنسان العاقل. بل وحتى قبل ذلك. بيد أنه ما من دليل يثبت أنه قد توصل إلى هذا الاكتشاف طوال آلاف السنين التى تشكل زمن العصر الحجرى.

هنالك ثلاثة عوامل ترجح أن لحظة الاكتشاف جاءت فى أوائل العصر الحجرى الحديث. الأول أنه حتى ذلك الوقت لم يكن أى من الجنسين فى موضع السيادة. والثانى أنه إذا كانت ثمة مثيرات خارجية تعجّل من الاكتشاف فإن أوضحها وأهمها كان رعى الحيوانات. فقد بدأت تربية الماشية بالماعز –أو الأغنام على الأرجح– وسرعان ما تعلم المزارعون الأوائل أن النعاج المعزولة لا تنجب ولا تدر لبنا. لكن إدخال خروف أو اثنين إلى القطيع يأتى بنتائج ملحوظة. وللمرة الأولى كان الرجل يشاهد نفس أفراد الحيوانات كل يوم طوال العام. وكان من الصعب أن يفشل فى ملاحظة المدة الفاصلة –والثابتة تقريبا– بين أداء الخروف لمهمته مع النعجة وبين ولادتها حملا. وما كان مزعجا من ناحية التحليل النفسى البحت ليس هو اكتشاف الرجل لدوره فى الإنجاب فحسب. وإنما القوة الكامنة وراء ذلك. إذ أن الخروف الواحد قادر على تخصيب أكثر من خمسين نعجة. فإذا كان لدى الذكر مثل هذه القوة فماذا يعجز عن تحقيقه؟

أما العامل الثالث –وهو الأكثر إشكالا وإقناعا فى آن– هو ببساطة أن "شيئا ما" قد حدث خلال تلك الآلاف السبعة الغامضة من سنين العصر الحجرى الحديث فى الشرق الأدنى. وأن هذا الشىء قد غيّر الرجل من رفيق مساو فى المجتمع الإنسانى بشكل أو آخر إلى حاكم متوج. كان لسيطرته على الغذاء وحيوانات الجر دور فى ذلك. وكذلك وقت الفراغ الذى أتاح له التفكير. وأيضا دوره كمحارب وحام للحمى. مع ذلك فإن كانت تلك هى اللبنات الوحيدة التى كونت هذا الصرح من السيادة الذكورية الذى سما وارتفع خلال ثورة العصر الحجرى الحديث لما كان هذا الصرح قادرا على الظهور بذلك الوجه المصقول المتناسق. فقد كان لدى الرجال الذين خرجوا من العصر الحجرى الحديث إلى عصر التاريخ المدون نوع من الثقة والغطرسة والتسلط. تلك التى نبعت ليس من الجهد والكد ولا من القدرة على أداء الوظائف بشكل جيد. وإنما من ذلك النوع من الوحى الأعمى –غير القابل للجدل والنقاش– الذى عرفه بعد ذلك أنبياء العهد القديم وقديسو العهد الجديد. فهل كان اكتشاف دورهم فى الإنجاب –ذلك الدور الصليبى فى منطقة كانت فيها كفاءة الرجل غير معترف بها دائما– هو السبب الذى فجّر (كحق إنسانى) رد فعلهم المبالغ فيه؟

بتحديد أكثر أصبح من الممكن للرجل أن ينظر إلى طفل ما فيدعوه "ابنى". وأن يشعر بالحاجة إلى أن يدعو امرأة ما "زوجتي". وأيا كانت عادة الزواج قبل هذا الوقت –الأحادية أو التعددية– فإن حرية المرأة الجنسية أخذت فى التقلص بشدة بعد ذلك. إذ كان بإمكان الرجل أن يمتلك حريما إذا قرر ذلك وكان قادرا على الدفاع عن حقه فيهن. لكن مفهوم "ابني" يتطلب أن تكون المرأة أحادية العلاقة.. معه فقط.

بالطبع فإن مفهوم التعفف عن العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية لم يكن لينطبق على المرأة إلا إذا كانت رغبتها فى أن تصبح عفيفة متماشية مع رغبة الرجل. أو إذا كانت تتسم باللامبالاة. أو إذا كان هو مستعدا لاستخدام قوته الشخصية –أو قوة شخصيته– ضدها. كان نوع المجتمع الذى عاشا فيه هو الذى يحدد طريقة تطور العلاقة بين الرجل والمرأة إلى حد بعيد.

أثناء ثورة العصر الحجرى الحديث بدأ نوعان من المجتمعات فى الظهور، ألا وهما المجتمع الزراعى والمجتمع الرعوى الصرف. لقد تسببت الزراعة فى توطين المجتمعات التى اعتمدت عليها وربطها بأراضيها المزروعة. وبعد ذلك بالمياه التى ترويها. وكان مورد غذائهم الرئيسى هو منتجات حقولهم. أما المورد

الحيوانى فكان ثانويا. فى هذا المجتمع كان دور الرجل فى العمل مهما لكنه ليس أهم من دور المرأة. برغم ذلك بدأت كفتا الميزان فى التغير مع الوقت، إذ تعلّم الرجل أثناء ترويضه للقطيع – نحو عام ٦٠٠٠ ق.م- كيفية إخصاء الثور واستخدامه كحيوان جر. فكان بذلك أول أداة قوة فى يد الإنسان. كان ذلك اكتشافا ثوريا لا يقل عن اختراعه للقاطرة البخارية. كان الرجل الخبير بالحيوانات هو الذى يتعامل معها حين يربطها إلى معزقة أو محراث، وذلك بعد أن تحول من مقاتل إلى مفكر إلى صانع للأطفال إلى راع للمواشى، ثم تحول للمرة الأولى إلى مزارع مستوليا على واحدة من أهم مهام المرأة ومؤديا إياها ببراعة أكثر. وربما كانت رغبة الرجل المتزايدة فى التجريب هى التى قادته إلى اكتشافاته. مما زاد على أدواره المجتمعة –تلك التى كانت قوية بالفعل- دور المخترع والعالم. لقد ظل إسهام الرجل فى المجتمع –والحق يقال- لا يزيد عن إسهام المرأة سوى القليل. مع ذلك كان الضوء مسلطا عليه فقط (سواء كان ذلك عن عمد أو دون عمد). وإحقاقا للحق كان عمل الرجل من النوع الذى يجب أن يؤدَّى على الملأ. لا أن يؤدى فحسب. ورغم ذلك فقد استعادت المرأة فى المجتمعات الزراعية ذكريات أسلافها عن أهميتها. ونجحت –ولو جزئيا- فى الحفاظ على جزء من إحساسها بالثقة فى النفس.

أما فى المجتمعات الرعوية فالأمر مختلف. حيث كان الرعاة فى تنقل دائم من فصل إلى فصل عبر السهول الواسعة فى وسط آسيا، وفى المراعى الأضيق والأغنى فى شمال أوروبا. ويعتقد بعض المؤرخين أن البدو الأوائل هم الأحفاد المباشرين لمجتمعات الصيد فى العصر الحجرى. ويظن البعض الآخر أنهم مزارعون فاشلون أو سكان زائدون مطرودون من الأراضى الزراعية. أيا كانت الحقيقة فالثابت أنهم كانوا يعتمدون بشكل كامل على قطعانهم. وعلى الرجال الذين يربّونها ويرعونها. كان الرجل هو المسيطر فى المجتمع الرعوى وكانت المرأة ملكا له مثل الحيوانات التى يرعاها. وليس من قبيل الصدفة أن يكون المجتمع الغربى الذكورى الحالى قد انحدر مباشرة –أخلاقيا وفلسفيا- عن القبائل الرعوية العبرانية القديمة. أو أن تكون الهند الحديثة منحدرة عن رعاة الـ Rig-veda* الهندوأوروبيين.

* أحد نصوص الفيدا الهندوسية المقدسة. (المترجم)

الانفجار السكاني

فى عام عشرة آلاف ق.م كان تعداد سكان العالم يقدر بثلاثة ملايين نسمة. وبعد سبعة آلاف عام تزايد العدد إلى مائة مليون[9]. وفى جبال زاجروس فى جنوب غرب إيران بلغ متوسط الكثافة السكانية (عام ٤٠ ألف ق.م) نسمة واحدة لكل واحد وثلاثين ميلا مربعا أو ما يعادل خمسين كيلومترا مربعا. وفى عام ٥٥٠٠ ق.م كان هناك خمسمائة نسمة مكان كل نسمة[10].

لم يكن الانفجار السكانى نتيجة مباشرة لمحاولة الرجل تطبيق نظريته حول الأبوة عمليا (بالرغم من أنه ربما قام بذلك بالفعل)، وإنما كان نتيجة لتحسن جوهرى فى مصادر الغذاء. ذلك التحسن الذى دشّن ثورة العصر الحجرى الحديث ثم رسم ملامحها. وهذا لم يقلل من ضرورة تحديد عدد السكان فحسب. وإنما جعل زيادة السكان أمراً مرغوباً. فزيادة الأطفال يعنى زيادة الأيدى العاملة فى الحقول وبالتالى زيادة المحاصيل وتحسنها. ثم أن تحسن التغذية يعنى تحسن الخصوبة ويعنى كذلك زيادة عدد الأحياء من الأطفال وبالتالى نقص معدل وفيات المواليد. وارتفاعا نسبيا فى العمر الافتراضى للإنسان.

فى المغرب وقبيل العصر الحجرى الحديث كان "متوسط عمر الرجل" —تلك الأسطورة الإحصائية— يزيد قليلا عن ٣٣ عاما. والمرأة نحو ٢٨ عاما. وفى سنة ٦٠٠٠ ق.م فى تشاتل هويوك Çatal Hüyük بالأناضول كان الرجل الذى يتخطى الثامنة عشر يمكن أن يعيش أكثر قليلا من ٣٤ عاما. والمرأة حتى ٣٠ عاما تقريبا. وفى قبرص وبعد التاريخ السابق ببضع مئات من السنين كانت الزيادة النسبية مستمرة. وأصبح العمر الافتراضى للرجل ٣٥ عاما والمرأة ٣٣ عاما[11]. ويتضح من ذلك أن المرأة أفادت أكثر من تحسن التغذية. إذ أصبح الحمل أقل استنزافا لمواردها الجسدية. كما كان كل امتداد فى حياتها يعد زيادة فى سنى خصوبتها حتى وصل متوسط عدد الأطفال لكل امرأة فى "تشاتل هويوك" إلى أربعة أطفال.

وقد شجع تغير الطقس —وما وفره من ظروف ملائمة للزراعة وتأمين لمصادر الغذاء— على نوع من الهجرة كان صعبا من قبل. وهو الانتقال الشامل والإرادى الذى لا علاقة له تقريبا بحرفة الصيد الشرسة التى قادت جماعات بأكملها من الصيادين الآسيويين عبر مضيق بيرينج إلى الأمريكتين. كان سكان العصر الحجرى

الحديث ينزحون من أراضيهم. ويستوطنون أخرى. ثم يهيمون على وجوههم ثانية. فينتقلوا إلى مناطق أفضل ثم يخرجون من تلك المناطق عندما تتكدس بالسكان ليجربوا تقنيات الزراعة الجديدة فى أراض جديدة.

وتوضح الكشوف الأثرية فى "تشاتل هويوك" أن السكان المستوطنين قد انقسموا إلى أنواع ثلاثة هى: اليورو أفريكان. والبحرمتوسطيين الأوائل. وسكان جبال الألب[١٢] –وهو تصنيف تقدمى لمثل هذه الفترة المبكرة. وانتعشت التجارة أيضا. لذا فحتى القبائل المستقرة كان من بينها أناس زاروا أراض "أجنبية" وربما أتوا بزوجات أجنبيات للوطن. وقد أبحر تجار جنوب اليونان إلى جزر ميلوس Melos –التى تبعد خمسة وسبعين ميلا– من أجل السبج (وهو حجارة بركانية زجاجية داكنة كانت تستخدم كشفرات للسكاكين) وكان السبج –من شرق تركيا هذه المرة– أحد المواد التى تُصدَّر إلى القرى الواقعة جنوب غرب إيران[١٣]

وشجعت الهجرة والتجارة سكان العصر الحجرى الحديث على التزاوج على نطاق واسع ومستمر من خارج القبيلة. وكان ذلك أمرا غير مسبوق فى تاريخ العالم. وقرب نهاية تلك الفترة كان التنوع الجينى الناتج –إلى جانب تحسن التغذية وإحساس البشرية الجديدة بالثقة فى النفس– سببا فى زيادة عدد السكان بشكل كبير. بل وزيادة حيويتهم ونشاطهم.

إلهة لا ترقى لمصاف الآلهة

غالبا ما يتوقف شكل تقديس إله ما على حالة عابده الدنيوية. تلك الحقيقة التى صارت واضحة بشكل مؤلم مع بداية تجمّع قبائل العصر الحجرى الحديث فى القرى والبلدات وأحيانا المدن. وكانت آلهة القبائل الأقوى تحتل مكانة أسمى فيما تحتل آلهة القبائل متوسطة القوة مكانة وسطى. عن طريق تقسيم الأدوار والعلاقات الأسرية (بين تلك الآلهة) بشكل لائق سواء كانوا إخوة أو أخوات. أولاد عم أو زوجات. وسرعان ما أصبح لكل إله عمله الذى خُلق له فى هيكل الآلهة: آلهة القمر، وآلهة الحكمة، وآلهة الماء. وإلاهات الصيف والولادة وثمار الأرض.

ذلك النوع من الخدع السياسية أثبت أهميته أثناء إعادة تشكيل المجتمع. وهو ما حدث قرب نهاية العصر الحجرى الحديث. كما نجح فى رسم هالة من الغموض حول أصول هذه الآلهة القديمة. لذا فإن ما عُرف عن الدين قبل

السومريين —وهم المتحضرون الذين استخدموا الكتابة فكانوا أول شعوب التاريخ القادرة على التخاطب بلغتها الخاصة مع الأجيال التالية– كان قليلا للغاية. لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن الكثير من ألواح الصلصال التى بقيت تحت رمال أرض ما بين النهرين لخمسة آلاف عام وصلتنا حطاما. وأن بعض الحلقات الرئيسية فى مسلسل الآلهة قد ضاعت كلية.

عندما تجسدت الأرباب الأولى على المسرح التاريخى كانت لهم أسماء ووظائف وشخصيات محددة وأحيانا غريبة الأطوار. قبل ذلك لم تكن حقيقية وإنما مجرد رموز صغيرة فى نظام ضخم. كانت مجهولة وغامضة تماما كمن خلقوها. بالطبع كانت هناك آلهة تشخص السماء والبحر والشمس والقمر والمطر والأرض. وكانت هى الشائعة فى معظم قبائل العصر الحجرى الحديث دون شك. حتى وإن اختلفت صورها. وهناك أدلة على نوع من عبادة الخصب —على سبيل المثال– نجده فى أحد المزارات المقدسة فى "تشاتل هويوك" بالأناضول يرجع إلى عام ٦٠٠٠ ق.م. ويتمثل فى مزار واحد عبارة عن نحت بارز لثلاثة رؤوس لثيران أحدها فوق الأخرى. يعلوها تمثال لأنثى فاردة ذراعيها وقدميها وتلد عجلا[١٤]. ربما كانت تلك هى طريقة العصر الحجرى الحديث فى تصوير الخصوبة البشرية. وربما لا تكون كذلك.

ما تظهر بوضوح أكبر من الآلهة نفسها هى الأساطير التى نُسجت حولها. إذ وصلت إلينا عبر الأزمنة الغابرة العديد من الحكايات التى صيغت فى المصنع الأول للدين. بعضها يصور سلسلة من الوقائع الحقيقية كالحروب والفيضانات. والبعض الآخر من نتاج محاولات الإنسان لتفسير ما هو غامض– لتفسير ماهية الكون. لذا تظهر اثنتان من تلك الأساطير جلية فى العديد من النقوش المصورة لأديان العالم ألا وهما أسطورة الخلق وأسطورة البعث.

من المستحيل تحديد أى الأسطورتين أقدم. لكن أسطورة الخلق (التفسير السحرى لخلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان والطيور والأسماك) هى التى شغلت بال الشعوب المعتمدة على الصيد –الرعى فى أوقات لاحقة. بينما كانت أسطورة البعث (والتى تفسر دورة الموت والحياة السنوية للتربة) هى التى شغلت بال المزارعين عندما كانوا ينتظرون أرض الشتاء الجرداء ليغطوها بالأخضر الحى ثانية.

وخلال الأعوام الثلاثة آلاف الأولى من التاريخ المدون كان مزارعو ما بين النهرين ومصر وشمال غرب الهند يتعرضون لأنواع من الغزو السلمى أحيانا

والحربى أحيانا أخرى من قبل الرعاة البدو —تلك القبائل الذكورية ذات الأديان الذكورية- والذين كانوا أكثر حركة ونشاطا من السكان المستقرين بسبب ارتفاع نسبة البروتين فى غذائهم. وأكثر يقظة وانتباها بسبب المتطلبات الذهنية والجسدية للحياة البدوية. وعندما استقر هؤلاء بدورهم وجدت أساطيرهم ومعتقداتهم مكانا فى البناء القائم، بل وطغت عليه أحيانا. وسببت تغيرا دائما فيه. مما أدى إلى زيادة السطوة الذكورية.

لم يكن تأثير هؤلاء الرعاة واضحا أو مباشرا دوما. فعلى سبيل المثال فى أقدم أسطورة خلق معروفة —وهى السومرية التى بقيت بشكل جزئى فقط- قيل أن الإلهة نامو "البحر" هى المسؤولة عن خلق العالم بولادة السماء والأرض —دون مساعدة فيما يبدو. وقد ظلت عناصر كثيرة من تلك الأسطورة دون تغيير على مدى ثلاثة أفواج من الغزاة الرعويين بعد ذلك. لكن دور نامو (المعروفة الآن بتيامات "المحيط ذى المياه المالحة") تقلص بشكل ملحوظ. فقد ولدت هذه المرة بقية الآلهة بمساعدة الإله أبسو "المحيط ذى المياه العذبة". كما ولدت أيضا قبيلة من العفاريت والرجال العقارب والقناطير. وأخيرا ذبحها الإله البطل ماردوك بمساعدة الضوء والإعصار واللهب- قسمها نصفين "كالمحار" وصنع السماء من نصفها العلوى. فى هذه الرواية المعدلة تحمّل الإله الذكر مسؤولية الخلق بدلا من الإلهة الأصلية. ليس لأن المجتمع الذى كان يسكن الأرض المعروفة الآن باسم بابل أصبح ذكوريا من جراء الغزوات الرعوية فحسب. ولكن لأن ماردوك كان إله بابل نفسها. معبود من الدرجة الثالثة يجب أن يُرفع شأنه إذا أرادت المدينة أن تحقق تفوقها الذى رغب فيه ملكها الرعوى الجديد: حامورابى العظيم.

فى الواقع فإن معظم الأساطير القديمة شهدت الكثير من التعديلات والمبالغات خلال عصور شيوعها. وكان ذلك لأسباب سياسية غالبا. إذ كان من المعتاد أن يغيّر الآلهة والإلهات —الأعلون- من أدوارهم. بل ومن علاقاتهم ببعضهم البعض. ليس لأنهم صاروا أكثر أو أقل شعبية لدى المؤمنين بهم وإنما لأن المدن التى كانوا يمثلونها كانت تتأرجح بين الهيمنة والخضوع.

ورغم أن عددا من المدن القوية كانت تخضع لإلهات. إلا أن أيا من هؤلاء لم تحتل المكانة العليا فى هيكل الآلهة. ونجد أنه أمر معتاد فى كثير من أساطير الخلق التى وصلتنا أن يحدث زواج أوّلى بين إله الأرض وإلهة السماء. وهو بمثابة مصالحة بين معتقدات كل من الرعاة والمزارعين. لكن فى معظم تلك الأساطير يكون الإله أو الرجل البدائى هو المسؤول الأوحد. وفى مصر حيث اتسم المعتقد

الدينى بالمرونة اتخذت عملية خلق الكون أشكالا متعددة. فكانت نتاجا للجماع أحيانا. أو لـ"كن فيكون" أحيانا أخرى. أو للاستمناء (قوة البذور المكتشفة حديثا) أحيانا ثالثة. وفى الهند تخبرنا السجلات التاريخية للرعاة الهندوأوروبيين كيف أن العالم قد خلق من أضحية من جسد بوروسا Purusa الرجل الأول. وفى الشرق الأدنى –فى أرض كنعان– تعزو نصوص العبرانيين الموحدين عملية الخلق من العدم إلى يهوه Jehovah وذلك بقوة الكلمة وحدها. ولا تعطى أى من أساطير الخلق –باستثناء تلك السومرية غير المكتملة سالفة الذكر– امتيازا حقيقيا للأنثى.

أما أساطير البعث فالتناقض فيها أكثر وضوحا. وتذكرنا بتلك الأيام التى كانت فيها المرأة هى الصانع الأوحد للطفل والزارع الأوحد للتربة. إذ كانت سيطرتها المستمرة على التكاثر تمنح إلهة الخصب بعض الأسلحة على الأقل فى معركتها ضد آلهة الرعاة الطامعين الجشعين. مع ذلك فقد خسرت أهم معاركها.. المعركة الأخيرة. ففى الشكل الأول من أسطورة البعث السومرية تخرج الإلهة إنانا Inanna من الأرض فى رحلة مؤقتة للعالم السفلى. وتبقى التربة قاحلة حتى تعود. لكن باستثناء هذه الحالة فإن كل آلهة الخصب التى تظهر فى الأشكال التى وصلت إلينا هم من الذكور. وأبدا لم تظهر فى أساطير الشرق الأدنى – السومرية والبابلية والمصرية واليوغارتية Ugartic والحيثية والعبرية– إلهة لها موقع الصدارة. بالطبع فإن هياكل الآلهة المختلفة تضم إلهات من الإناث يلعبن أدوارا مهمة. من بينها عشتار حادة الطباع إلهة بابل (نسخة معدلة من إنانا السابقة). وإناث Anath المتعطشة للدماء فى كنعان. وإيزيس الصبورة فى مصر. ولكنهن جميعا كن تابعات لأزواج أو أخوة –دموزى/ تموز أو بعل أو أوزريس –هم آلهة الخصب ذوى السيادة والذى يُعد رحيلهم إلى الأراضى السفلية إشارة للمجاعة أن تضرب الأرض بينما يجلب بعثهم الخصب ثانية للأرض. وحدهم الصينيون يقتربون من مفهوم الإلهات المتفوقات بنظرتهم إلى المرأة قديما على أنها "الأم العظيمة" التى تغذى شريكها من خلال العملية الجنسية. وتزيد من قوة حياته المحدودة بإمداداتها التى لا تنضب.

ثمة سوء فهم شائع –فى العصور الكلاسيكية على الأقل– مفاده أن بعض الإلهات كن يتمتعن بالصدارة والسيطرة، وهو افتراض قائم على الكشف المتزعزع لحضارة كريت Minoan Crete والتى تشير فنونها إلى وجود إلهة أمّ لها أهمية كبيرة. لكن ما نعرفه عن الهيكل الدينى لهذه الإلهة شديد القصور. بعد ذلك

تأتى ديميتر Demeter "أم الأرض" برغم أنها لم تكن أكثر من إلهة للقمح بينما كان أدونيس هو إله الخصب الحقيقى. وفى الإمبراطورية الرومانية أيضا اجتذبت كل من سيبيل Cybele وإيزيس مريدين وأتباعا عدة. لكن يبقى المفهوم العام حول "الإلهة العظمى" مدينا للخيال الفيكتورى مثلما هو مدين للحقيقة التاريخية. وقد عدّل رجال القرن التاسع عشر من نظرتهم للأديان الوثنية لتناسب حاجاتهم العقلية الخاصة. وذلك بأن كتبوا التاريخ المبكر متخذين من القواعد الجديدة لعلم الأنثروبولوجى وعلم الآثار دليلا لهم. واضعين فى حسبانهم دائما النظرة شديدة التملق للمرأة والأمومة. ويبدو أن الإلهات محل التساؤل كن شديدات الشبه بسيدات العصر الفيكتورى اللائى نعمن بهذا القدر العظيم من البهاء وذلك المقدار الضئيل من القوة.

ومع حلول العصر الرومانى كانت فكرة "الإلهة العظمى" قد أصبحت غير ملائمة اجتماعيا. إذ تطور الدين ليصبح فرعا من الحكومة من ناحية، ومتنفسا للرغبات والإحباطات الإنسانية من ناحية أخرى. ومن دواعى السخرية أن يصبح ممثلوه هم الطوائف الدينية والكهنة الذين كانوا على استعداد تام أن يقدموا للزبائن ما يوافق هواهم كأى صاحب ملهى للعروض الخليعة فى هذه الأيام. فعندما كان الإله السائد لدى طائفة ما هو أنثى كان هذا ما يقدمه الملهى.

وعندما رسخت أقدام الحضارة مع الوقت غدا الدين "النقىَ" والعبادة الفطرية أشياء عفا عليها الزمن. فلم يعد الآلهة أو الإلهات هم الذين يتنافسون على الصدارة. بل أصبحت المنافسة بين المشرّعين والكهنة. وفى المجتمعات المهيئة لتقبل عدة آلهة —ونعنى بذلك كل المجتمعات البدائية عموما عدا العبرانيين والزرادشتيين فى إيران— كانت الأوضاع المتغيرة للآلهة والإلهات تخدم السياسات وتروج لها أكثر مما تخدم المشاعر الدينية. وعندما انقلب الوضع وأصبح للدين الصدارة على السياسة واندرج كلاهما تحت رعاية كيان واحد، لم يكن ثمة خلاف على أن هذا الكيان كان ذكرا.

إن كان هناك بالفعل كيان نسوى له مطلق القوة لكان ذلك فى العصور الحجرية البعيدة. قبل أن تتنازل المرأة صانعة الأطفال —المرأة المزارعة— عن دورها المتميز. وقبل أن يتحقق للرجل احترامه الجنسى لنفسه[١٥].

القسم الثانى

الشرق الأدنى ومصر وأوروبا

من ٣٠٠٠ ق.م إلى ١١٠٠ م

صورة الرجل عن نفسه باعتباره أرقى من المرأة فى كافة المجالات سرعان ما وجدت طريقها إلى نواميس وعادات أولى حضارات العالم فى الشرق الأدنى. وباتت المرأة محض متاع يُنقل من الأب إلى الزوج ثم الابن، لكن الأوضاع لم تكن بتلك الصرامة. إذ اتخذت التشريعات المدنية طريقا متعرجا يميل مرة ناحية الأهداف السياسية وأخرى نحو المعتقدات الدينية التعددية. ففى اليونان التى ورثت جزئيا تقاليد الشرق الأدنى تمكنت الـ"هيتارى" (محظيات البلاط ذوات التربية الحسنة) من إحراز نصر نسوى على الغلمان. وفى روما تمكنت سيدات الطبقة العليا اللاتى كن يتمتعن باحترام سطحى من اقتناص حرية ساعدت فى النهاية على انهيار الامبراطورية. لكن الاتجاه الى الديانات التوحيدية فى الشرق الأدنى انتصر فى النهاية. وهو اتجاه العبرانيين الذين لم يضطروا للتوفيق بين الشريعتين الدينية والعلمانية. فقد كانت أسفار موسى خليطا من العادات السائدة فى الشرق الأدنى والتعاليم التى نزلت فى سيناء. مع ذلك فقد كان لكليهما سلطة يهوه ومن ثم كانا ملزمين. لذا استمر الاتجاه الذى ساد فى العصر الحجرى الحديث. وعندما بسطت الكنيسة المسيحية —المعتمدة بقوة على الأسس العبرانية— نفوذها على العالم الغربى كخليفة لروما. باتت الأعراف العبرانية مرجعا يُقتدى به فى العلاقات الاجتماعية والجنسية. وأضاف باباوات الكنيسة مزيدا من الإجحاف على الشرق الأدنى. فتحول الجنس إلى خطيئة والمثلية الجنسية إلى خطر يهدد الدولة.

٣- الحضارات الأولى

فى الآونة الأخيرة وبينما كان عدد من العلماء يعكفون على صياغة أول قاموس شامل للغة السومرية كان من دواعى اضطرابهم أن وجدوا جملة تقول "وضع سمكة ساخنة فى سرتها". ورغم محاولاتهم الدؤوبة للتحليل وإعادة التحليل والتى استمرت لأسابيع كانت الجملة تخرج دائما بنفس المعنى[١].

أهو خطأ فى الترجمة؟ ربما. لكن العشاق على مر التاريخ استخدموا السرة البشرية كمستودع لعدد كبير من المثيرات الجنسية. وبهذا المنطق قد لا تكون السمكة الساخنة أغرب من مكعبات الثلج التى أصبحت موضة فى بعض الدوائر اليوم. من ناحية أخرى ربما كانت "السمكة الساخنة" كلمة عامية فى اللغة السومرية القديمة تعنى القضيب، وهو العضو الذى حظى بعدد كبير من التعبيرات الدارجة المجازية فى تلك الأيام. وحتى بعد ذلك إذ كان الفيكتوريون -على سبيل المثال- يمنحون القضيب أسماء مثل عنق الأوزة والأرنب الحى والسجق وسجق الخنزير.

لكن اللغة السومرية على الرغم من كونها لا تزال غامضة فيما يخص العلاقات الحميمة بين الجنسين. فهى أكثر صراحة فيما يخص العلاقات العامة. فحتى بنيتها تدل على أن الرجل كانت له الأولوية. نعم كانت هناك كلمات تقابل أم وأب وأخت وأخ. لكن الإله فى اللغة السومرية هو "دينجير" والإلاهة "دينجير.آما" (وترجمتها الحرفية "الإله الأم"). وكان الابن فى السومرية "دومو". والابنة "دومو.مى" (أو "الابن المرأة"). ربما كانت كلمات إله وابن فى اللغة السومرية عبارة عن اختصارات. أى أن الأصل ربما كان "الإله الأب" كمقابل لـ"الإله الأم". و"الابن الرجل" كمقابل لـ"الابن المرأة". ولما وجب أن تنقش أقدم لغات العالم المكتوبة على ألواح طينية صغيرة وثقيلة ونصف جافة فقد كان الإيجاز من وجهة نظر الكتبه هو عين العقل. مع ذلك فبالإمكان استخلاص دلالة واضحة من أن مقاطع التأنيث وحدها هى التى بقيت.

أما فى حالة جيران السومريين وهم الأكاديون فليس هناك مجال للشك. فاللغة الأكادية لغة تصريفات فيها يشتمل المقطع الأساسى للكلمة على معناها العام. ثم تكتسب الكلمة معان أكثر تحديدا بإدخال حروف إضافية. ففى تلك اللغة نجد أن الابن "مار.يو" والابنة "مار.تى.يو". والأخ "آد.يو" والأخت "آد.تى.يو". وحتى المقاطع الأساسية التى تشير إلى شىء واضح التأنيث يجب أن تحتوى على المقطع "تى" فى وسطها. ومن ثم تصبح الكلمة المرادفة لامرأة هى "سينيش.تى.يو". والمفردات الأكادية برمتها مثل الفرنسية الحديثة تنقسم إلى جنسين: المذكر الذى لا يتطلب حرفا مميزا منفصلا. والمؤنث الذى يتطلب ذلك الحرف[٢]

مع ذلك فإن اللغة مؤشر على الواقع أو ما كان واقعا فى العرف والقانون. وقد صاغها من صاغوا المجتمع. وفى سومر –مثلما فى مصر وبين العبرانيين فيما بعد– كان الرجل هو الذى صاغ المجتمع.

وعلى الرغم من أن نزوع البشر نحو التصنيف أدى إلى تطورات حضارية عدة وخاصة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا فقد أصاب العلاقات الإنسانية بضرر لا يمكن اصلاحه. إذ سمح بتقسيم البشر على أساس العرق واللون والجنس. وشجع التعميم الذى يلائم الساسة ولكنه لا ينظر للبشر كأفراد يعيشون ويموتون. يحبون ويكرهون. يحكمون ويُحكمون. على مستوى ذاتى تماما. لكن المشرِّع لا يستطيع أن يحكم وفقا للخصائص المميزة شديدة التنوع لكل فرد من المحكومين على حدة. كما لا يملك المؤرخ الاجتماعى سبيلا لتقييم التفاعل العاطفى بين ترسين غير معروفين فى عجلة التاريخ. وإذا قلنا إن جنس الذكور ساد فى الغالبية العظمى من المجتمعات منذ بداية عصر التدوين فإننا نتجاهل التذبذبات الفردية بين الجنسين. لكن ليس ثمة وسيلة لتقييم تأثير تلك التذبذبات اللهم إلا فى الحالات النادرة التى وصلتنا فيها تفاصيل من التراجم والسير الذاتية.

فى أيام الحضارات الأولى لم تكن الأمور فى أفضل أحوالها. فمن خلال نمط الحياة الذى يفضل جنس الذكور قانونيا واجتماعيا قام إنسان الشرق الأدنى القديم بتشكيل جو عام مكن الرجل من السيطرة. وعندما تآمرت كافة القوى الاجتماعية لتثبيت المرأة فى منزلها وجعل اتصالها محدودا بأسرتها ومنعها من الظهور أمام الغرباء بات عقلها سجينا مثل جسدها. وكما هو الحال فى العصور المتأخرة ربما كانت هناك نساء راجحات العقول ركزن كل طاقاتهن وطموحاتهن وعزمهن على أزواجهن وأطفالهن. وقد كانت النتيجة غير مريحة للجميع. لكن هل كان ثمة

رجال تخلوا عن هيمنتهم الاجتماعية مقابل راحتهم الشخصية؟ يظل ذلك موضع تخمين.

قلة من النساء وضعن بصمة في التاريخ القديم. كان من بينهن ميريت ملكة مصر في الأسرة الأولى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. والتى اعتلت العرش بمجهودها. ويُعتقد أنها لعبت دورا مهما أثناء القلاقل السياسية التى أعقبت توحيد شمال مصر وجنوبها. وبعدها بألف وخمسمائة سنة جاءت الملكة حتشبسوت الأرملة التى حكمت من عام ١٥٠٥ إلى عام ١٤٨٣ ق.م. وقامت بجهد كبير لزيادة أنشطة مصر التجارية. وكان فنانو الأسرة الثامنة عشر-لأسباب سياسية- يصورونها عادة في أزياء وأوضاع ذكورية. بل وباللحية الملكية الرمزية[٣]. ومن الأسماء الأخرى في سجلات مصر القديمة هناك تى ونفرتيتى وأرسنوى وبيرينايك وكليوباترا. ويحدثنا التاريخ الأشورى عن "نقيه" امرأة سنحريب. وسامورامات (سميراميس) التى وصفها هيرودوت بأنها "الأجمل والأكثر قسوة وقوة وشبقا بين ملكات الشرق". أما العبرانيون فلم يتخلصوا من بداوتهم فيما يخص نظرتهم لنسائهم. لم يكن لديهم ملكات. فقط زوجات وأمهات وبنات للملوك. وقد احتاجت نساء مثل جيزيبيل وتامار وأبيجيل والبطلة ديبورا إلى قوة شخصية حقيقية حتى يقتنص مكانا في النصوص المقدسة[٤].

وفقا للقانون المصرى كان الرجال والنساء متساويين فعليا. وبرغم أن ذلك أتاح للنساء حرية التجول -وهو ما كان يشكل فضيحة في بلاد الإغريق- كانت تلك مساواة لا معنى لها في الأغلب. في ذلك الوقت -مثلما هو الحال الآن- كانت الأموال وحدها تستطيع تحقيق الاستقلال. ولم يكن من سبيل للحصول عليها سوى الإرث. كان هناك عدد قليل جدا من السبل تستطيع المرأة من خلالها أن تكسب قوت يومها. ويبدو أن المهنتين الوحيدتين اللتين أتاحتا للمرأة أن تنفق على نفسها هما الرقص أو العزف. وهما وظيفتان تتطلبان في معظم الأحيان موهبة في الدعارة والموسيقى على حد سواء. بخلاف ذلك كانت المرأة زوجة أو جارية. وكان يُسْر حياتها أو عُسْرها يتوقف على رجل البيت. وتُرجِّح دراسة الهياكل العظمية أن نساء الطبقة الدنيا كن يكدحن في عمل شاق. وأن ضرب الزوجات لم يكن ظاهرة استثنائية. إذ توضح كسور في ذراع امرأة فحصها بعض علماء الأنثروبولوجى الطبى أنها من النوع الذى ينتج عادة عن حماية الرأس من ضربة مصوبة إليه[٥]. وعندما كان زوج المرأة يدان بجرم ما كان القانون يعاقبها هى

وأطفالها أيضا. بأن يجعل منهم عبيدا فى العادة (وهى الممارسة التى كانت شائعة لدى المايا فى أمريكا الوسطى فى العصور الوسطى المتأخرة).

فى بابل على الرغم من أن الوضع القانونى للمرأة كان أدنى درجة. كانت فرص العمل المتاحة أكبر. ففى وقت مبكر يصل للألفية الثالثة قبل الميلاد ظهرت الكاتبات. وعملت النساء كأول كُتّاب اختزال فى العالم. كما أصبحن عرّافات ومستحضرات أرواح. و"نساء حكيمات" وخادمات مستقلات يقمن بكافة الأعمال ويتقاضين أجرهن باليومية. كان هناك مصففات الشعر والبائعات والمغنيات وطاهيات الأطباق الخاصة. وصانعات البيرة. والمرضعات. والسقّايات. وعاملات الغزل والنسيج. والقائمات على إشعال المصابيح. عملت النساء فى كل تلك الوظائف. قليل منها مثيرة للتحدى. وبعضها وضيع. ولكنها جميعها تمثل مهربا من الطغيان الذى يواجهنه فى المنزل. بعض النساء وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة. وفى مقابل تعهدهن بالعفة ينلن راحة البال. كاهنات "ناديتو" عملن بالتجارة مثلهن مثل الرجال وأكثر. كن يشترين ويبعن ويؤجرن. ويقرضن النقود والحبوب. ويستثمرن. ويستوردن. ويصدّرن. ويتاجرن فى العبيد. ويُدرن الأراضى والعمال. ويلعبن من خدرهن دورا حيويا ومهما فى اقتصاد البلاد المتنامى.

وكان لنساء العبرانيين مساحة أقل من الحرية مقارنة بالبابليات. وإن تمتعن بحرية أكبر جزئيا من المصريات. فقد كان بإمكانهن التملك. وإن كان ذلك نادر الحدوث فيما يبدو. كما كان بمقدورهن أن يعملن لحسابهن الخاص كخادمات أو صانعات عطور أو طاهيات أو خبّازات. و–فى العصور الأقدم– عاهرات. كان ذلك كل شىء. ولكن ما قمن به لحساب أزواجهن كان أكثر من ذلك بكثير[٦]

الزوجة الصالحة

"امرأة فاضلة من يجدها؟" كان ذلك سؤال سفر الأمثال (إصحاح ٣١. ١٠) وهو السؤال الذى يتضح من قائمة المؤهلات المطلوبة والتى تلت ذلك. فالمرأة الصالحة عليها أن تجلب الصوف والكتان والطعام. أن تستيقظ قبل الفجر للعناية بأسرتها وتوجيه خدمها. أن تشترى الحقول وتزرع الكرمات. أن تمسك الحسابات. أن تعمل حتى وقت متأخر فى الليل. كان عليها أن تستخدم الفلكة والمغزل. أن تساعد المحتاج. أن تكسو أهل بيتها بالأقمشة القرمزية وتكسو نفسها بالبوص والأرجوان. أن تصنع العباءات الكتانية وتبيعها. أن تنظر إلى المستقبل

بتفاؤل. أن تكون ربة منزل حكيمة وطيبة تعمل بضمير دون تراخ أو كسل. لم يكن السحر والجمال من المتطلبات. فالأول ضرب من الخداع والثانى مآله إلى زوال. لكن الخصوبة كانت أمرا أساسيا "كسهام بيد جبار. هكذا أبناء الشبيبة. طوبى للذى ملأ جعبته منهم" (المزامير- إصحاح ١٢٧. ٤-٥).

فى المقابل أىّ حقوق نالتها الزوجة العبرانية؟ أن تتقاسم رعاية زوجها مع واحدة أو أكثر من الزوجات والمحظيات. أن تُطلّق على الفور إن أهانت زوجها. وأن تُرجم حتى الموت إن حادت عن صراط العفة الزوجية. ربما كان حال المرأة فى هذا الصدد أسوأ قليلا من معاصراتها فى بابل ومصر. ففى بابل كان يحق للزوج العفو عن زوجته الزانية والسماح لها بالحياة. أما فى مصر فكان يكفى المرأة أن تُقسم لتبرئ ساحتها (شريطة ألا تكون ضبطت متلبسة).

فى مصر كذلك كان يمكن للمرأة أن تطلق زوجها. وهو الحق القانونى الذى لم يمنح لنساء بابل أو الإسرائيليات الأوائل (أو حتى لمعظم الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر). وكان السبب الأكثر شيوعا للطلاق هو عقم الزوجة. لكن الزوج البابلى يمكن أن يطلق زوجته لكونها مبذرة. وله أن يحط من مكانتها إلى منزلة العبيد إذا اختار ذلك[٧].

فى وقت ما حول عام ٢٣٥٠ ق.م نسب "أوروكاجينا" ملك سومر لنفسه الفضل فى وضع حد لعادة تعدد الأزواج. رغم أنه ما من دليل على أن تلك كانت عادة شائعة فى سومر. بالتأكيد أيام البابليين لم تكن القضية قضية امرأة لها أكثر من زوج (فى نفس الوقت) فى أى مكان بالشرق الأوسط. مع ذلك فإن تعدد الزوجات كان أمرا مختلفا تماما. وكان العبرانيون هم أكثر من مارسوه. فحتى وقت متأخر-القرن الأول الميلادي- كتب المؤرخ اليهودى جوزيفاس يقول "إن من عاداتنا القديمة أن يكون لنا عدة زوجات فى الوقت نفسه." [٨] كما اشتهر سليمان -الذى حكم من عام ٩٥٥ إلى عام ٩٣٥ ق.م- بأن له سبعمائة من الزوجات وثلاثمائة من المحظيات. وعندما أرسل الأشوريون جيشا للقدس عام ٧٠٠ ق.م. افتداها حزقيال بثلاثين طالن• من الذهب. وثمانمائة من الفضة. و"كافة أنواع الكنوز بالإضافة إلى بناته وحريمه وعازفيه من الرجال والنساء." [٩]

• الطالن: وحدة قياس قديمة تبلغ نحو ٣٠ كيلوجراما. (المترجم)

فى مصر كان تعدد الزوجات شائعا حتى الألفية الثالثة قبل الميلاد. ولكن يبدو أن تلك العادة أفسحت المجال تدريجيا للزواج الأحادى وهو ما يرجع جزئيا لأسباب اقتصادية. عدا بين الفراعنة أنفسهم. مع ذلك لم تكن تلك الأحادية تتعارض مع التمتع بالمحظيات والجوارى. وهو الوضع ذاته الذى كان قائما فى بابل. فهناك لم يكن يسمح للرجل باتخاذ أكثر من زوجة واحدة معتمدة فى كل مرة. وإن كان عدد الزوجات الثانويات والمحظيات يتحدد وفقا لضميره أو قدرته المالية. ربما كان التناغم العائلى يفرض بعض الحدود. وكانت الكلمة المستخدمة للزوجة الثانوية هى "أشَّتو" أو "إسيرتو" ومعناها "الخصم" (يتضح أن العبرانيين عانوا من نفس المشكلة إذ أطلق الحاخامات اليهود اسم "ساروت" على الزوجات الثانويات ويعنى "الشريكات الغيورات".) وكان ثمة مادة غير اعتيادية فى القانون البابلى: إذا كانت الزوجة الشرعية عاقرا فلزام عليها أن توفر لزوجها امرأة أخرى تنجب له الأطفال[١٠].

بوجه عام كانت المرأة "الحرة" –كنقيض للجارية التى لم يكن حظها أسوأ بكثير–مصرية كانت أو بابلية أو يهودية متاعا مملوكا لوالدها أثناء الطفولة. ولزوجها من المراهقة فصاعدا. وباستثناء بعض الحالات التى يفعل فيها الحب أفاعيله كان الزوج ينظر لزوجته أساسا كأم لأطفاله وراعية لمنزله. أى خادمة عالية المقام تُعامل بالحسنى إلا إذا فشلت فى واجباتها. حينها يمكن أن تطرد أو تحال إلى التقاعد وفقا لهوى الزوج. ورغم أنها قد تحتفظ بمهرها بل وقد ترث زوجها فإن التدابير المالية المخصصة لها تجعل الأمور معقدة. فالأموال والممتلكات تذهب للأبناء –غرض الزواج الرئيسي– وليس للنساء. وكما تقول تعاليم الكاتب المصرى آنى: "تزوج امرأة وأنت شاب. سوف تجلب ولدك للعالم. دعها تلد لك وأنت شاب. من الحكمة أن تنجب أطفالا. سعيد هو الرجل ذو الأسرة الكبيرة."[١١]

ذلك النمط المتكامل من العلاقات والذى تأسس فى الشرق الأدنى قبل ٣٠٠٠ عام استمر ليس فى أوروبا وحسب وإنما فى آسيا وأفريقيا والأمريكتين– مع اختلافات طفيفة وفقا للزمان والمكان– حتى أواسط القرن التاسع عشر.

مرضى الهوى•

كثيرون فى أنحاء العالم القديم عملوا بنصيحة آتى فيما يخص الزواج فى سن صغيرة، مما يفسر بالتأكيد عدد "أمراض النساء" التى ذكرتها الأبحاث الطبية. ففى بلاد ما بين النهرين وبين العبرانيين بدا أن الرجل كان يدخل على زوجته وهى بعد فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها. وفى مصر وفقا لإحدى المصادر كان ذلك يتم مبكرا جدا. أحيانا فى سن السادسة[١٢].

لسوء الحظ لم يكن الأطباء المصريون أكفاء فى التشخيص. وتوضح بردية كاهون —أقدم عمل طبى وصل إلينا (نحو ١٩٠٠ ق.م) أنهم لم يفرقوا فى ذلك الوقت بين الأعراض والأمراض. عندما أجرى أحد العلماء الألمان المحدثين دراسة موسعة عن أمراض النساء والولادة فى البرديات القديمة اكتشف أنه بالإمكان التعرف على عدد قليل من الأمراض فحسب. دون شك عانت النساء المصريات من مشكلات هضمية إذ كانت "الرغبة فى التقيؤ". و"تراكم الصديد الذى يجرى فى الجسم" من بين الأمراض المذكورة. كما لم يكن التهيج فى الأعضاء التناسلية نادر الحدوث. ووصفت "شفتا المهبل" بأنهما "مريضتان" أو ربما متقرحتان، كما عُرف تدلى الرحم وتم وصفه بشكل كاف فى إحدى المرات. إذ تقول بردية كاهون "إذا كانت المرأة تعانى من آلام الظهر وتشعر باحتكاك بين فخذيها فقل لها إن رحمها متدل." [١٣]

كانت البرديات تحمل معلومات أكثر فيما يتعلق بمشكلات الرجال الجنسية. بما فيها الأمراض المزمنة مثل العقم. وقد رصد الأطباء حالات يكون فيها المريض "غير قادر على الوفاء بواجباته" (كانت "التعبيرات اللطيفة" تستخدم فى العالم القديم مثلما هى اليوم). كما كان العرّافون أحيانا يُنذرون رجلا بأن "نشاطه سيزول قبل شريكته". كذلك كان العاشق قُبيل بداية التاريخ عرضة لـ"مرض الجماع" والذى لم يكن حالة حادة من اكتئاب ما بعد الجماع وإنما مصطلح عام يشير لعدوى تناسلية مثل السيلان والخراريج على الخصيتين. ولم يتضح ما إذا كان المصريون قد عرفوا كيفية انتقال الأمراض التناسلية. لكن الأكاديون كانوا يعرفون. "تلك البثور البيضاء... التقطها بعد نومه فى الفراش مع امرأة." [١٤] كما يصف

• بالفرنسية فى الأصل (المترجم)

مصدر قديم مرضا شديد الشبه بالالتهاب الكبدى الوبائى الذى يشتبه الباحثون الآن فى كونه مرض معد يتعرض له المثليون بوجه خاص[١٥].

ومع انشغال بال الشرق الأدنى بالأبناء كان من الطبيعى أن تنال مشكلات الحمل اهتماما خاصا. كانت اختبارات الحمل شائعة قبل ٤٠٠٠ عام كما هى الآن. حتى وإن كانت النتائج غير موثوق بها دوما. كان الطبيب المصرى يُنصح بأن يضع حبوب القمح والشعير فى جرابيْن منفصليْن من القماش. ثم يطلب من المرأة "أن تمرر ماءها عليهما كل يوم... إذا نبتت (البذور) فى الجرابين فسوف تلد... أما إذا لم تنبت فلن تلد أبدا." وبافتراض أن نتيجة الاختبار كانت إيجابية فهل سيكون الطفل ولدا أم بنتا؟ إذا نبت القمح أولا سيكون ولدا، وإذا كان الشعير فهى بنت. (كانت حبوب القمح أكثر قيمة من حبوب الشعير). أما الأطباء فى بلاد ما بين النهرين فكانت لهم طريقة أقل إقناعا. وهى "إذا امتلأت جبهة الأم المستقبلية بالنمش، يكون الطفل الذى تحمله ولدا." مع ذلك فقد كان لديهم اختبار مؤكد للعقم الدائم: "لتعرف المرأة التى ستحمل من المرأة التى لن تحمل: البطيخ. يُسحق ويُدق ويُعبأ فى زجاجة مع لبن امرأة وَلدت طفلا ذكرا، اجعل منه شربة تبتلعها المرأة. إذا تقيأتْ فسوف تلد. وإذا تجشأت بقوة فلن تلد أبداً."[١٦]

على مدار ثلاثين يوما بعد الولادة كانت المرأة البابلية نجسة طقوسيا. مثلما هى أثناء الدورة الشهرية. أثناء الأيام الستة التى ترتدى خلالها فوطة صحية (اسمها بالسومرية "تاج. نيج. دارا. أوش.آ" أو "ضمادة الدم") كانت المرأة تنجس كل ما تلمسه، سواء كان الخبز الذى تخبزه أو الرجل الذى "يقترب" منها•. وثمة مرسوم ملكى يمنعها أن تقترب من الملك فى تلك الأوقات. بعد دورتها الشهرية كانت تؤمر بتطهير نفسها إما عن طريق الاستحمام أو غسل يديها. مما يلقى ظلال الشك على ما اشتهر به المصريون من حماسهم للنظافة العامة فى الحياة اليومية. (وهو ما تؤكده حقيقة أن الفرعون رمسيس الثانى كان شهيرا ليس فقط بعدد أطفاله الذى بلغ نحو ١٧٠، وإنما أيضا بعدد ما لديه من بثور سوداء الرأس)[١٧].

العبرانيون كذلك فضلوا الطهارة الطقوسية على النظافة الصحية. ولم يواظبوا على الاستحمام أكثر أو أقل من جيرانهم. لكن التعاليم نزلت فى سيناء أنه إذا لمس رجل فراش امرأة حائض أو مقعدها أو ملابسها يصير نجسا بقية اليوم. بل

• كان أطباء أوروبا حتى القرن التاسع عشر يعتقدون أن لمس امرأة حائض يمكن أن يفسد لحم الخنزير.

وإن خرج من جسده هو نفسه منيٌّ صار نجسا لأيام سبعة. ما يجعل الأمر يبدو وكأن سكان الشرق الأدنى كانوا يتلمسون طريقهم نحو فكرة الحجر الصحي[١٨].

علامة العهد

يدعى العلماء المحدثون أحيانا أن الختان—وهى العملية الجراحية البسيطة التى يقطع فيها الغطاء الجلدى المتحرك الذى يغلف قمة العضو الذكرى- كان يتم أساسا لأسباب تتعلق بالنظافة العامة•، قائلين إن الملابس فى ذلك الوقت كانت فضفاضة وقصيرة مما يتيح لحبات الرمل أن تجد طريقها تحت القلفة وتسبب تهيجها أو تلفها أحيانا. لكن إذا كان الأمر كذلك سيكون الحل الأبسط للتعامل مع هذه المشكلة هو إجراء تعديلات طفيفة على الملابس التى تغطى الأعضاء التناسلية. ثم أن تلك العملية شاعت أكثر فى مصر وأفريقيا ولم تكن تتم إلا قبيل البلوغ- وهو وقت متأخر إذا كان الغرض هو النظافة العامة. كل الحقائق فى الواقع تشير إلى طقس البلوغ: سن المريض. الاستعراض المتفاخر لحشفة القضيب. وإزالة الثنيات المترهلة فى الجلد والتى قد تمثل مظهرا نسويا فى رأى الذكور البدائيين الغيورين على رجولتهم.

لا يعرف أحد مدى انتشار ممارسة الختان فى مصر فى عهد الأسرات. فالمصادر الحفرية والأدبية، وبقايا المومياوات. والرسومات والتماثيل التى تصور العراة جميعها تقدم أدلة متضاربة. لكن يبدو أن تلك العادة لم تكن معممة ولا كان لها مغزى طبقى. كان الكهنة يُختنون. وكذلك الرعاة. لكن الفراعنة أحيانا يختنون وأحيانا لا[١٩].

ووفقا " لسترابو " عالم الجغرافيا الإغريقى فى القرن الأول قبل الميلاد. كان المصريون بجانب ختان الذكور "يَقصُّون" النساء. ومازالوا يفعلون ذلك. ما يسمى عادة (خطأ) بختان الإناث حمل معان مختلفة عبر التاريخ، ففى بعض الأحيان لم

• سادت تلك النظرية لوقت طويل. إذ شاع فى الولايات المتحدة فى منتصف القرن العشرين أن للختان فوائد (الوقاية من سرطان القضيب) حتى أن غالبية ضخمة من الصبية الأمريكيين كانوا يُختنون بشكل نظامى فى المستشفى بعد الولادة. وفى عام ١٩٦٦ جاء فى تقرير لماسترز وجونسون الباحثين فى الشؤون الجنسية أنهما لم يجدا سوى ٣٥ غير مختتنين بين ٣٠٠ ذكر تطوعوا للفحص الجنسى.

يكن يستلزم سوى فتح غشاء المهبل فى افتضاض طقوسى للبكارة. وفى أحيان أخرى كان يعنى قطع تام للبظر وشفرتى المهبل أو جزء منهما. وهى الأغشية الجنسية الخارجية الحساسة. فى صورته المتطرفة يكون الختان مؤلما وخطيرا سواء على الصعيد الجسدى أو النفسى. ويبدو أن الغرض منه كان الحد من الاتصالات الجنسية غير الشرعية بحرمان المرأة من المنطقة الأكثر عرضة لمؤثرات الاستمتاع. وفى استبيان حديث أجرته جمعية تنظيم الأسرة فى القاهرة تبين أن ٩٠ بالمائة من الشابات التى شملهن الاستبيان تعرضن لإزالة جزء من البظر والشفرتين•. (٢٠)

الختان الذى ربما كان شائعا للغاية فى مصر- مثلما شاع فيما بعد بين المايا والأزتيك والإنكاس وفى بعض أجزاء بولينسيا- لم يكن يمارس فى بلاد ما بين النهرين حتى جعله اليهود أحد أركان الإيمان. ربما جاءوا بالفكرة من مصر فى زمن الخروج. لكن مشرّعو إسرائيل نقلوه من المراهقة إلى الطفولة. وجعلوه إلزاميا. وقدموه باعتباره رمزا خالدا للعهد بين الرب وبين الشعب اليهودى. وبذلك حولوا طقسا وثنيا إلى نعمة من نعم الإله. أحيانا ما يثار جدل أن الختان كان يستخدم فى البداية كعلامة قَبليّة. إشارة تُميز بنى إسرائيل عن جيرانهم ذوى الآلهة المتعددة. لكن إذا كان ذلك صحيحا لكانت إشارة غير مناسبة على الإطلاق فى مجتمع مستور كلية بالملابس. مجتمع يعد فيه "كشف الجسد بطريقة غير لائقة" خطيئة كبرى. أيضا لم يكن الختان ليتيح للمختون أن يهرب أو ينكر جنسه إذا وقع فى أيدى الأعداء. إن علامات مثل "التيكا" Tikka• لدى الهندوس. أو الغُصْن الذى يثبَّت فى قلنسوة سكان المرتفعات الاسكتلندية أو السلام باليد المميز بين الماسونيين ربما كانت رموزا أكثر عملية.

الاحتمال الأرجح أن وظيفة الختان هى ما أُعلن عنها. بأنها رمز للعهد الدموى. قال الرب لإبراهيم "وأما أنت فتحفظ عهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختَن منكم كل ذكر. فيكون علامة عهد بينى وبينكم." (سفر التكوين. إصحاح ١٧. ٩-١١). فى العهود الدموية بين الرجال كان الدم يسال عادة من أحد

• كان ذلك الاستبيان فى عام ١٩٧٩ (المترجم)

• التيكا: علامة توضع على الرأس مثل علامة الزواج الشهيرة لدى نساء الهند (المترجم)

أطراف الجسد. لكن عهد الرب لم يكن مع إبراهيم فحسب بل مع ذريته كذلك. لذا كى يكتمل المعنى يجب أن يسيل الدم من أعضاء إبراهيم التناسلية.

يعتقد علماء التحليل النفسى هذه الأيام أن الختان اليهودى والذى كان يجرى فى وقت مازال الصبى فيه فى حالة تبعية كاملة. يظل مع الطفل ليذكره دوما بتلك التبعية (سواء من خلال العلامة الجسدية أو الغرض الرمزى من ورائها)- وذلك يخلق لدى الطفل خوفا من الدفع بهذا الختان قدما. أى أنه يخلق لديه عقدة الخوف من الإخصاء فى صورة طفيفة أو حادة. إنها نظرية محكمة. حتى وإن عجزت عن تفسير ما قاله فرويد من أن غير المختونين أيضا يعانون من تلك العقدة[٢١]. ونضيف أنه فى زمن الكتاب المقدس كان هناك عدد كاف من الخصيان فى الشرق الأدنى يغذّون عقدة الخوف من الإخصاء. ودون الحاجة إلى الختان .

مسألة خصوبة

بغض النظر عن صحة نظرية عقدة الإخصاء. فما من شك أن العبرانيين الأوائل كانوا منشغلين للغاية بخصياتهم•. فى الآيات الوحيدة التى تمنع المرأة من مساعدة زوجها فى العهد القديم يقول سفر التثنية "إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضا رجل وأخوة وتقدمت امرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته. فاقطع يدها ولا تشفق عليها"(إصحاح ٢٥(١١-١٢). ويبدو أن احتمال أن تمسك نساء أخريات فى الشرق الأدنى بخصيتى رجل أثناء العراك كان أمرا واردا. إذ سن الأشوريون أيضا تشريعا ضد ذلك. "إذا سحقت امرأة خصية رجل أثناء شجار. يقطع (ثدياها أو حلمتا ثدييها)." [٢٢]

كذلك ابتكر القانون عقوبة لمن يصيب امرأة حامل. يقول سفر الخروج "وإذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يُغرَم... وإن حصلت أذية تُعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن..." (إصحاح٢٢. ٢١-٢٤). وفى آشور كل رجل يضرب امرأة كريمة الأصل و"يتسبب فى إسقاط ثمرة رحمها"

• فى إسرائيل اليوم يُمنع الرجال الذين يعانون من جروح فى أعضائهم التناسلية من الزواج من اليهوديات بالولادة. مع ذلك بإمكانهم الزواج من المتحولات إلى اليهودية أو البنات غير الشرعيات.

يعاقب بغرامة كبيرة وبالضرب وبشهر من السخرة. أما إذا لم تكن المرأة كريمة الأصل فإن العقوبة تقتصر على الغرامة. أما الحيثيون فكانوا رجال أعمال بطبعهم: عشرة شيكلات من الفضة إذا كانت فى شهورها الأخيرة، وخمسة فقط إذا لم تكن تجاوزت الشهر القمرى السادس من الحمل.[٢٣]

كان الإجهاض جريمة يعاقب عليها القانون. والعقوبة للمرأة الأشورية هى أن "تُخوزق ولا تُدفن". وإذا ماتت أثناء الإجهاض توقع العقوبة ذاتها على جثتها. مع ذلك لم يكن أحد يولى اهتماما كبيرا لقتل الأطفال الرضع. ربما لأن ذلك كان القدر الذى ينتظر الطفلة الأنثى عادة. أما سقوط الجنين أو إجهاضه فقد يحرم طفلا ذكرا من الظهور إلى العالم. وحدهم العبرانيون كان لديهم حكم يمنع إعطاء الأطفال إلى "موليخ" - وهو ليس عفريتا كما كان يُعتقد وإنما مصطلح تقنى يعنى التضحية بالطفل- وهو ما يرقى لنفس المستوى.[٢٣]

كما توضح تلك القوانين فإن أناس الحضارات الأولى كانوا معنيين بالخصوبة. وخاصة العبرانيين. فما من وسيلة لتقوية شعب الله المختار-بنى إسرائيل- وزيادة عددهم سوى خصوبة الآباء والرعاية الكافية للأبناء. وكان الهدف من وراء قواعد التربية المفروضة والممارسات الجنسية المحظورة هو الوصول إلى ذلك الغرض النهائى.

قال "جوزيفاس" المؤرخ اليهودى فى القرن الأول "لا يعترف القانون بأى روابط جنسية عدا الرباط الطبيعى بين الزوج وزوجه. وذلك فقط لإنجاب الأطفال." لقد كانت هناك تدابير مختلفة إيجابية وسلبية تعزز ذلك المبدأ. فعلى سبيل المثال كان الرجل المتزوج حديثا يعفى من الالتزامات العسكرية والتزامات العمل لمدة عام "ليسعد بالزوجة التى اتخذها." كان الهدف هو التأكد من أن العروسين سيبدآن حياتهما الأسرية على الفور. لكن ذلك كان له أحد الأعراض الجانبية غير المقصودة: زيادة سنوية فى عدد الزوجات الجديدات للرجال الأثرياء.

الوجه الآخر من العملة كان الإدانة التامة لجميع أنواع الجنس غير المنتج. ففى حين كانت بابل تستعد للاعتراف بنقابات كاملة لممارسى الدعارة من المثليين. قال الرب لشعب إسرائيل "وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا. إنهما يُقتلان. دمهما عليهما". إن الاتصال الجنسى مع البهائم أو أى من الحيوانات الداجنة (كبيرة الحجم)- لم يكن أمرا نادر الحدوث فى المجتمعات الرعوية. لكن عندما بدأ البدو فى الاستقرار أخذوا ينظرون لتلك

الممارسة على أنها من العهود البائدة. وحتى الحيثيون المتسامحون فرضوا الموت جزاء لها- ربما كان ذلك لإيقاف الناس عن تلك العادة.[٢٥]

موانع الحمل

بمرور الأيام فقدت وصية "أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض"• بعضا من سطوتها. لقد ظل الجنس غير المثمر الذى أدين فى سيناء ملعونا. لكن عندما أجبر اليهود على الشتات فى أراض جديدة أصبحت الأسر الكبيرة عبئا وبدأت فكرة تحديد النسل تتمتع بجاذبية متزايدة. وبحلول ذلك التاريخ- ٣٠٠ عام قبل بداية العصر المسيحي- كان لتقنيات منع الحمل تاريخ طويل ومتخبط.

لم يكتشف العلماء إلا مع نهاية القرن السابع عشر الميلادى أن السائل المنوى ليس مجرد سائل فحسب بل وسط تتعلق فيه ملايين الحيوانات المنوية. واحتاجوا إلى مائتى عام أخرى قبل أن يدركوا أن عملية التخصيب لا تحتاج سوى لحيوان منوى واحد من بينها. حتى ذلك الوقت لم يكن دعاة استخدام موانع الحمل أو مستخدموها على دراية بمدى صعوبة الأمر.

مع ذلك فحتى المصريون الأوائل أدركوا الفكرة الأساسية بشكل صحيح. كان هدفهم هو منع السائل المنوى من دخول الرحم إما عن طريق التخلص منه قبل أن يصل إليه (عن طريق حجزه بمادة أسفنجية أو ماصة توضع داخل المهبل). أو بسد عنق الرحم الذى يصل المهبل بالرحم. الوصفات الطبية التى وصلت إلينا من عصور الأسرات لا تشرح أى من الغايتين هى المستهدفة. كما أن بعض المكونات لم تعرف بعد. تقترح بردية كاهون-والتى تضم أولى وصفات منع الحمل- خلط روث التمساح بعجينة من الأيوت (كلمة غير معروفة) وحشر المزيج فى المهبل مثل سدادة. ومن الأفكار الأخرى استخدام مزيج غروى من العسل والنطرون (كربونات الصوديوم) أو إعداد صمغ الأيوت.

وبعيدا عن الشعور الأولى بالاشمئزاز- فى الواقع تعد وصفات منع الحمل طيبة الرائحة مقارنة ببقية الأدوية المصرية — يظل السؤال: هل كانت تلك الوصفات فعالة؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد خاصة وأن الكيمياء القديمة (مثل وصفات الطبخ القديمة) لم تزعج نفسها أبدا بذكر المقادير مما يجعل من الصعب الحكم

• وصية الإله لنوح فى سفر التكوين (الإصحاح الأول، ١٨) (المترجم)

على التركيبة النهائية. على سبيل المثال ربما كانت وصفة روث التمساح تركيبة ماصة. وفى تلك الحالة ستستخدم فى المهبل لامتصاص السائل المنوى. أما إذا كانت مضغوطة أكثر فستعمل كسدادة لعنق الرحم. بل وربما كانت مرنة بقدر يتيح لها التمدد والانكماش مع عضلات المهبل والرحم ما يجعلها أكثر فاعلية.

بعد بردية كاهون بثلاثمائة عام رجحت بردية إيبرس* غمس ضمادة من الكتان فى مزيج من براعم السنط والعسل واستخدامها لسد الفتحة المؤدية للرحم. ومن الملاحظ أن أيا من تلك الوصايا التى وصلت إلينا فيما يتعلق بأدوات حجز المنى - سواء فى ذلك الوقت أو لاحقا- لم تفسر كيف يمكن إدخالها فى مواضعها. لم يكن ذلك شيء يمكن تحقيقه بالأصابع فهى أقصر من اللازم. لابد إذن أن الطبيب -أو المرأة نفسها- استخدم نوعا من القضبان الطبية. أو أن السدادة كانت أكبر بكثير بحيث تملأ النتوء الخلفى للمهبل بأكمله وكذلك الجزء المحيط بالفتحة المؤدية للرحم. فى تلك الحالة بالتأكيد كانت الضمادة الكتانية أفضل من روث التمساح العفن لسهولة إزالتها ووضعها.

ظهرت وسائل منع الحمل أساسا كوسائل ميكانيكية. لكن مصر كانت موطن الإبداع الكيميائى. وربما أدرك الأطباء المصريون -وإن لم يعرفوا السبب - أن بعض الخواص الكيماوية تعزز تأثير موانع الحمل الميكانيكية . اليوم بات العلماء على دراية جيدة ليس بوجود الحيوان المنوى فحسب وإنما بنمط حركته وحساسيته للمواد المختلفة. وهم على علم أن الوسط الزيتى أو الصمغى يقلل قدرة الحيوان المنوى على الحركة وأن الحموضة تساعد على تثبيط عملية التخصيب. وأن حمض اللبنيك سيقتل الحيوان المنوى ويمنعه من مواصلة طريقه. وأن الملح هو الآخر وسيلة فعالة لقتل الحيوانات المنوية. فى الوصفات المصرية لابد وأن العسل وصمغ "الأيوت" كانا يعملان على إبطاء الحيوان المنوى. لكن الأكثر إثارة هى رؤوس السنط التى تفرز حمض اللبنيك بشكل طبيعى وهو المكون الفعال المفضل حتى الآن فى معظم الدهانات والمواد الهلامية القاتلة للحيوانات المنوية. مع ذلك فالمصادر الحديثة تزعم أنه كان يجدر بالمصريين استخدام روث الفيل بدلا من روث التمساح. حيث أن الأخير قلوى ومن ثم يزيد من إمكانية حياة الحيوان المنوى.

* بردية إيبرس: بردية مصرية ترجع إلى عام ١٥٥٠ ق. م. وتعد من أقدم الوثائق الطبية فى التاريخ (المترجم)

فى حين أن روث الفيل حامض إلى حد ما وقد ظل يُنصح به لمنع الحمل فى العالم الإسلامى حتى القرن الثالث عشر.[٢٦]

بالطبع كانت ثمة وصفات أخرى ولكنها كانت مبنية على التبّرك أكثر من القناعة العلمية. ذكرت إحدى البرديات طريقة أخرى هى "تبخير" المهبل قبل الجماع بعقار يسمى "ميمى". وفى الصباحات الأربعة التالية على المريضة أن تتجرع مشروبا من "الشحم وعشبة "الماعتيت". والبيرة الخفيفة" المغلية معا. وهو ما يبدو مليّنا أكثر منه مانعا للحمل.

كل تلك الطرق كانت تبشر بأغشية عنق الرحم الحديثة Cervical Cap and Diaphragm*. لكن المصريين القدماء والأجيال التالية لهم ظلوا مشغولين بالبحث أملا فى التوصل إلى أفضل موانع الحمل.. "الحبة". على مدار التاريخ استُخدم عدد مدهش من أوراق الأشجار والأعشاب والجذور المختلفة وكذا مواد أقل جاذبية. كانت تُسحق معا وتذاب وتشرب لتقليل الخصوبة. وقد اعتاد المؤرخون الطبيون بوجه عام وصفها بأنها مجرد وصفات سحرية لا تضر ولا تنفع. مع ذلك فالعدل أن نصفها بأنها تجارب غير ناجحة. كان هناك عادة بعض المنطق فى المكونات المستخدمة. حتى وإن كان منطقا يستند على الإيمان الدينى أكثر من المعرفة العملية.

لم يبق لدى العالم القديم ما يتعلمه فيما يخص المناهج العامة المختلفة لتحديد النسل. فبالإضافة إلى الوسائل الميكانيكية والكيماوية لمنع الحمل. مارسوا الإجهاض. وقتل الأطفال الرضع. واعتزال الجنس الآخر. والجنس غير المثمر (المثلية الجنسية والبهيمية وربما الجنس الخلفى مع المرأة). وحاولوا تقليل الخصوبة عن طريق إطالة فترة الرضاعة الطبيعية. كما استخدموا المثبطات الجنسية ليوقفوا السائل المنوى فى موطنه عن طريق قتل الرغبة. ما من سبيل لحساب الشعبية التى كانت تتمتع بها كل وسيلة. لكن التاريخ اللاحق بأكمله يرجح أن قتل الرضع لم يكن الملاذ الأخير. بل الخيار الأول.

عندما كان الناس يفكرون فى القيام بمحاولة جادة مع موانع الحمل كانوا يلجأون عادة فيما يبدو إلى "قطع الجماع" Coitus Interruptus (أو ما يسمى بالانسحاب)، وهى وسيلة غير مكلفة ولا معقدة يرجح أنها انتشرت أكثر

* هى حلقة مطاطية تسد عنق الرحم وتمنع السائل المنوى من الوصول إلى الرحم. (المترجم)

من أى وسيلة أخرى منذ بداية اكتشاف الدور الرئيسى للسائل المنوى فى الحمل. لكن عيب تلك الوسيلة –بالإضافة إلى عدم موثوقيتها– هى أنها تعتمد على الرجل. فى حين أن المرأة هى التى كانت معنية أكثر بتجنب الحمل. وفى الواقع فإن أحد أسباب استمرار التجارب على عقاقير منع الحمل –حتى فى حالة عدم فاعليتها– أنه ما من وسيلة أخرى أتاحت للمرأة التحكم فى خصوبتها بنفسها. إذ أن وسائل مثل ضمادات الكتان وأغشية روث التمساح ستلفت بالتأكيد انتباه الزوج.

بالنسبة للعبرانيين. كان "قطع الجماع" له عيب آخر. إذ أن التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والتى تقوم عليها شريعة اليهود بأكملها) أمرت الرجال أن "أثمروا وأكثروا". أى أنه عند الرغبة فى تحديد حجم الأسرة ستكون المرأة هى المسؤولة عن اتخاذ الاحتياطات. ويبدو أن المادة الأسفنجية كانت مقبولة. بل وأعلنت بعض المصادر أن استخدامها إلزامى للفتيات بين سن ١١ و١٢ سنة. وللنساء الحوامل –إذ ساد اعتقاد أن التخصيب الثانى ممكن وأنه سيتلف الجنين الذى بدأ فى التكون بالفعل– وللأمهات المرضعات. وكان الخيار البديل أن تفعل الزوجة مثل العاهرات. فتقفز بعد الجماع لأعلى وأسفل أملا فى طرد المنى من جسدها. أو تبتلع "فنجان الجذور". وقد شرح رابان يوهانان كيفية إعداد نسخة القرن الثالث من تلك الخمر متعددة الأغراض. يجب أن تمزج "مقدارا بوزن دينار" من الصمغ الاسكندرانى مع حجر الشب• مذابا فى الماء وزعفران الحدائق للحصول على التركيب. إذا مُزج ذلك المزيج بثلاث فناجين من النبيذ يصبح عديم الفائدة كمانع للحمل ولكنه مفيد لعلاج السيلان. من ناحية أخرى إذا مُزج مع فنجانين من البيرة فلن يعقم من يتناوله فحسب بل سيشفيه كذلك من الصفراء. وكان شرب "فنجان الجذور" مسموحاً للنساء فقط.

من شخصيات الكتاب المقدس التى مارست "قطع الجماع" متحدية تعاليم التوراة كان أونان– وقد أماته الرب فى الحال. وقد قادت واقعة أونان إلى عدد من التفسيرات الخاطئة – فى الأزمنة التالية– وكم لا بأس به من الارتباك فى محاولة لتحديد الخطيئة التى ارتكبها. كانت العادة القديمة بين اليهود أنه عندما تتزوج امرأة فإنها لا تتزوج زوجها فقط بل عائلته أيضا. فقد اشتراها الزوج ودفع ثمنها. فإن مات تصبح مسؤولة من عائلته. وأكثر من ذلك. إذا لم

• حجر الشب: كبريتات الالومنيوم والبوتاسيوم. (المترجم)

تكن أنجبت له أطفالا فإن موته يلغي وجوده من الحياة نهائيا كما لو أنه لم يعش قط. كان الحل إذن هو الزواج الأخوى Levirate marriage. فإذا مات الأخ الأكبر دون أن يخلف وريثا على الأخ الأصغر أن يتخذ من الأرملة زوجة تلد الابن الأول الذى يصبح طفلا شرعيا للرجل المتوفى•. لكن أونان تمرد على تلك العادة.

وفقا لسفر التكوين (إصحاح ٣٨. ٨-١٠) فإن الابن الأكبر ليهوذا مات دون ذرية "فقال يهوذا لأونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلا لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذ دخل على امرأة أخيه أنه أفسد على الأرض لكيلا يعطى نسلا لأخيه. فقبح فى عينى الرب ما فعله. فأماته...".

ما هو بالتحديد الذى قبح فى عينى الرب؟ قطع الجماع؟ الاستمناء؟ أم عصيان شريعة الزواج الأخوي؟ رجال الدين الكاثوليك الذين قرروا فى عصور متأخرة أن يجرموا كافة أنواع موانع الحمل باستثناء اعتزال الجنس وقفوا بقوة مع التفسير الأول. وتبنى طبيب من مدينة لوزان (السويسرية) يدعى تيسوت S. A. Tissot فى عام ١٧٦٠ التفسير الثانى وكتب كتابا بعنوان "فى الأونانية.. أطروحة طبية حول الأمراض التى يسببها الاستمناء". مما جعل الأجيال التالية تلوم أونان لأنه ابتكر خطيئة "ايذاء النفس" البشعة• Self-abuse. من جانبهم أكد الحاخامات أن هذا السقوط كان نتيجة للعصيان العمدى لشريعة الزواج الأخوي- وهو استنتاج منطقى. إذ أن عصيان الشريعة لم يكن مرغوبا فى حين أن قطع الجماع كان مستحبا فى بعض الأحيان. وقال أحد الحاخامات أنه عندما تكون الزوجة فى مرحلة الإرضاع لطفل سابق فمن واجب الزوج أن "يدْرس بالداخل ويذْرو بالخارج".[٢٧]

• اتبع نظام مماثل فى الهند حتى بداية العصر المسيحى. كما شجع الإنكاس فى بيرو النظام ذاته فى القرن الخامس عشر.

• فى عام ١٩٧٦ أدان الفاتيكان الاستمناء بعد إخراج أونان من الموضوع (بلغة من الغموض الجليل)... فى الإعلان الخاص ببعض الأسئلة المتعلقة بأخلاقيات الجنس. لأن "الاستخدام العمدى للمقدرة الجنسية خارج العلاقات الزوجية الاعتيادية يتناقض بشكل أساسى مع الغرض النهائى من تلك المقدرة."

بعد مرور زمن طويل على قصة أونان والمرأة التى رفض أن يخصبها بمنيه. ظهر قانون "هاليزه"• Halizah ليحل المشكلات من هذا النوع. أصبح بالإمكان فيما بعد التخلى عن الزواج الأخوى. شريطة أن يتم ذلك فى محكمة علنية وبالاحتفال الطقسى المناسب. لكن ظلت الحقيقة الغريبة فى مجتمع يتمتع بكراهة فطرية لزنا المحارم: أن ممارسة الزواج بين الأخ وزوجة الأخ كان ليس مقبولا فحسب بل مفروضا.

عقدة أوديب

على صعيد آخر التزم العبرانيون بدقة بالتابوهات التى نزلت عليهم من سيناء. رغم أن صياغتها جاءت برقة غير معهودة: "عورة أختك... لا تكشف عورتها.. عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها... عورة امرأة وبنتها لا تكشف. ولا تأخذ ابنة ابنها أو ابنة بنتها لتكشف عورتها..." (سفر اللاويين. إصحاح ١٨. ٧-١٨) وبعد أن انتهى الحاخامات من تلك التابوهات كانت شرائع زنا المحارم قد منعت كذلك كشف عورة "زوجة شقيق الجد الأبوى للجدة من الأم"[٢٨].

ولما كان على الرجل دوما أن يأخذ زمام المبادرة كانت تلك الشرائع تخاطبه هو أساسا. وكانت قرابته لزوجات أخيه تصبح سارية ليس من لحظة الزواج ولكن من لحظة الخطبة. وأى انتهاك لتابو زنا المحارم يجلب عقوبات تتراوح من الجلد إلى الرجم أو الحرق حتى الموت.

من الصعب أن نحدد كم من طريقة فى تعامل العبرانيين مع زنا المحارم مأخوذة من عادات عالم ما قبل التاريخ وكم منها يرجع إلى تأثير جيرانهم من الأشوريين والحيثيين (والذين اعتبروا أيضا تلك الممارسة عملا بغيضا) وكم منها رد فعل على ذكرياتهم فى مصر. حيث كان الفراعنة المكرهون ينظرون لزواج المحارم باعتباره من مستلزمات الملكية تقريبا. بل وثمة احتمال أن يكون اليهود -

• هاليزه: احتفال طقسى يهودى الغرض منه حل الأخ من التزام الزواج من امرأة أخيه. وفيه تقوم الأرملة بخلع حذاء شقيق زوجها المتوفى. وتصبح بعدها فى حل من الزواج منه (المترجم)

المهووسون بالتفكير فى ابن يقوى أمتهم- قد تذكروا كيف كان زواج الفراعنة من محارمهم لا يسفر إلا عن فتيات.

لأزمنة طويلة من التاريخ المصرى كان الدم الملكى يسرى بنقاء فى عروق النساء أكثر من الرجال. وكان يمكن للمرأة أن تحكم بنفسها. لكن ذلك لم يكن شائعا وعادة ما أسفر عن مشكلات داخل الأسرة المالكة. أحيانا كان الزواج الأساسى لأحد الفراعين يسفر عن بنات فقط. لكن ربما جاء بابن من زوجة ثانوية. وذلك الابن يحق له أن يطالب بالعرش ولكن موقفه سيكون ضعيفا. وأفضل ما يفعله لتقوية موقفه هو الزواج من شخص له حق أقوى فى العرش مثل إحدى أخواته غير الشقيقات. وفقا لعلماء الجينات المحدثين فإن هذا النوع من التحالف سينحو ثانية نحو ولادة بنات فقط. لذا سيتكرر الموقف بعينه فى الجيل التالى. لتبدأ واحدة من تلك السلاسل المعتادة من زواج المحارم التى اشتهر بها الفراعنة خاصة فى الألفية الثانية قبل الميلاد. وتتكرر فى أيام البطالمة ذوى الأصول الإغريقية المصرية.

رغم أن تعقيدات العلاقات الفرعونية تجعل من التحليل الدقيق أمرا عسيرا (ولا نقول مثيرا للمعارك) فقد استطاع عالم الأحياء البريطانى دارلنجتون C.D Darlington وضع خريطة نسب مبدئية للأسرة الثامنة عشر (١٥٧٠-١٣٢٠ ق.م). والجزء الأكثر إثارة فيها يتعلق بأمينوفيس الرابع والذى أطلق على نفسه اسم أخناتون- "الفرعون الغامض" الذى قام بمحاولة درامية غير ناجحة لتدمير السلطة السياسية والاجتماعية والدينية التى كان يتمتع بها كهنة آمون فى طيبة.

بدأ أخناتون رحلته بأوجه قصور معينة. فمن خلال التماثيل والصور الشخصية استطاع علماء التأريخ الطبى أن يشخصوا لديه أمراضا مثل السل وتضخم الغدة النخامية وضمور الغدد التناسلية وتضخم الأطراف (أو ربما ورم الخلايا الكارهة للون Chromophobe adenoma)• [٢٩] كما لم تكن حياته العاطفية أكثر توازنا. فيبدو أن زوجته الأولى "تى" كانت أمه - سيدةً راجحة العقل من النوبة- وكان لهما ابنة واحدة. ثم تزوج من ابن خالته "نفرتيتى" وأنجب منها ثلاث بنات أخريات. ولم تكن زوجتاه الثالثة والرابعة من محارمه. وأنجب من كل منهما ابنا واحدا صار الثانى منهما حاكما وهو الصبى "توت عنخ

• ورم الخلايا الكارهة للون: ورم يصيب من الخلايا غير المفرزة للهرمونات فى الغدة الدرقية. (المترجم)

أمون". أما زواج أخناتون الخامس والأخير فقد كان من ثالثة بناته اللاتى أنجبهن من نفرتيتى. وأسفر عن ابنة واحدة ماتت فى سن صغيرة. ورغم أن أيا من زيجات أخناتون لم تكن ضرورية لتعزيز مطالبته بالعرش فقد اضطر ابناه للزواج من أختيهما غير الشقيقتين. لم يسفر زواج الأول عن أطفال. وأسفر زواج الثانى عن طفلين ولدا ميتين.[٣٠]

تاريخيا كان النجاح الوحيد الذى حققه أخناتون هو رعايته لنمط فنى ومعمارى جديد وطازج رغم أنه قصير العمر. مع ذلك حقق أخناتون خلوده ليس لكونه واحدا من الشخصيات الشاذة بصورة مثيرة وغير عقلانية التى ملأت صفحات الماضى. ولكن باعتباره نموذج بدائى لعقدة أوديب– الشخصية المحورية فى أسطورة مدينة "بيوتيا" والبطل المأسوى العظيم فى دراما سوفوكليس والرمز المجسد لنوع محدد من عقدة الأب والتى أصبحت حجر الزاوية فى نظرية التحليل النفسى على مدار الثلاثين عاما الأولى من القرن العشرين.

أخناتون– على عكس أوديب– لم يقتل أباه. وإنما محا كل أثر لحكمه. لكن أوجه الشبه متعددة. بدءا من طفولته السرية. ثم لقاءاته بالعرافين. ونبوءات الموت. والزواج من أمه. والإطاحة به على يد ابنه. ومنفاه. من المستبعد أن يكون أخناتون شعر بالذنب مثلما ادّعى سوفوكليس (أو فرويد) ولكن يظل هناك بعض الشك فى أن تلك القصة كانت فى الواقع حكايته الشيقة. نقلت عبر البحر المتوسط قبل نحو ٣٠٠٠ عام لتصبح من مكونات الأدب والحضارة الغربية.[٣١]

ثانى أقدم مهنة فى التاريخ

إذا كانت كلمة "مهنة" تعنى التخصص فى وظيفة وممارستها بشكل يومى فإن الـ"شامان" أو الطبيب الساحر ربما سبق العاهرة بآلاف أو حتى عشرات الآلاف من السنين. لكن عندما وضع الشامان عباءة الكاهن فى أولى أيام الحضارة وجدت العاهرة أيضا فى المعبد بيئة مريحة للعمل فسكنته لأزمنة طويلة.

كثير من المواد التاريخية المكتوبة عن الجنس تمس الموضوع من الخارج ولا تعالجه مباشرة. فنجدها فى القانون والطب والأدب. لكن القانون يهتم أكثر بالممنوع وليس المسموح. والطب بالشاذ وليس الطبيعى. والأدب –عندما لا يقع فى فخ الرومانسية أو الكاريكاتورية أو الأفكار المتكلسة أو الوحدات الدرامية– يهتم بالاستثنائى وليس بالمعتاد.

لحسن الحظ فقد تسللت نسمة عابرة من الواقعية إلى كتب التاريخ دون قصد. فملحمة جلجامش على سبيل المثال ربما كانت واحدة من أكثر القصص الملحمية إثارة في العالم القديم. وهي تضم في طياتها الفلسفات الكاملة لسومر وجاراتها قبل ٤٠٠٠ عام. البطل جلجامش هو ثلثا إله وثلث رجل. وتبدأ مغامراته بشكوى من ناس مدينته أوروك: "شبقه لا يدع عذراء لحبيبها. لا ابنة المحارب ولا زوجة النبيل." ولتشغله عن تلك الممارسات غير الدبلوماسية قامت الإلهة "أرورو" بخلق "إنكيدو": مخلوق ضخم متوحش ومشعر يعيش في السهوب بين الوحوش. وهو رمز للبدو الرعاة وخطر يهدد رعايا جلجامش. جلجامش الذي لم يكن أحمق يقرر أن القوة لن تفيد مع هذا الخطر. ويرسل بدلا من ذلك "عاهرة من معبد الحب. طفلة للمتعة" لتعثر على الوحش وتروضه.

تقابل العاهرة إنكيدو كما ينبغي "عرت نفسها ورحبت بلهفته. حرضت الوحش على الحب وعلمته فنون المرأة. لستة أيام وسبعة ليال رقدا معا" وبعد ذلك "أصبح إنكيدو ضعيفا" وعندما تعافى وصفت العاهرة له عجائب الحضارة و"مثل أم قادته " بعيدا عن السهوب نزولا إلى السهول.

لم تكن وظيفة العاهرة مكللة بالعار في الأزمنة السومرية أو البابلية. في أيام حامورابي (نحو عام ١٧٥٠ ق.م) كانت المعابد مملوءة بالكهنة والخدم والحرفيين. وبعدد من الكاهنات والراهبات اللاتي حظين باحترام واسع وكن عادة من أفضل العائلات. وكذلك العاهرات المقدسات اللاتي عملن كوسيطات مريحات بين المعبود والعبد. يظل السبب الحقيقي لظهور الدعارة المقدسة غامضا. ربما كانت له جذور في طقوس الخصوبة. لكن بحلول عصور التاريخ المدون كانت أرباح العاهرات المقدسات مسؤولة عن جزء رئيسي من دخل المعبد.

بعد ألف عام من حامورابي. كان المؤرخ الإغريقي هيرودوت مرتبكا من العدد الكبير لعاهرات المعبد. وكتب قائلا "كل امرأة يرجع أصلها للبلد لا بد وأن تذهب مرة في حياتها وتجلس في المعبد وهناك تمنح نفسها لرجل غريب... لا يسمح لها بأن ترجع إلى المنزل حتى يلقى رجلٌ بقطعة فضية في حجرها ويأخذها خارجا لترقد معه... ليس للمرأة امتياز الاختيار- يجب أن تذهب مع أول رجل يلقى إليها بالنقود. عندما ترقد معه ينتهي واجبها تجاه الإلهة ويحق لها أن تعود للمنزل." ويضيف غير قادر على مقاومة الرغبة في الاستطراد في الحكي: "النساء الطويلات الجميلات سرعان ما يستطعن العودة للمنزل مجددا. لكن القبيحات يبقين فترة طويلة قبل أن يتمن الشرط الذي يطلبه القانون. في الواقع يظل

بعضهن ثلاثة أو أربعة أيام." [٣٢] رغم تلك اللمسة التى تبدو واقعية فإن الدعارة فى بابل لم تكن فيما يبدو لعبة للهواة. وما من دليل يرجح أن القوانين والأزواج فى بابل كانوا أكثر تسامحا مع ممارسات زوجاتهم الجنسية خارج نطاق الزوجية مقارنة بقوانين وأزواج البلدان الأخرى.

كانت العاهرات المقدسات يصنفن فى مجموعات ظل تخصص بعضها غامضا. فال"حريمتو" (وهى كلمة متعلقة بالحريم) كانت فيما يبدو عاهرة شبه دنيوية. وال"قادشتو" عاهرة مقدسة. وال"عشتارتو" خادمة للإلهة عشتار تحديدا. وقد نصح أب بابلى ابنه قائلا "لا تتخذ من الحريمتو زوجة فأزواجها لا يحصرون. ولا العشتارتو فهى محجوزة للآلهة."

عادة كان أبو البنت هو الذى يهبها لهذه المهنة. ربما لأن ذلك يكلفه أقل من أن ينفق عليها حتى تحصل على زيجة آمنة. لكن بعض الحريمتو كن نساء متزوجات اخترن أو أجبرن على ترك أزواجهن. لم يكن مسموحا للمومسات المقدسات أن يتخذن وظيفة أو زوج. لذا كان الزواج بالنسبة لهن يعنى التقاعد. ورغم أن بعضهن لم يتزوج أبدا. فإن عددا منهن استقلن لكى يربين أطفالهن الذين حصلن عليهم أثناء حياتهن المهنية. على الجانب الآخر فقد ظل بعضهن فى المهنة ولم يتقاعدن أبدا. ويشير مثل بابلى إلى العاهرة العجوز التى ترفض أن ينظر الناس إليها على أنها وحيدة. قائلة أن عدة تجارتها مازالت تعمل على أكمل وجه. [٣٣]

يبدو أن العاهرات الأعلى مكانة قد أقمن فى جزء خاص من المعبد. لكن الأخريات عشن فى الخارج وكن يلتقطن الزبائن بالتسكع فى "الشوارع والمفارق والأماكن العامة" ولم يكن مقر عملهن أساسيا فى المعبد. وإنما فى الحانة التى عادة ما تكون قرب رصيف الميناء وهو أكثر الأماكن زحاما فى البلدة. وكان لأصحاب الحانات طقس خاص يهدف لإرضاء عشتار إلهة الحب وتشجيعها على إرسال المزيد من الزبائن إلى "تلك الحانة. منزلها العزيز". وفى الواقع يبدو أن قداسة عاهرة الحانة كانت اسمية فحسب. وإخلاصها لعشتار ليس أكثر من إخلاص متسابقى السيارات المحدثين للقديس كريستوفر والذى تتدلى ميدالية تحمل صورته من مرايا سياراتهم. [٣٤] لم يعترض أحد أدنى اعتراض على تحرش العاهرة بالرجال فى الشوارع. وأرغمها الأشوريون فعليا (مثل كثير من الشعوب) على الإعلان عن نفسها: "لا يحق للعاهرة المشاع أن تستر نفسها بالخمار (مثلما تفعل بقية النساء). يجب أن يظل رأسها مكشوفا. كل من يرى عاهرة مشاع مغطاة

الرأس فليقبض عليها... عليهم أن يضربوها خمسين ضربة بالعصى. وأن يصبوا الزفت على رأسها." [٣٥]

على حد معلوماتنا لم يكن لـ"محظيات الآلهة" فى مصر دور جنسى. وإنما كن مسؤولات عن مرافقة أى ملكة أو أميرة تحمل لقب "الرفيقة المقدسة" فى المناسبات الاحتفالية. قال هيرودوت "كان المصريون هم أول من جعلوا الامتناع عن مضاجعة نساء المعبد نوعا من الالتزام الديني"[٣٦] لكن سواء كان ذلك صحيحا أم لا فإن الحاجة للدعارة المنظمة فى مصر لم تكن كبيرة فيما يبدو. فمنذ زمن مبكر للغاية كانت الجاريات الأجنبيات متوافرات بعدد كبير فى منازل الأغنياء. فيما كان الفقراء (وخاصة الحرفيون) يعيشون فى كومبونات متحررين من أربطة الزوجية. ومن بين خمس نساء ورد ذكرهن فى وثيقة قضائية كانت أربع "يعشن معا" -كما ذكرت الوثيقة- مع حرفى واحد هنا أو هناك. والخامسة فقط كانت متزوجة شرعا. ربما كان مصدر الجنس العابر هو هذه الفرق المتجولة من "الراقصات والعازفات" اللاتى كن ينظرن إليه باعتباره عملا ثانويا.

اليهود الذين لم يكن فى دينهم مكان للإلاهات•. حاربوا بقوة ضد العقائد الأجنبية المستوردة التى شجعت الدعارة -سواء كانت مقدسة أم دنسة- لكلا الجنسين. لكن الحرب كانت كلامية أكثر منها حقيقية. فحتى فى (مدينة) يهوذا. بُعيد زمن سليمان كان هناك "مأبونون فى الأرض" (داعرون من الرجال) "فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل" (سفر الملوك. إصحاح ١٤. ٢٤). وعادة ما كانت الاعتراضات الأخلاقية تبرز ضد مرافقة النساء. اللاتى يؤجرن أجسادهن فى أحياء الأضواء الحمراء. وتلك الأحياء فى فلسطين كانت تقع عادة على أسوار المدينة: "رفيق الزوانى يبدد مالا" (سفر الأمثال. إصحاح ٢٩، ٣). وعلى الرغم من منع الرجال والنساء اليهود من العمل

• رغم أن البروتستانت اليوم. والذين يؤمنون بالعهد القديم بنفس الدرجة. يقومون بمحاولات جادة لنزع صفة الجنوسة عن يهوه. دارت مناقشة فى يونيو عام ١٩٧٤ فى اجتماع مجلس الكنائس العالمى فى برلين الغربية. وأوضح عالم الدين الأمريكى البروفيسور نيل مورتون أن إلوهيم- الاسم العبرانى القديم للإله- هو مزيج من إلوه- اسم إلهة أنثى- وإيم-مقطع جمع المذكر فى العبرية. فيما ترجع كلمة يهود إلى اسم إلهة سامريه أقدم. كما ورد فى التقارير أن السيدة بانخورست قالت لإحدى المناديات بحق المرأة فى الاقتراع"صلى للرب يا عزيزتى. ولسوف تساعدك."

بالدعارة. فإن نساء اليهود مارسن المهنة دون شك. خاصة أولئك اللاتى لم يكن أمامهن سبيل آخر للبقاء على قيد الحياة. إذ كان معظمهن مطلقات دون أطفال هجرهن أزواجهن. وكان لديهن الكثير من الزبائن. إذ أن قلة من الذكور كانوا يستطيعون إشباع رغبة التعددية عندهم بالإنفاق على زوجات أو محظيات إضافيات.

ليس ثمة تفسير واضح لكره كتّاب العهد القديم للعاهرات. فلغتهم كانت – فى أفضل الأحوال– متطرفة. وفى أسوأها تكاد تكون فاضحة. وسفر حزقيال – الذى حركته دوافع سياسية واستخدم العهر كمرادف لخطايا القدس– يعد نموذجا لذلك: " ولم تترك زناها من مصر أيضا لأنهم ضاجعوها فى صباها وزغزغوا ترائب عذرتها وسكبوا عليها زناهم..." وهى: "عشقت معشوقيهم الذين لحمهم (أعضاؤهم) كلحم الحمير ومنيهم كمنى الخيل"...هكذا قال السيد الرب. هأنذا أهيّج عليك عشاقك الذين جفَتهم نفسك...فيعاملونك بالبغضاء ويأخذون كل تعبك ويتركونك عريانة وعارية فتنكشف عورة زناك ورذيلتك وزناك" (سفر حزقيال. إصحاح ٢٣).

ومن عجب أن تلك اللغة الخشنة كانت موجهة ضد مدينة القدس، العاصمة العظيمة لسليمان. والذى قيل أن نشيد الإنشاد –تلك المقطوعة الشعرية الرقيقة والرائعة– قد أُلف خصيصا ليُلقى فى احتفال بإحدى زيجاته السبعمائة.

"كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتى بين البنات. كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبى بين البنين. تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقى. أدخلنى إلى بيت الخمر وعلمه فوقى محبة. اسندونى بأقراص الزبيب أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حبا."

٤- اليونان

بلاد الإغريق. طاهرة ونظيفة ولا تشوبها شائبة. ثقافة نقية وجمال خالص.

لم يكد الزمن يمحو الزخارف عن إفريز البارثينون* حتى كانت أجيال من العلماء قد انتهت من نزع كل ما هو مادى عن الصورة الأثينية. لكن الفلسفة ومبدأ الوسطية Golden Mean لم يكونا الشغل الشاغل والهم الأوحد للإغريق. وإلا لما كانت قواميس القرن العشرين تمتلئ بكلمات من قبيل الخنوثة Androgyny والمثيرات الجنسية Aphrodisiac والشبقية Eroticism والازدواجية الجنسية Hermaphroditism والمثلية Homosexuality والنرجسية Narcissism. والغلمة النسوية Nymphomania والغلمانية Pederasty* والنعاظ Satyriasis والبهيمية Zoophilia. وجميعها كلمات إغريقية الأصل ومعظمها متعلق بممارسات يمكن أن نجدها فى أعمال هوميروس.

هوميروس وهيسيود وبلوتارك وبوسانياس-الذين احترفوا حفظ الأساطير وتطويرها- ابتدعوا عالما حيويا مفعما بالمغامرة، ومتميزا باللاأخلاقية. يقضى فيه الآلهة والأبطال وقتا فى الفراش أو الشجار مثل ذلك الذى يقضونه فى الأعمال البطولية. ويمتزج فيه العادى بالخارق بحيث لا يعود فى الإمكان الفصل بينهما. كانت كتب هؤلاء المؤلفين هى أول ما شكل وجدان أطفال العالم الكلاسيكى. ومنها لم يتعلم الأطفال الحروف فحسب. بل والتسامح بالإضافة إلى نوع من الصلابة الواقعية. أفروديت ربة الجماع*-على سبيل المثال- وُلدت من الزَبَد. ليس ذلك

---

* البارثينون: هيكل الإلهة أثينا. (المترجم)

* سوف تستخدم مفردة "الغلمانية" من الآن فصاعدا للإشارة إلى حب الغلمان سواء كان عفيف أو مشوب بالرغبة الجنسية. (المترجم)

* كان ابنها إيروس هو الـ حالة الحب العاطفية.

البرئ الذى يعلو إحدى الموجات التى تجدها فى أعمال بوتيسيللى•. فوفقا لكتاب هيسيود "أصل الآلهة"Theogony قام كرونوس ابن الأرض والسماء بإخصاء والده بمنجل ورمى بخصيتيه فى البحر. فجرفهما التيار بعيدا محمولتين على الزبد المكون من سائلهما المنوى، ومن هنا وُلدت أفروديت. وفيما بعد أنجبت هى نفسها (باتحادها مع هيرمس) الإلهة الخنثى هيرمافروديتوس التى حملت الخواص الجسدية لكلا الجنسين. ومن اتحاد أفروديت مع ديونيسيس ولد بريابوس الذى كانت خواصه الجسدية ذكورية دون جدال وكان فى حالة من الانتصاب الدائم.

كان الأبطال شهوانيين مثل الآلهة. جاء أن هركيوليس –الذى حاز إعجاب كافة شعوب الإغريق لقوته وشجاعته وعزيمته– اغتصب خمسين عذراء فى ليلة واحدة. بل وكان مزدوج الميول أيضا. فقد أقام علاقة مع ابن أخيه أيولاوس ووقع فى غرام "هيلاس الحلو صاحب الخصلات المجعدة". أما ثيسيوس بطل الأثينيين المميز فقد أغوى عذراوات بعدد ما قتل من وحوش تقريبا أثناء ملحمة حياته الطويلة الحافلة[1].

للأبطال والآلهة أصول سامية. وهم أكبر بكثير من الحياة. ولم يكن الإغريقى العادى يحلم بأن يصل إلى إنجازاتهم. لكنه حاول أن يقلد بعضا من فضائلهم. فى كافة الأساطير لم يكن الأبطال يتمتعون بروح نبيلة فحسب، بل وبجسد جميل كذلك –وهو التقليد الذى استمر فى العالم الغربى فى الأدب والدراما وبشكل كامل فى السينما حتى ظهور "البطل الضد" Antihero فى خمسينيات القرن العشرين. أما بالنسبة للإغريق فكان للجمال وجهان لا ينفصلان. ولا يتواجد أحدهما دون الآخر. وبالعكس فإن وجود أحدهما يتضمن وجود الآخر: الجسد الجميل كان يجب أن يحوى روحا جميلة. لم يعرف أحد على وجه الدقة مصدر ذلك الاعتقاد الغريب والذى لا تثبت صحته فى كثير من الأحيان. لكنه ربما كان امتدادا لقناعة الإغريق بأن ثمة توافق بين كل الأشياء الأخلاقية والمادية والميتافيزيقية. ومهما كان السبب فإن الجمال والتوافق كانا مفردتين أساسيتين فى نظرة الإغريق إلى العالم. كما كانا أساسيين للمؤسسة الاجتماعية المتفردة.. مؤسسة الغلمانية.

• بوتيسيللى: فنان من عصر النهضة (المترجم)

الرجل والغلام

تستخدم مفردة الغلمانية Pederasty اليوم بوجه عام لوصف الانجذاب الجنسي لشخص بالغ نحو طفل غير ناضج. أما في أيام الإغريق فكانت تعني حب رجل لصبي تجاوز عمر البلوغ ولم يصل بعد لمرحلة النضج. قال (الشاعر الإغريقي) ستراتون "كم هي جميلة زهرة الصبي ابن الثانية عشرة. لكن بهجته تصير أكبر في الثالثة عشرة. والأحلى هي زهرة الحب التي تتفتح في الرابعة عشر. ويتزايد سحرها في الخامسة عشر. أما السادسة عشر فهي السن المقدسة."[٢] والمثلية Homosexuality بالمعنى الحديث-بين شخصين بالغين من نفس المرحلة العمرية- نادرا ما كان يُعترف بها في أثينا القديمة. أما مخالطة الأطفال دون سن البلوغ فلم تكن مشروعة وقتها مثلما هو الحال في معظم الحضارات الأخرى.

على مدار القرنين اللذين انتشرت خلالهما الغلمانية (من بداية السادس إلى بداية الرابع قبل الميلاد) أصر الإغريق على أنها نوع من التعليم العالي. نظريا ما كان يحدث هو أن الصبي عندما ينهي تعليمه التقليدي يُعهد به إلى رجل أكبر – عادة في الثلاثينيات- ليأخذه تحت جناحه ويكون مسؤولا عن تطوير الصبي أخلاقيا وثقافيا. يعامله بطيبة وتفهم. ويفيض عليه بالحب الصافي الذي كان الهدف الوحيد منه –وفقا لسقراط- هو زراعة الكمال الأخلاقي في المحبوب.•

لم يتفق العلماء المتخصصون في العصر الكلاسيكي على أصل الغلمانية في أثينا القديمة. رغم إجماع الغالبية على أن تلك عادة تم استيرادها من ولاية اسبرطة المجاورة. حيث شاعت بفضل المؤسسة العسكرية والفصل بين الجنسين. في الواقع –إذا كان الأمر كذلك- لم تكن ثمة حاجة لاستيراد أكثر من بذرة الفكرة

• عادة الغلمانية الإغريقية سوف تبعث من جديد في القرن العاشر الميلادي على يد الرهبان البوذيين في اليابان. والذين شجعوا نفس العلاقة بين المعلم والتلميذ. حيث يلعب الراهب الكبير دور المعلم والحارس. ويرد الصغير بالحب والإخلاص. كما قامت طبقة المحاربين بنفس الشيء وإن بصورة أقل في عصور لاحقة. وختمت العلاقة بقسم الإخلاص مدى الحياة. مع ذلك فبحلول القرن السابع عشر كان الشكل الكلاسيكي من الغلمانية قد تنحى مفسحا الطريق لمثلية البالغين. والتي أصبحت شائعة على نطاق واسع في المسرح الياباني المكون من رجال فقط.

حيث كان البناء السياسى والاجتماعى لأثينا يسمح بانتشار سريع لأى موضة جديدة بين الطبقات العليا. من السهل أن ننسى أن الحضارة التى سيكون لها هذا التأثير العميق والمستمر على الثقافة الغربية التالية لها برمتها قد خلقت وناات الخلود بعدد سكان أقل من أولئك الذين يسكنون نيوبورت أو رود آيلاند أو مدينة كانتربرى الكاتدرائية اليوم. كان فى أثينا جاليات أجنبية وعبيد. لكن عدد المواطنين المعتمدين الذين وضعوا أسس تطور الدولة لم يتجاوز ثلاثين ألفا. حتى القرن الرابع قبل الميلاد عندما سادت حالة من السبات السياسى كان كل مواطن ذكر لديه الوقت يمارس حقه فى حضور المجلس Assembly والتحدث فى الأوضاع الجارية. وكان يجرى انتخاب لجنة عاملة من خمسمائة فرد بالاقتراع السرى كل عام. وعندما يجىء وقت إقرار العدالة كانت هناك لجنة للمحلفين (يتراوح عددها بين ١٠١ و١٠٠١ محلفا بحسب أهمية القضية) للقيام بالأمر. كان واجب المشاركة فى شؤون السياسة Polis عزيزا جدا على قلب الأثينى. وكان مستعدا أن يتخلى عن عدد كبير من أوجه الرفاهية التى قد يتمتع بها كى يُتاح له الوقت لإنجاز واجبه. ليس ذلك لإرضاء نفسه فقط وإنما لأنه كان يولى أهمية عظمى لنظرات الرجال الآخرين لسلوكه. وكما قال أحد المؤرخين كان الأثينى طموحا ومحبا للتقليد فى آن.[٣] فى مثل هذا المجتمع الصغير المتنافس حيث يعرف الناس –شكلا على الأقل– كل رجل ذو حيثية، كان يكفى أن يُشاهد مواطن واحد أو اثنان من ذوى المكانة بصحبة تلميذ صغير ووسيم حتى تكتسب تلك العادة انتشارا واسعا. ويمكن أن يصبح ذلك مفيدا لكلا الطرفين. فكلما ازداد جمال التلميذ وارتفع ذكاؤه تعاظم الإطراء الضمنى الذى يناله الرجل الذى اختاره الصبى مدرسا. وبالمثل، كلما كان الرجل أكثر تميزا، كلما تعاظم الإطراء الضمنى للصبى الذى كان الرجل مستعدا لقبوله كتلميذ لديه. كان التفاخر إذن يعمل فى كلا الاتجاهين.

كذلك امتد الخلاف بين العلماء إلى مسألة ما إذا كانت الغلمانية الإغريقية قد تضمنت الحب العقلى فقط أم الجسدى أيضا. أولئك الذين يتبنون نظرة الكتاب المقدس للمثلية الجنسية يفضلون الاعتقاد أن الحب كان حبا عقليا. وأن مقولات الفلاسفة الصريحة يجب أن تفهم بمعنى مجازى. وذلك جدل يصعب أحيانا الاستمرار فيه. إذ نجد –مثلا– واقعة وصول تلميذ سقراط الصغير ألسيبياديس إلى حفل عشاء ليكتشف أن معلمه يجلس بأريحية على الأريكة بجوار مضيفه.

قال الشاب فى ضيق "آه نعم! لديك استعداد أن تقلب السماء على الأرض كى تجلس بجوار أجمل شخص فى الغرفة."

انزعج سقراط واستدار لمضيفه قائلا "إن حبى لهذا الرفيق يوقعنى دوما فى المشاكل. منذ أن وقعت فى غرامه لم يسمح لى حتى بالنظر إلى صبى جميل. لا أقول بالكلام معه. تنتابه الغيرة على الفور.... أخاف أن يأتى يوم ويحاول بجدية النيل منى." (٤)

ذلك الجزء من الحوار العادى لا يدع مجالا كبيرا للتأويل المجازى. بل ولا يعنى ذلك الحدث أن المعلم نفسه ملوث بالشهوانية. إذ أن ألسيبيادس يعلن أنه عندما حاول الدخول فى الفراش مع سقراط ووضع ذراعيه حوله "لم تكن لأكثر جهودى براعة قيمة سوى أنها زادت من انتصاره.... لقد احتقر زهرة جمالى. سخر منها. وأهانها." (٥) إذا كان سقراط يحاول إثبات فكرة ثقافية فمن الواضح أنه كان مستعدا لأن يذهب بعيدا من أجل ذلك.

فى الواقع أن المثير فى تلك القصة هو النبرة الجنسية العادية فى المحادثة والصراحة التى يصف بها ألسيبيادس محاولته لإغواء معلمه. يتضح أنه لم تكن هناك وصمة عار فيما قد ينظر إليه الكثيرون اليوم باعتباره غلمانية جسدية. أما أصدقاء سقراط فقد نظروا إلى تلك الحادثة بهدوء على أنها موضوع عادى من موضوعات النقاش.

سقراط مع ذلك كان مدرسا شفويا لم يكتب شيئا. وكل ما عرف عنه مرّ من خلال مصفاة عقول مؤلفين آخرين. ومعظمه جاء من خلال محاورات Symposia • نقلها كتاب مثل زينوفون وأفلاطون وأثيناويوس. كُتب من الحوارات التى تدور على موائد الطعام، تحوى كمًا من النميمة بقدر ما تحوى من الحقائق. بعض القصص بالتأكيد مشكوك فى صحتها. يقول أنصار مدرسة "الحب الثقافى" إن سقراط أدان على الملأ الحب الشهوانى. وإن أفلاطون لم يدعُ لأى نوع من الحب بخلاف حب العقل. وأن أرسطو كان يؤمن أن الغلمانية ضرب من الفساد الأخلاقى.

• تعنى كلمة Symposia حرفيا حفلات الشراب الإغريقية التى كانت تدار خلالها محاورات ثقافية (المترجم)

المعارضون –المتحررون من تطبيق المقاييس الأخلاقية اليهودية المسيحية على مجتمع لم يسمع بها أبدا– يعتبرون أن تحويل الجنس إلى شيء ثقافي محض أمر غير محتمل في أفضل الأحوال. فالمجتمع الأثيني لم يكن بأي صورة من الصور محصنا ضد ما هو جسدي. بل ولابد أن الانفعالات الجسدية كانت تنال التشجيع من خلال السلوك العام . إذ كان فتيان أثينا يلتقون في النوادي الرياضية Gymnasia* حيث يمارسون المصارعة والجري والقفز ورمي القرص أو الرمح. وكانوا عراة إلا من الزيت على أجسادهم وخيوط رقيقة تلف حول الغلفة على رأس القضيب كنوع من الحماية (وربما أيضا كدعوة مبطنة للآخرين). ربما كان الفتيان أنفسهم مادة خصبة. فالمثلية الجنسية بين المراهقين ظاهرة معتادة حتى في المجتمعات التي تضم عددا كبيرا من الجواري والعاهرات يحللن محل بنات المواطنين المحترمين المدججين بالحرس. وقد حاولت معظم المجتمعات تجاهل الظاهرة أو قمعها. وحدهم الإغريق والمايا في القرن الخامس عشر في يوكاتان نجحوا في قبولها ضمن مؤسسات اجتماعية.

ربما كانت الغلمانية الإغريقية –مثل الخيال القروسطي عن الحب العذري – واحدة من تلك الأفكار الرومانسية النموذجية النقية نظريا لكنها تصير أقل نقاء عند التطبيق العملي. حتى أفلاطون أقر أن تلك العلاقات تنطوي على كم معين من المشاعر الفياضة. وكتب عن أدعية وتوسلات دعم بها العشاق محاولاتهم للتقرب. كتب عن "الأيمان التي حلفوها. والليالي التي قضوها على أعتاب المحبوب. والعبودية التي تحملوها من أجله."[٤] أما أرسطو فقد سخر منها. إذ نجد في كتاب "الطيور" إحدى شخصياته تشكو للأخرى "حسنا. إنها علاقة رقيقة أيها اليائس الملعون! تقابل ابني لدى خروجه من صالة الرياضة.. للتو بعد حمامه منتعشا . لا تقبّله. لا تقل له كلمة. لا تحتضنه. لا تتحسس خصيتيه! ورغم كل ذلك تدّعي أنك صديقنا !"[٥] وسوفوكليس اختار –لسبب غامض– أن يواجه أوديب قدره المظلم لأن لعنة ألقيت على والده بعد أن وقع في حب صبي وسيم. لكن أحدا لا يعلم أفضل من سوفوكليس أن الغلمانية لم تكن جريمة. ولا كانت المأساة هي نهاياتها الحتمية في أيامه. ولو تعامل مع الموضوع بهزلية لكان ذلك أقرب للواقع.[٦]

---

* يعود أصل كلمة Gymnasium لكلمة Gymnos الإغريقية والتي تعني عاريا

ربما كانت الصعوبة الأساسية فى تحديد ماهية الغلمانية تكمن فى استحالة تمييز علاقة "المدرس- التلميذ" الحقيقية من تلك المزيفة. ربما كانت علاقة الفيلسوف الحقيقى بتلميذه أشبه بتلك التى ميزت عددا من مدارس الحب العذرى على مدار التاريخ. وخاصة (على مستوى علمانى) بين العرب فى القرون الوسطى (انظر ص ٢٢١). لكنه ظهر بشكل أكبر بين جماعات إحياء الدين. أن يتسامى الجسدى ليصل إلى الروحى. مع ذلك فالأدلة التى توفرها لنا الرسومات المنقوشة على المزهريات الإغريقية ترجح أن كثيرا من الأثينيين نظروا إلى الأمر نظرة ساخرة.

فى رسومات المزهريات وباستثناءات قليلة للغاية تُعرض العلاقات المثلية بطريقة من اثنتين. فهناك عدد من الأمثلة للجماع الشرجى. وفيه يكون الشريكان من نفس المرحلة العمرية. وقد شرح طبيب إغريقى أن بعض الرجال يستمتعون بذلك لأن المتعة الجنسية تعتمد على احتكاك ذلك الجزء من الجسد الذى يفرز فيه السائل المنوى. وبسبب عيب خلقى فإن السائل المنوى لديهم يُفرز فى المستقيم[٩]. لكن فى معظم الأحوال تصور المزهريات وضع الالتصاق الفخذى. أى إيلاج قضيب أحد الشريكين بين فخذى الآخر. وعادة يصور الشريك الأكبر وهو يتخذ الخطوة الأولى. إذ يقف محنى الرأس والكتفين بشكل يعطى الانطباع أنه يتضرع ويتوسل فى آن. على العكس نجد الشريك الأصغر يقف مستقيما ومنتصبا وأحيانا يظهر وهو يصد الأكبر[١٠]. لم تعد المسألة إذن مسألة المدرس المتميز والتلميذ المعجب هنا. ومالم تكن كافة المزهريات قد زُينت على أيدى شباب مغرر فالتفسير الوحيد المتبقى هو أن رسامى المزهريات نظروا إلى هواية الغلمانية لدى الطبقة العليا نفس النظرة التى نظرتها الأجيال اللاحقة للرجال المسنين الذين يطاردون محبوبين (من الجنسين) يصغرونهم بعدة بأعوام.

لكن على الرغم من أن الأثينى العادى ربما لم يبد حماسا كبيرا للغلمانيين. فهو غالبا ما أعجب بهم عن بعد فى الساحة السياسية أو العسكرية. كانت هناك موجة من الاغتيالات فى العصور الكلاسيكية: أرشيلاوس المقدونى. اسكندر الفيلايى، ريندار الأمبراشى. وهيبارتشوس الأثينى. قتلوا جميعا على يد صبية لهم حظ وافر من الجمال أقاموا معهم علاقات غلمانية أو -فى الحالة الأخيرة- رفضوا إقامتها. ربما لم تكن دوافعهم نزيهة. ولكن لأن من ماتوا كانوا طغاة اكتسبت الغلمانية صبغة الشجاعة السياسية. ونالت سمعة حب الحرية. وهى سمعة لم تكن سيئة فى عيون الأثينيين. وفيما يخص الشجاعة أيضا كانت

الغلمانية محل إعجاب. ففى اسبرطة وفى جزيرة يوبويا الإغريقية وفى مدينة طيبة البيوتانية. كانت تُقرن مباشرة بالانتصار فى الحرب. وكما قال أفلاطون (رغم تحيزه) فإن "حفنة من المحبين والمحبوبين. يقاتلون كتفا بكتف، قد يهزمون جيشا كاملا، إذ أن المحب لن يحتمل أن يراه حبيبه يتخلى عن موقعه أو يلقى بسلاحه. سيفضل أن يموت ألف مرة على أن يهان بتلك الطريقة.... وأجبن الجبناء سينزل عليه وحى إله الحب فى تلك اللحظات ليثبت لنفسه أنه ليس أقل من أى رجل شجاع بطبيعته."[١١] "الكتيبة المقدسة" الشهيرة المدافعة عن طيبة كانت تتألف من أزواج من العشاق. بعد ثلاثة وثلاثين عاما من المجد سقطت طيبة أخيرا فى موقعة شايرونيا. لكن تحقيق ذلك تطلب تحالف قوى فيليب المقدونى والأسكندر المقدونى. وخلال المعركة مات ثلاثمائة وهم كافة المحاربين أو أصيبوا إصابات قاتلة.

كانت تلك هى المستويات المقبولة من الغلمانية. المستويات التى يتفهمها – ويوافق عليها أحيانا– حتى أولئك الذين لم يمارسوها. لكن كانت هناك أنواع أقل احتراما.

ربما بدا الأدباء أصدقاء أجاثون–شاعر المآسي– متسامحين عندما حياهم وهو يرتدى ملابس امرأة بفستان طويل. وتونيك• وعباءة زعفرانية اللون. وشدادة صدر. وشبكة شعر• وحذاء مفتوحا برباط يصل لمنتصف الساق. لكن الشيء نفسه كان مستهجنا عندما يفعله فتيان الدعارة. يتسكعون فى الشوارع بملابس أنثوية ومساحيق تجميل حتى قال عنهم المثل الأثينى "إن إخفاء خمسة أفيال تحت إبطك" أسهل من إخفاء أحد هؤلاء الفتيان. كان يمكن تأجير هؤلاء الفتيان بالساعة. أو بالتعاقد. وكانت هناك حالة عرضت أمام المحاكم لصبى اسمه ثيودوتوس. اتهم أحد عشاقه عاشقا آخر بالانتهاك العمدى لجسد الشاب. وهى الجريمة التى كان يعاقب عليها القانون فى ذلك الوقت (بداية القرن الرابع قبل الميلاد) بالنفى ومصادرة الأموال[١٢]. ذلك النوع من الغيرة ربما لم يكن غريبا بين زبائن بيوت دعارة الفتيان.

كان هناك عدد كبير من التشريعات التى حددت علاقة الرجل بالصبى. فى بداية القرن السادس قبل الميلاد. فقد فرض سولون المشرّع — وهو نفسه غلماني–

• تونيك: رداء اغريقى طويل يشد بحزام حول الخصر (المترجم)

• شبكة شعر: شبكة رفيعة للغاية توضع على الشعر لتثبيته. (المترجم)

عقوبة الإعدام على أى بالغ يدخل مقرات مدرسة (حيث يدرس الصبية دون سن البلوغ) دون تصريح. ذلك العقاب يرجح أن الغلمانية بمفهومها الحديث لم تكن غريبة. كذلك حَرّم سولون على العبد أن يقيم علاقة مع صبى وُلد حُراً. وهو أمر غير محتمل أصلا فى حالة الغلمانية القائمة على العلاقة التربوية الحقيقية. ولكنها تظل مؤشرا على أن النوع غير التعليمى من الغلمانية ربما كان فى ازدياد. بالإضافة إلى ذلك فإن أى رجل يحرض صبيا حُرا على أن يعرض مفاتنه بشكل احترافى كان يتعرض للحرمان من الحقوق المدنية مدى الحياة.[١٣] مع ذلك كان الانطباع العام الذى نقلته مصادر أثينية إجمالا هو أن معظم الجرائم الغلمانية — مثلها مثل إيقاف السيارة "صف ثان" اليوم- كانت غير قانونية فقط بالنسبة لأولئك التعساء الذين يُلقى القبض عليهم.

القرنان اللذان سادت فيهما موضة الغلمانية كانا أفضل فترات الإنجازات الكلاسيكية. لكن العلاقة بين الأمرين (إن وجدت) تظل غامضة. إذا كان المجتمع قد كَبت المثلية الجنسية فربما يقال أن فخامة الفن والعمارة الأثينية كانت نوعا من التعويض السامى. لكن الأمر لم يكن كذلك. كذلك لن يكون صحيحا أن نقول إن المثلى جنسيا- الذى عاش حياة مفتوحة- قد عبر عن حرية روحه بصب موهبته الإبداعية فى رسومات وأعمال نحت وبناء عظيمة. على سبيل المثال نجد أن البارثينون بنى على يد آلاف المقاولين وهم رجال عاديون. حرفيون كادحون لم يعرفوا شُيّد عن الدوائر الثقافية التى شاعت فيها الغلمانية. وكثير منهم كانوا أجانب. مواطن واحد يساعده عبد واحد تعاقد على أن يأتى بعشر عربات محملة بالرخام من بينتيليكوس. وآخر مع اثنين من الموظفين الأثينيين وثلاثة عبيد كان مسؤولا عن زخرفة عمود واحد. لا أحد يعرف الكثير عن الحياة الشخصية للرجال الذين كانوا مسؤولين عن التصميم العام —فيدياس وإكتينوس وكاليكراتيس- لكن إذا كانت طبقتهم الاجتماعية يمكن أن تورد كدليل. فإن الغلمانية الشائعة لم تكن تمثل لهم الكثير. كما أن براكسيتيليس آخر وأعظم فنانى العصر. كان طبيعى الميول بشكل لا يقبل الجدل. إذ كان عشيقا لفيرنى. أشهر محظية فى أيامها والتى كانت موديلا لتحفته أفروديت الكنيدية Aphrodite of Cnidos.

مع ذلك فما يمكن أن نقوله هو أن نمط تفكير الأثينى فى تلك الفترة —الذى تأثر بعمق بالغلمانية التعليمية- كان بالضرورة ليتعاطف مع تلك العلاقة إن كانت قائمة على "المسؤولية الثقافية" أكثر من "الارتباط العضلي". وفى دنيا الفلسفة ما كانت الحضارة الغربية لتصبح بهذا الغنى إن لم يعرف الإغريق الغلمانية. فكما

لاحظ عالم الإنسانيات الأسباني خوسيه أورتيجا جاسيه "يستحيل تحديد مدى اختراق الفكر الأفلاطوني للطبقات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة. إن أكثر الناس عادية في الغرب يستفيدون بشكل دائم من تعبيرات وأفكار ترجع لأفلاطون" أما روبير فلاسيلبير العالم الفرنسي والذي لم يساند الغلمانية فيسجل ملاحظة تقول "لكن نظرية أفلاطون عن الحب كانت ستصبح لها نفس القيمة إذا اتخذ من الميول الجنسية الطبيعية مثالا بدلا من عكسها."[١١٤] مع ذلك فهذا تهرب من الموضوع. فأفلاطون -الذي لم يتزوج أبدا وكانت لديه "صداقات عاطفية" كثيرة على مدار أعوامه الثمانين- ربما لم يكن ليطور نظريته عن الحب من الأساس إن لم تكن لأجل الأجواء الغلمانية في أيامه.

النساء لسن أقل مكانة أبدا

كان سقراط عطوفا حين قال "النساء لسن أقل مكانة من الرجال بأي حال". لكنه أفسد تأثير كلماته لما أضاف "كل ما يحتاجون إليه هو مزيد من القوة الجسدية والقدرة العقلية." مع ذلك فقد كان كريما. إذ أن الإغريق لم ينظروا بإكبار للمرأة. ومع رواج الغلمانية صارت المشاعر متبادلة.

ما هي العلاقة بين الغلمانية والموقف الأثيني من النساء؟ يظل ذلك الأمر محل جدل. إذ يعتبر بعض العلماء مسألة الغلمانية برمتها خارج السياق- وهي رؤية قصيرة النظر تتجاهل حقيقة أن أي توجه واسع الانتشار يؤثر بالضرورة على وجهة النظر تجاه أمور أخرى متعلقة بهذا التوجه. آخرون يقولون إن النساء كن يعاملن باحتقار قبل أن يسمع أحد عن الغلمانية بوقت طويل. فيما يقول فريق ثالث إن النساء الإغريقيات لم يعاملن بهذا الاحتقار على الإطلاق.

معظم الأدلة الأدبية مع ذلك ترجح أن منزلة المرأة كانت أدنى. وتقول إحدى النظريات أن ذلك كان نتيجة لغزوات شعب دوريس الأجلاف الذين توافدوا بأعداد كبيرة على اليونان في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد. لكن تلك الحجة ليست مقنعة بما فيه الكفاية. إذ نالت النساء معاملة أفضل بكثير في الولايات التي سكنها الدوريسيون مقارنة بنساء أثينا. لكن أصحاب هذه النظرية أرادوا التماس عذر للأثينيين على فظاظتهم مع السيدات.

في أثينا لم يكن للنساء حقوق سياسية أو قانونية تزيد عن تلك الممنوحة للعبيد. فعلى مدار حياتهن كن يخضعن خضوعا مطلقا لأقرب أقاربهم من الرجال.

لم يتلقين أى تعليم رسمى. وكان يجب عليهن قضاء جل أوقاتهن فى أجنحة النساء فى بيوتهن. كما كن عرضة للزيجات المرتبة. كانت المرأة نادرا ما تتناول عشاءها مع زوجها- وذلك لا يحدث أبدا فى وجود ضيوف- وفى المناسبات القليلة التى كانت تخرج فيها من الأبواب كانت تصحبها وصيفة. لم يكن مسموح لها قانونا أن تأخذ معها أكثر من ثلاث قطع من الملابس. وطعام وشراب بقيمة أوبول• واحد (ما يوازى ساندويتش وكوب لبن هذه الأيام). وإذا خرجت بعد حلول الظلام عليها أن تخرج فى عربة بفانوس مضاء.[١٦]

لم يكن عاديا أن تتواجد المرأة برفقة أى رجل باستثناء زوجها أو أقربائها. وذكر بلوتارك قصة الحاكم هيرو الذى سخر منه أحد خصومه لأن نفسه كريه الرائحة. فذهب إلى منزله غاضبا وسأل زوجته لماذا لما تخبره. فردت بسذاجة "اعتقدت أن جميع الرجال رائحتهم هكذا."[١٧] كان للزوج كذلك أن يطلق زوجته دونما سبب. بل كان عليه قانونا أن يفعل ذلك إذا نجحت -بمعجزة عبقرية- أن ترتكب الزنا. أما الزوجة فلم يكن يحق لها طلب الطلاق إلا فى حالة تعرضها لمعاملة شديدة القسوة. ولا يشمل ذلك أن يمارس زوجها الغلمانية أو الزنا.•

المدرسة الأخرى ترى أن الأمور لم تكن بهذا السوء. وأنه برغم وجود المعوقات القانونية. فقد كان يحق للنساء الذهاب للمسرح وزيارة استوديوهات النحاتين. بل والتمتع بأجازة بضعة أيام لحضور مهرجان ثيسموفوريا الذى يقتصر على النساء. والذى كان ينظر إليه رجالهم على أنه مناسبة للعديد من الممارسات الفاسقة غير المحددة. وقد شكا يوريبيدس -الذى وصفه سوفوكليس بعدو المرأة فى مأسية وعاشقها فى فراشه[١٨]- من أن النساء "يأتين إلى المنزل للنميمة". ولا يصبحن أقل ثرثرة حتى فى وجود رجال العائلة. وكما قال ممثل الادعاء مذكرا المحلفين فى قضية تتعلق بعاهرة "إذا برأتم ساحة تلك المرأة ماذا ستقولون لزوجاتكم وبناتكم عندما ترجعون البيت؟... ستقولون لهم كافة تفاصيل القضية. وتخبرونهم كيف كانت القضية مؤكدة بأدلة دقيقة وكاملة. وعندما تنتهون سيقلن: وماذا فعلتم؟ وستردون: برأنا ساحتها. وعندها يقع المحظور!"[١٩]

• الأوبول: قطعة نقدية قديمة تساوى نصف دراخما (المترجم)

• فكرة أن الزنا حق للرجال دون النساء استمرت حتى العصر الحالى. مثلا لم تحصل المرأة الإنجليزية على حق تطليق الزوج الزانى قبل عام ١٩٢٣.

مع ذلك فقد بدا أنهم أضافوا عنصرا جديدا للمعادلة. فرغم أنه فى بابل ومصر كانت ثمة نبرة ساخطة متكررة عندما يأتى ذكر جنس الإناث. ورغم أن العبرانيين كرهوا بشدة المغامرات (الزوجات غير المخلصات) والعاهرات حتى القرن الثالث قبل الميلاد. فإن الإغريق أدانوا كافة النساء ووصفوهن بأنهن غير عاقلات وشبقات وقاصرات أخلاقيا. يمكن أن نقول إنهن كن غير عاقلات لأنهن حرمن من التعليم. وشبقات لأنهن كن يشكين من أن أزواجهن لا يضاجعونهن إلا نادرا. وقاصرات أخلاقيا لأنهن ينتقدن رجالهن على تضييع كل ذلك الوقت فى التفلسف داخل المجلس Assembly بدلا من أن يخرجوا بحثا عن الرزق. لم يكن التوافق العائلى من مميزات الإغريق.

كثير من شخصيات المآسى الإغريقية كانت من النساء. كليتمنيسترا التى قتلت زوجها. وميديا التى قطّعت أخيها إلى أجزاء ثم قتلت أطفالها. وفيدرا التى انتحرت بعد أن حنثت باليمين. وإليكترا التى شاركت فى قتل أمها. حتى بطلاتهن كانت لهن أخطاء مأساوية. فالإلهة أفروديت كانت جميلة وساحرة وساقطة. كذلك كانت هيلين الطروادية. أما بينيلوب الوفية–حين كانت تستقبل أوديسيوس زوجها الأقل وفاء لدى عودته من رحلاته– لم يأبه أى إغريقى عاقل لمعاناتها الزوجية عشرين عاما . أما ألسيستيس التى ضحت بنفسها فلم تكن أكثر من ممسحة للأرجل.

الرجل الأثينى لاحظ كل هذا. بالنسبة له كانت ألسيستيس مملة بشكل فائق– عدا كزوجة. فإذا وجد زوجة بتلك المميزات سيعد نفسه محظوظا. هيسيود– الشاعر الريفى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد والذى يضعه الإغريق فى المكانة التالية لهومر– شرح لماذا كان عليه أن يتزوج من الأساس: "من يرفض الزواج ليهرب من البؤس الذى تضفيه علينا النساء. لن يحظى بمن يسنده فى أيام العجز....على جانب آخر من كان قدره أن يتزوج قد يجد زوجة طيبة وعاقلة. ولكن حتى ساعتها فإن ما سيراه فى حياته من شقاء سيزيد عن السعادة." كان العمر الأنسب للزواج هو ثلاثين للرجال والسادسة عشر للفتيات. وبوجه عام كان من الأفضل أن "تشترى امرأة لا أن تتزوجها. بعدها يمكن أن تجعلها تدفع المحراث إذا دعت الحاجة." (٢٠)

أزواج آخرون كانوا غير رومانسيين بنفس الدرجة. فكما أوضح اشوماتشوس باحتقار لزوجته الجديدة بنت الرابعة عشر "كان بإمكاننا بسهولة أن نجد شخصا آخر يشاركنى الفراش. وأنا واثق أنك تدركين ذلك تمام الإدراك. ولكن بعد التفكير

فى الأمر. أنا من جانبى وأبواك من جانبك . وبعد مراجعة كافة المرشحات الممكنات لإدارة المنزل والعناية بالأطفال، اخترتك أنت واختارنى أبواك- بالتأكيد من بين الآخرين الكثيرين ."

نظرة الأثينيين إلى الزوجة الصالحة لم تختلف عن نظرة العبرانيين: على الزوجة أن تكون عفيفة. عاقلة. ماهرة فى الغزل والنسج والخياطة. وقادرة على توزيع العمل على الخدم. وأن تكون مدبرة فى أموال زوجها وممتلكاته. وأن تحمل الأطفال. وتدير البيت بحكمة وفضيلة. وإذا كان ضروريا أن تنجب وريثا بسرعة فمن المفترض أن تضاجع زوجها "على الأقل ثلاث مرات فى الشهر" حتى توضع الأمور فى نصابها.[٢١]

كان الرجل الإغريقى ليتفق تماما مع روديارد كيبلينج لو سمع ما قاله بعد أكثر من ألفى عام: "المرأة ليست سوى امرأة. لكن السيجار الجيد هو متعة التدخين." [٢٢] إن معارضة الإغريقى بوجه عام لكل من النساء والزواج ساعدت على ظهور فائض عددى من النساء غير المتزوجات-ربما لأول مرة فى التاريخ. كان الموقف ليتفاقم مع ارتفاع معدل وفيات الذكور فى الحروب التى انتشرت عبر تاريخ الإغريق ما لم تظهر عادة قتل الأطفال الإناث، والتى ساعدت على إعادة التوازن. فى اسبرطة كان قتل الأطفال الذكور يمارس كذلك. إذ كان الاسبرطيون معنيون بالكيف وليس بالكم فقط. فكان مجتمعهم -وليس اليهود- أول مجتمع ينشغل بتحسين النسل. وكان يجرى فحص رسمى لكافة المواليد الذكور والإناث بعد أيام من ولادتهم. ومن ثم يمكن ترك الضعيف والواهن والمعوق ليموت على منحدرات جبل تايجيتوس.

بداية من منتصف القرن العاشر وحتى نهاية السابع قبل الميلاد كان الأثينيون على وجه الخصوص يعانون من زيادة عددية بسبب اللاجئين الذين توافدوا إلى البلاد نتيجة للغزو الدوريانى•. لكن موجة الاستعمار العابرة للبحار التى بدأت حوالى عام ٧٥٠ ق.م ساعدت فى تقليل الأعداد. مع ذلك فمن الجائز أن انتشار الغلمانية وارتياب الرجال فى النساء كان نتيجة لنوع من المحاولات نصف الواعية لتقليل أعداد السكان إلى مستوى مقبول. فيما بعد لاحظ أرسطو أن الدولة فى كريت كانت تنظم الغلمانية كوسيلة لتحديد عدد السكان.[٢٣] وشجع هو نفسه

• الدوريان: إحدى القبائل الكبرى فى بلاد الإغريق (المترجم)

وضع حد قانوني لحجم الأسرة. ونصح باستخدام زيت الزيتون المخلوط بزيت الأرز. أو مرهم الرصاص أو البخور كوسيلة لمنع الحمل. على أن توضع على "ذلك الجزء من الرحم الذى تسقط فيه البذور". وبعد أكثر من ألفى عام زعمت مارى ستوبيس• أن نتيجة الاختبارات التى أجريت على مستخدمى زيت الزيتون لمنع الحمل أثبتت نجاح تلك الوسيلة بنسبة مائة بالمائة.[٢٤]

يبدو أن الزوجات الأثينيات نادرا ما احتجن لنصيحة بخصوص الإجهاض أو منع الحمل. إذ كانت ممارساتهن مع أزواجهن قليلة وعقيمة غالبا. ربما كان لهن دور فى تفاقم الأمر بطريقة ما. إذ كن يوجهن كافة رغباتهن العاطفية تجاه أبنائهن (إذا كان لديهن أبناء) فكن يؤلهنهم أحيانا ويلعنّهم أحيانا أخرى بطريقة قد يفهمها البالغ ولكن لا يفهمها الطفل.[٢٥] وكنتيجة لذلك شب جيل بعد جيل من الصبية وهم مقتنعون أن النساء لا يمكن توقع تصرفاتهن نهائيا ومن الأفضل تجنبهن ما أمكن.

بلوتارك سخر من الاسبرطيين الذين كان الزواج بالنسبة لهم هو أن يعيش الزوج مع أصدقائه الرجال. ويتسلل -فى مناسبات نادرة وسرية- لزيارة زوجته• أحيانا "كان الزوج يأتى بأطفال دون حتى أن يرى زوجته فى ضوء النهار."[٢٦] لكن الشيء نفسه ربما حدث مع الأثينيين. لم تكن العائلات كبيرة الحجم معروفة تقريبا سواء فى اسبرطة أو أثينا. عدا -ربما- بين الطبقات الفقيرة التى لم يسجل أحد شيئا عن حياتها. فى النهاية كانت مشكلة نقص السكان -وليس زيادتهم- هى التى أسدلت الستار على الحضارة الإغريقية العظيمة.

إرضاء الذات

لم يكن التذمر دائما من شيم النساء المتزوجات. بعضهن -برغم الصعاب- نجحن فى العثور على عزاء فى مكان آخر بمساعدة واحدة من القوادات اللاتى غزون المدينة. لكن الأكثرية لجأن فيما يبدو لحيل أقل خطرا. وهى العادة السرية

• مارى ستوبيس: ناشطة نسوية توفيت عام ١٩٥٨ دعت إلى تنظيم الأسرة. وهناك حاليا مؤسسة باسمها تعمل فى ٤٠ دولة (المترجم)

• حتى بداية القرن العشرين كانت شعوب النيار فى كيرالا على ساحل مالابار فى الهند تفضل كذلك عادة زيارة الأزواج لزوجاتهم فى الليل فقط.[٢٧]

أو المثلية Homosexuality (والتى لم تنحدر بالطبع من الكلمة اللاتينية Homo بمعنى "رجل". وإنما من الكلمة الإغريقية Homos بمعنى "الشيء نفسه".)

لم ينظر الإغريق للعادة السرية على أنها رذيلة. وإنما صمام أمان. وهناك العديد من الإشارات الأدبية لذلك وخاصة فى الكوميديا الأتيكية*. لكن المؤلفين قبل القرن الثالث ق.م كتبوا القليل وعرفوا الأقل عن الحياة الخاصة للنساء. ومعظم الإشارات كانت تخص الرجال. مع ذلك إذا لم تكن النساء قد مارسنها هن الأخريات لكان الباعة فى ميليتوس قد أفلسوا.

كانت ميليتوس مدينة تجارية غنية على ساحل آسيا الصغرى. وكانت مركزا لصناعة وتصدير ما أسماه الإغريق Olisbos. ثم أسمته الأجيال اللاحقة اسما أكثر فجاجة: الذكر الصناعى Dildo. ويعرّف قاموس حديث هذا الشيء بحذر على أنه "بديل تمثيلى للعضو الذكرى." ويبدو أن ذلك الذكر المقلد الذى ظهر فى عصر الإغريق كان يصنع إما من الخشب أو من الجلد المبطن. وكان يجب أن يدهن بزيت الزيتون بسخاء قبل الاستخدام. وفى بعض الآثار الأدبية للقرن الثالث قبل الميلاد ثمة مسرحية قصيرة تتكون من حوار بين شابتين: ميترو وكوريتو. يبدأ بميترو وهى تحاول استعارة الذكر الصناعى من كوريتو. لكن كوريتو لسوء الحظ كانت قد أعارته لأخرى. أعارته بالتالى لصديقة أخرى. وتسأل ميترو المحبطة من أين تستطيع أن تبتاع واحدا. وتنصحها كوريتو باسكافى يدعى سيردون. تقول ميترو "يا خبر!" إنها تعرف اثنين من معلمى المهنة لهما نفس الاسم. ولكن "لا يمكن الوثوق بأى منهما لهذا العمل." لكن حماسة كوريتو فى الكلام عن جمال صنعة ذكرها الصناعى يقنع ميترو التى تخرج لتطلب واحدا لنفسها.[٢٨]

لم يكن الذكر الصناعى يستخدم فقط لإمتاع المرأة الوحيدة. بل أيضا بين النساء المثليات اللاتى كان الإغريق يصفهون (إذا أتوا على ذكرهن أصلا) بالسحاقيات. وقد اعتقد الأثينيون أن السحاق كان منتشرا فى اسبرطة أكثر من أثينا. وسجل بلوتارك أن "فى اسبرطة كان للحب مكانة كبيرة حتى أن أكثر النساء احتراما كن متيمات بفتيات."[٢٩] لكنه لم يلاحظ التشابه الواضح مع الغلمانيين فى أثينا. كذلك كانت جزيرة ليوكاس مشتبه فيها. جزئيا لأن أول

* أتيكية: نسبة إلى إقليم أتيكا الإغريقى الذى كان يضم العاصمة أثينا (المترجم)

كتاب معزز بالرسومات التوضيحية حول أوضاع السحاق شاع أنه كتب بقلم امرأة من الجزيرة هي فيلينيس. لكن ليسبوس Lesbos هي التي كانت تُعَد المركز- تلك الجزيرة الإغريقية "حيث كانت سافو المتوهجة تحب وتغنى."

قليل هو ما عرف عن سافو. أو عن شعرها بالأحرى. والذى كتب بلهجة ليسبوس فلم يفهمه النُسَّاخ والمعلقون الهيلينيون والرومان بشكل كامل. قيل إنها كانت الرئيسة الشهيرة لأكاديمية فتيات (يفترض أن ليسبوس فى ذلك الوقت كانت أكثر تقدما من أثينا فى مسألة تعليم الفتيات). وكانت شاعرة رفيعة المكانة حتى أن معاصريها أطلقوا عليها "ربة الشعر العاشرة•" ويبدو أن اختيار بيرون للفظة "المتوهجة" كان دقيقا. فالمقاطع التى وصلت إلينا من شعرها -ومعظمها موجهة لواحدة أو أكثر من تلميذاتها- ترتعش بحب. لا يمكن أن نطلق عليه حبا عقليا. وترجمة تلك المقاطع عملية مستحيلة تقريبا. ففى الترجمة الموزونة كانت تبدو مثل قصيدة سيئة لتينيسون• Tynesson. وفى النثر أفضل قليلا: "ارجعى. أتوسل إليك. مكسوة بردائك الأبيض كالحليب. آه..أى رغبة عاصفة تصاحب هيئتك الجميلة. لا يسع امرأة إلا أن ترتعد من غوايتها."

يعتقد بعض العلماء المحدثين أن حب "ربة الشعر العاشرة" وشعرها كان روحانيا خالصا، لكن أولئك الذين تمكنوا من قراءة أعمالها الكاملة لم يظل لديهم شك بشأن شخصيتها الشهوانية. أبوليوس -الذى كان يعرف ما يتكلم عنه- وصف أعمالها "بالحسية" و"الشهوانية" ووصفها أوفيد بأنها مقرر دراسى كامل فى مثلية النساء. لكن سواء كانت سافو سحاقية أم لا. فمع مرور الوقت بدأ اسمها واسم الجزيرة التى عاشت فيها يتخذان معان خاصة. ولم يمر وقت طويل قبل أن يتخلى الإغريق عن مفردة Tribadism للإشارة إلى السحاق؛ ويتحدثوا عن "الحب الليسبوسى •Lesbian Love" بدلا منه.

• ربات الشعر: تسع إلهات شقيقات يحمين الشعر والغناء والعلوم (المترجم)

• ألفريد تينيسون: أحد أشهر الشعراء الإنجليز فى القرن التاسع عشر (المترجم)

• أصبحت كلمة Lesbian تعنى "سحاقية" فى اللغة الإنجليزية المعاصرة. (المترجم)

"لدينا محظيات لتحقيق متعتنا الشخصية، وخليلات لتلبية حاجاتنا اليومية، وزوجات يلدن لنا أطفالا شرعيين ويعتنين بالمنزل." [٣٠]

خلال النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد و-بقناعة أكبر- فى القرن الثالث بدا الرجال الأثينيون إعادة اكتشاف اهتمامهم بالمرأة، وإن لم يشمل ذلك الزوجات. إذ لم يرغبوا بعد فى الحياة الأسرية. كان التوجه الأقل نفورا من المرأة يرجع لأسباب من بينها اتساع الأفق نتيجة لانتصارات الأسكندر الأكبر عبر البحار. وكذلك تراجع النشاط السياسى وزيادة الثروة وهو ما يعنى أن الرجال أصبح لديهم كل من الوقت والمال اللازم. وقد تجلى ذلك فى الفن. فمن قبل كانت تماثيل الرجال عارية عادة. فيما كانت تماثيل النساء مكسوة. الآن بدأ الستار يسقط عن تماثيل النساء. كذلك تجلى فى المسرح. فقد كانت الكوميديا القديمة متأثرة بالسياسة بشكل كبير، أما فى الجديدة فصار الحب الرومانسى بين رجل وامرأة مقبولا. على الرغم من أن الأدوار النسائية مازالت تُسند لفتيان. يرتدون فى مشاهد العرى ملابس ضيقة ملتصقة بأجسامهم ومئزرا يغطى الثديين والوسط. لكن ذلك الحب تجلى -فوق كل شىء- فى أرباح العاهرات. كانت خادمات أفروديت فى انشغال دائم حتى أن واحدة من أشهرهن تدعى ميتيتش نالت لقب كليبسيدرا Clepsydra لأنها كانت تستخدم الساعة المائية Klepsudra فى حساب طول زيارات زبائنها. [٣١]

السريّات ذات المكانة العليا فى تلك الأيام كن المحظيات Hetairai. جميلات وموهوبات وذكيات، بل ويفهمن عادة فى الأدب الكلاسيكى مثلما يفهمن فى حسابات الربح والخسارة. أبدا لم تعتمد جاذبية المحظية الحقيقية اعتمادا كليا على جاذبيتها الجسدية، والمثال التقليدى من التاريخ التالى هو "مدام دى بومبادور" التى كانت محظية لويس الخامس عشر ملك فرنسا لخمسة أعوام فحسب، ولكنها نالت نفوذا سياسيا فائقا لخمسة عشر عاما بعد ذلك. ما أعجب الرجال الأثينيين فى المحظيات هو أنهن تفوقن فى كافة الأشياء التى حرم نفس الرجال زوجاتهم من تعلمها. لم يُسمح للزوجات- مثلما سمح للمحظيات- أن يشاركن الرجال على موائد العشاء حيث كان يمكن أن يلتقطن نذرا من الثقافة والشؤون العامة يسمح لهن بالاشتراك فى محادثة ذكية. لقد كبرن على "الأطفال

والمطبخ والدين•" فيما تدربت المحظيات ذوات الأصل الوضيع منذ طفولتهن على الفنون الاجتماعية. والغالبية العظمى من الزوجات لم تعرف عن الحب أكثر مما علمهن أزواجهن الذين اهتموا بالمنتج النهائى للمصنع —الأبناء—أكثر من رضاء العامل. لم يكن لهن أن يأملن فى المنافسة. إذ كان لدى المحظيات على مدار التاريخ وقت فراغ أطول من الزوجات.

كانت المحظيات نساء ناجحات فى عالم الرجل. وأحيانا كان نجاحهن باهرا. ثارجيليا الأيونية التى اشتهرت مبكرا فى القرن السادس قبل الميلاد قيل إنها كانت تعمل كعميل سرى لحساب الإمبراطور الفارسى سايروس الأكبر. بمقدرة عالية على الإقناع أخذت تستهدف عقول محبيها المتميزين وأجسادهم. حتى عرضوا أن يسلموا أونيا بسلام للسيطرة الفارسية• . وواحدة أخرى —تايس الأثينية— كانت محظية الاسكندر الأكبر ويبدو أنها كانت مسؤولة عن إحراق برسيبوليس. وقد تزوجت فيما بعد من بطليموس الأول وأصبحت ملكة مصر. وواحدة من أعظمهن على الإطلاق كانت أسباسيا التى نظمت صالونا أدبيا وسياسيا فى أثينا. وكان يتردد عليها معظم الرجال الكبار فى ذلك الوقت. ولأجلها هجر بريكليس• زوجته وأطفاله. ويعتقد أنها كانت مسؤولة بشكل مباشر عن إعلان أثينا الحرب على ساموس.[٣٢]

عندما تعاظم نفوذ المحظيات بشكل زائد عن الحد قام الأثينيون باحتجاج صاخب على تأثير النساء فى عالم السياسة. لكن النقد كان ينصب لمعظم الوقت على ظمأهن الذى لا يرتوى للمال. ويضم كتاب محاورات المحظيات Dialogues of Courtesans للوسيان حوارا بين بحار تعَرض للفلس ومحظيته السابقة. والتى استبدلته بتاجر غنى من بيثينيا. يقول البحار "كل شىء كان على ما يرام عندما كنت قادرا على منحك هدايا جميلة." وتوافق ميرتيل بتعاطف زائف على تصفية الحساب.

• بالألمانية فى الأصل Kinder، Kuche، and Kirche (المترجم)

• بين ثارجيليا وماتا هاريس وكريستين كيليرز من القرن العشرين هناك قائمة طويلة من المحظيات اللاتى اشتركن بشكل هامشى أو عميق فى جمع المعلومات الاستخباراتية. فى أوائل القرن التاسع عشر بوجه خاص نظمت فوشيه فى فرنسا ومينيرنيش فى النمسا شبكات من العاهرات لإرشاد الشرطة.

• بريكليس: أحد قادة أثينا البارزين فى عصرها الذهبى فى القرن الخامس قبل الميلاد (المترجم)

دوريون: أولا زوجان من أحذية سيسيون- دراخماتان. ضعى دراخماتان.

ميرتيل: ولكنك قضيت ليلتين معى مقابل ذلك.

دوريون: ثم عدت من سوريا وجلبت لك زجاجة عطر من المرمر. وهى ثانية- يالآلهة!- كلفتنى دراخماتين.

ميرتيل: ولكن قبل أن تركب البحر أعطيتك أجمل قميص... ذلك الذى تركه الرفيق الثانى هنا بعد أن قضى الليلة معى.

دوريون: هذا صحيح تماما... ثم جئت لك ببصل من قبرص. وخمسة سمكات رنجة. وأربعة أفراخ. وثمانية من بسكويتات البحر• فى سلال صغيرة من الأغصان المجدولة. وصندل برباط ذهبى يا ناكرة الجميل. أوه! وقطعة كبيرة من الجبن.

ميرتيل: أى نحو خمسة دراخمات إجمالا. ربما....

دوريون: لكن رجلك البيثينى هذا لم يشتر حتى رأس ثوم لأمك! أود كثيرا أن أعرف ماذا أخذت منه!

لسوء حظ دوريون. كان البيثينى قد دفع لها الإيجار وجاء لها بلآلئ وحلقان وسجادة وكم لا بأس به من المال. إنها متجهة لأعلى فى ذلك العالم وتعرف قيمة الممتلكات المادية. كل المحظيات كن يعرفن أن جاذبيتهن لن تبقى للأبد. وأن المال هو الشىء الوحيد الذى سينفعهن. وكما قالت فيلومينا —المحظية التى ربما كانت شخصية واقعية أو خيالية- بنبرة عملية فى خطاب لحبيبها "لماذا تزعج نفسك بكتابة الخطابات الطويلة؟ أريد خمسين قطعة ذهبية وليس خطابات. إذا كنت تحبنى ادفع. إذا كنت تحب نقودك أكثر فلا تضايقنى أكثر من ذلك. وداعا!" (٣٣)

بعضهن فى أوج أيامهن جمعن ما يكفى من نقود للقيام بأعمال جليلة. فقد أعادت ليا الأثينية معرض صور متهدم لشعب سيسيون قرب كورينث. فيما اشتهر عن رادوبيس- الثراسيانية التى عملت فى مصر- أنها شيدت هرما كاملا على نفقتها. (٣٤)

أسفل المحظيات على السلم الاجتماعى تأتى السريات Concubine اللاتى لم يعرف عنهن الكثير. فى العصور الكلاسيكية بدا أن عادة الاحتفاظ

• بسكويت البحر: بسكويت قاس يأكله البحارة (المترجم)

بالسريات كزوجات ثانويات قد تراجعت أمام المنافسة الشرسة من الصبُية الحسان، والمحظيات الماهرات، وفتيات الدعارة الرخيصات والجاهزات. لم يكن وضع السرية بأى حال وضعا سعيدا. إذ لم يكن لديها لا استقلال المحظية ولا الحماية القانونية النظرية المتوفرة للزوجة. وإذا سئم سيدها منها فبإمكانه بيعها- لماخور إذا أراد.[٣٥]

دون إحساس بالزمن والأوان. وضع سولون أساس أول المواخير الأثينية ورعاها فى بداية القرن السادس قبل الميلاد. بدت التجارة بطيئة فى بدايتها. لكن بحلول القرن الرابع قبل الميلاد أخذت فى الانتعاش. أصبحت الفتيات الآن يقفن صفا خارج المقرات. "بصدور عارية وأردية رقيقة شفافة.... بإمكان أى رجل أن يختار من تعجبه-النحيفة، السمينة، الريانة، الطويلة الهزيلة، المحنية، الصغيرة، الكبيرة، المتوسطة، الناضجة.... يسحبنك إلى داخل المنزل شئت أم أبيت. ويدعونك "بابا" إذا كنت رجلا كبيرا أو "أخى الأصغر" أو "صديقى الصغير". وبإمكانك أن تنال أيا منهن مقابل قليل من المال دون أدنى مجازفة."[٣٦] والأجر يشمل مكافأة شرفية تتراوح من أوبول واحد إلى دينار (النسبة: من نصف سنت إلى دولار. أو من نصف بنس إلى جنيه استرلينى). على حسب وضع المنزل والخدمات المطلوبة. ويدفع أصحاب الماخور ضريبة سنوية للدولة.

كذلك كانت هناك بنات الشوارع. وقد ابتكرن تقنية جديدة لاجتذاب الزبائن نجحت بشكل كبير فى الطرق غير المعبدة. إذ وصل إلينا عبر القرون صندل إحدى بنات الشوارع. كانت هناك رسالة منقوشة بالمعكوس على النعل بحيث تنطبع على الطريق فيقرأها العابر التالى. كانت الرسالة بالطبع هى "اتبعني".

انتعشت الدعارة بوجه خاص فى البلدات التى تمثل نقطة عبور للمسافرين. كورنيث على سبيل المثال بميناءيها وتجارتها البحرية النشطة كانت تعج بفتيات المواخير وبنات الشوارع المستعدات لخدمة البحارة على الشاطئ. كذلك قيل أن معبد أفروديت بالمدينة كان يضم أكثر من ألف محظية مخصصة لخدمة الإلهة (وعبّادها).

ذلك التخصص لم تختره الفتيات بأنفسهن وإنما الرجال الذين يحاولون مقايضة الآلهة. تعهد "الرياضى التقى" زينوفون من كورنيث أن يمنح أفروديت فريقا من العاهرات إذا فاز بسباقى العدو والخماسى فى أوليمبيا. وقد فاز، واستفادت الإلهة بمائة وصيفة جديدة. كن يلعبن دورا فى الدين والحب فى الوقت نفسه. وعندما كان خطر (الإمبراطور الفارسى) زيركسيس يهدد اليونان كان

معبد المحظيات فى كورنيث هو الذى قدم صلوات الأمة وتضحياتها. هناك بلا شك درس مستفاد فى حقيقة أن زيركسيس قد اندحر.

لم يدَع أحد أبدا —وخاصة المحظيات أنفسهن— أن البنات العلمانيات فى جمعية الأخوات تلك كان لهن أى هدف فى الحياة بخلاف الحصول على أكبر قدر من المكاسب بأجسادهن. مع ذلك فقد كن—فى الواقع—رائدات. أول فريق من النساء فى التاريخ المدون يحقق انفراجة فى العلاقة مع الرجال. كانت كاهنات ناديتو فى بابل مرغوبات لرجاحة عقولهن. والعاهرات فى كل مكان لجمال أجسادهن. لكن محظيات الإغريق كن يُمتدحن للميزتين معا.

من عجائب القدر أن نجاحهن قد شجع الزوجات —وليس المحظيات— فى روما التى سيطر عليها الإغريق أن يسرعن فى الحصول على حريتهن. مع ذلك فالنساء الرومانيات —بعد أن واجهن نفس الكراهية من الرجال التى تجاوزتها المحظيات فى أثينا— لم يكنَّ مستعدات لاستخدام الوسائل المداهنة ذاتها لتحقيق هدفهن. بل اخترن أن يشعلن حربا. كان تأثيرها غير مباشر. ولكن كانت عواقبها غير محمودة على مستقبل الإمبراطورية الرومانية ككل.

٥- روما

قال الشاعر جوفينال فى بداية القرن الثانى الميلادى إن العفة فضيلة نادرا ما وجدت فى روما منذ العصر الذهبى. وكان يعنى-باعتباره رواقيا• - ذلك العصر القديم القاسى والبسيط. عندما كان يكفى كهف واحد بارد لإيواء الرومانى الأول "آكل جوز البلوط" مع آلهته. وحيواناته. و"أطفاله العمالقة". و"زوجته الخشنة الآتية من الأراضى المرتفعة."[١]

كل يغنى على ليلاه. بالتأكيد فى العصر الذى نظر فيه جوفينال إلى امرأة روما الإمبراطورية بعين حاقدة لم تكن العفة واحدة من أبرز صفاتها. لكن حتى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل عاشت الغالبية العظمى منهن حياة مستقيمة لا تشوبها شائبة.

بداية. كان الرومان جنسا من الرعاة. تأثروا بالاتروسكان• وعن طريقهم بحضارة الإغريق وحضارة قرطاج. لم يكونوا شعبا عابثا. عندما بدؤوا بعد ذلك فى تمثل أخلاق الأسلاف Mores Maiorum كانوا يتحدثون عن الواجب والإخلاص، قوة الشكيمة . النظام. المثابرة. الاعتدال. الاقتصاد فى الإنفاق. والعقلانية. وهم يؤمنون بمفاهيم مثل: Pietas (التقوى) Officium (الواجب) Constantia (العزيمة) Virtus (الفضيلة) Gravitas (الاتزان). تلك المفاهيم التى تمثل قمة الأخلاق. كان التفانى جزءا لا يتجزأ من كيانهم. وكذا الرغبة العمياء فى التملك التى شملت الأرض والعائلة دون تمييز. عندما عرض الخطباء صورة السيدة الرومانية الشريفة فى عصر الجمهورية القديمة كنموذج على النبل والفضيلة لم يلتفتوا إلى أن تمسكها بالفضيلة لم يكن نوعا من التضحية بالنفس فحسب. وإنما محاولة للحفاظ على النفس كذلك. فحتى نهاية

• الرواقية: فلسفة تدعو للتحكم فى النفس والسيطرة على المشاعر والرغبات (المترجم)

• الاتروسكان: حضارة إيطالية قديمة (المترجم)

القرن الأول قبل الميلاد كان يحق للزوج قانونا أن يقتل زوجته إذا فاجأها وهى تمارس الزنا.* وفى بعض الحالات كان يُحكم عليها بالإعدام حتى لو لم تكن متلبسة بالجريمة. أما إذا شربت أكثر من جرعة نبيذ فكان ذلك يعد دليلا على انحلال أخلاقى وجنسى يمكن أن يعرضها للطلاق. كما كان "السلوك المنحرف والمقزز" والعقم من أسباب الطلاق أيضا.

مثل مناطق أخرى فى العالم القديم كانت الزوجات والأطفال متاعا للرجال مع فارق واحد: فى روما لم يكن حمل الأطفال وإدارة المنزل سوى جزء من واجبات المرأة. كان ينتظر منها أن تلعب دورا نشطا فى الأعمال الأوسع للعائلة. بطريقة أو بأخرى كان ذلك استمرارا للوضع فى العصر الحجرى الحديث. أو ربما انعكاسا للسرعة التى تحولت بها روما من مجتمع متفرق قائم على العائلة تعد فيه مشاركة المرأة أمرا أساسيا من الناحية الاقتصادية. إلى تلك الحالة الحضارية والتى كانت- مع تطورها التدريجى واعتمادها على فكرة تقسيم العمل- ستحصر المرأة فى الواجبات المنزلية وحدها. وكان من نتائج ذلك أن أصبحت حياة المرأة أقل انعزالا مقارنة بمعاصراتها فى البلدان الأخرى. كما نالت وعيا كافيا بقيمتها منحها نوعا من الثقة بالنفس.

بالنسبة للكثير من النساء كان ذلك كافيا. ما من سبب يدعو للشك فى أن عددا كبيرا من النساء أو غالبيتهن -فى العصر الرومانى كما الآن- قايضن حريتهن عن طيب خاطر مقابل نعمة التواكل العقلى والعاطفى. إن الحماية التى توفرها شرنقة العائلة -رغم قسوة نسيجها- كانت بالنسبة لكثير منهن أهم من الحرية. بالرغم من ذلك فحتى النساء اللاتى لم يرغبن فى الانعتاق أدركن أن حياتهن يمكن أن تكون أسهل. التعديلات المملة والمفصّلة التى طالت قوانين الزواج والتى ساعدن فى ظهورها أدت فى النهاية إلى حالة عامة من الانغماس فى الأهواء والرغبات كانت لها نتائج بعيدة المدى.

تقليديا كانت هناك ثلاثة أشكال للزواج: الأول هو Confarreatio ويشبه الزواج فى كنيسة كاثوليكية هذه الأيام. إذ تصحبه احتفالات واسعة ويصعب فصم عراه. والثانى Coemptio وهو من بقايا عادة شراء العروس.

---

* عمليا كان هذا التصريح حقا راسخا فى بعض البلدان الأوروبية وبخاصة فرنسا حتى القرن العشرين. فالجرائم الانفعالية لم تكن فقط دفاعا معترفا به. بل كانت المحكمة على استعداد أن تأخذ به حتى من النساء.

ويشبه احتفالا مدنيا حديثا وكان مناسبا لأولئك الذين لا يملكون من المال ما يضيعونه على الحلى البراقة. وفى كلا الحالتين تنتقل العروس مباشرة من ملكية أبيها إلى ملكية زوجها- إلى يده in manum مثلما فى عملية شراء قانونية- بكامل ممتلكاتها إذا كان لديها ممتلكات وبمهرها•. من الآن فصاعدا ستصبح ملكا لعائلة زوجها. وإذا ارتكبت أى إساءة زوجية فعليها أن تقف بين يدى مجلس عائلته هو للتحقيق.

الشكل الثالث من أشكال الزواج هو Usus ولا يعترف به قانونا قبل عام من المرافقة المستمرة. ولم يكن هذا الشكل من الزواج يلقى الكثير من الاحترام فى أيامه الأولى. زواج تجريبى كان يصبح مقبولا فقط إذا تطور إلى شىء دائم. لكنه يظل مستهجنا حتى ذلك الحين. حتى نهاية السنة التجريبية كانت الزوجة الرومانية تظل عضوا فى عائلة والدها. ولا تنضم بشكل كامل وقانونى إلى عائلة زوجها إلا فى نهاية تلك السنة.

الزواج بطريقة Usus كان يحتوى على ثغرة واسعة تستطيع الاستقلالية أن تنسل من خلالها. فبالنسبة للعقل الرومانى الذى يأخذ الكلمات بمعناها الحرفى كانت "المرافقة المستمرة" تعنى بالتحديد أنه: إذا غابت المرأة عمدا عن بيت زوجها العرفى لثلاث أيام متتالية بلياليها فإن فترة التأهيل يجب أن تبدأ من الصفر ثانية. معنى ذلك أنه بحساب دقيق للوقت وقليل من الذكاء كانت المرأة تستطيع أن تؤجل —إلى أمد غير محدد- اللحظة التى ستصبح فيها خاضعة قانونا لزوجها بدلا من أبيها — والذى يفترض أن يكون أكثر عطفا. ذلك النظام كانت له جاذبية واضحة للعروس التى يزوجونها فى سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر من رجل تعرفه بالكاد. نعم.. مازال بإمكانه أن يقتلها فى الحال إن فاجأها وهى تمارس فعلا فاضحا. لكن بالنسبة للجرائم الأقل سيكون عليها أن تستمع إلى محاضرة من أبيها بدلا من أن تتلقى عقابا صارما يحدده لها مجلس عائلة زوجها.

إذا كان الزواج بطريقة Usus قد راق للعروس وحدها لما انتشر أبدا. لكنه أيضا عاد بالنفع على والدها. قليل ما هو معروف عن الفترة بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد حيث بدأ هذا النوع من الزواج. لكن يبدو أن المرأة طالما ظلت "بين يدي" أبيها. فقد كان يحتفظ بحق التحكم فى ثروتها. كما كان بإمكانه استعادة جزء كبير من مهرها إذا فشلت الزيجة. بالنسبة للرومانى المهتم بأملاكه.

• المهر: المقصود هنا المهر الذى تدفعه الزوجة لزوجها وليس العكس (المترجم)

والمنشغل بالمحافظة على فداينه –مثل أى جنتلمان صاحب أرض فى انجلترا فى العصر الجورجى– كان ذلك الزواج إغراء لا يمكن مقاومته.

تدريجيا صارت العادة أن تظل العروس تحت وصاية أبيها. كانت الفوائد القانونية التى تعود عليها كافية. لكن ثمة أسباب أخرى. فرغم أن المرأة المتزوجة قد تظل "بين يدي" أبيها قانونا فهى نادرا ما تكون تحت نظره. والرقابة التى مارسها معظم الآباء كانت فيما يبدو أقرب إلى الصرامة. لكن عندما تصل المرأة إلى سن الخامسة والعشرين (وهو سن النضج المعترف به فى العصر الرومانى) فإن تلك الرقابة تصبح –عمليا– شكلية.

بنهاية القرن الثالث قبل الميلاد باتت المرأة خارج اليد وليست "بين يدي" أحد. أو ذلك ما تذمّر منه معاصروها من الرجال. لسوء الحظ لا توجد لدينا مصادر أدبية نسائية تؤكد ذلك أو تنفيه. لكن المرأة الرومانية وصلت بالتأكيد مرحلة كانت مستعدة فيها ليس للتفكير فقط وإنما للقيام بأشياء كانت سترعب السيدات النبيلات الفاضلات فى العصور القديمة.

أول مطالبة بحق التصويت؟

فى عام ٢١٥ ق.م وأثناء فترة الحرب الحرجة مع هانيبال، سُن قانون أوبياس (والذى سمى على اسم النائب• سى. أوبياس C. Oppius). وقضى بعدم احتفاظ النساء بأكثر من نصف أونص• من الذهب. ومنعهن من التحرك بالعربات فى شوارع روما. وحظر عليهن ارتداء الملابس المصبوغة. وبرغم ما يبدو عليه هذا القانون من سطحية، فقد كان بمثابة المعادل الرومانى لترشيد استهلاك الملابس الذى فرض فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. كان الذهب بالنسبة للمرأة يعنى الأساور والحلقان. وللجيش يعنى البقاء. كانت العربات تكلف أموالا من الأفضل أن تنفق على الدفاع. والصبغات الزرقاء والوردية والقرمزية والأرجوانية والبنفسجية –تسمى جميعا "الأرجوان"– كانت تستورد بتكاليف باهظة من "تاير"

• النائب: Tribune هو مسؤول منتخب من قبل الشعب للدفاع عن حقوقه. وسوف نستخدم مفردة النائب هنا من باب الاختصار (المترجم)

• الأونص: أقل من ٣٠ جراما (المترجم)

فى شرق المتوسط. كان قانون أوبياس- مثل معظم قوانين ترشيد الإنفاق فى العصور اللاحقة- محاولة للحد من الاستهلاك السفيه بالطريقة الوحيدة المتاحة أمام المشرعين. ولم يكن استهداف المرأة نابعا من اعتقاد ذكورى أن التبذير من صفات المرأة وحدها. وإنما لأن تبذير الرجال كانت له أشكال أكثر تباينا. كانوا ينفقون نقودهم على الخمر والزيت. العنبر والزجاج. الكتان. البردى. التماثيل. المصنوعات الصلصالية. والتوابل- وهى بضائع لا يمكن التحكم فى حركتها عمليا إلا عند الشراء. لذا كانت المرأة هى المستهدفة من ذلك التشريع الذى سُن -فيما يبدو- ليكون له تأثير نفسى إلى جانب المنفعة الاقتصادية.

نجت روما من أزمة عام ٢١٥ ق.م وبعدها بأربعة عشر عاما وضعت الحرب أوزارها. لكن مرت ست سنوات أخرى- حتى عام ١٩٥ ق.م- قبل أن يبدأ أى تحرك لإبطال قانون أوبياس. كان المحافظون مع القانون. واحتدم الجدل لأيام. وبدا أن الحركة ستفشل. واستشاطت النساء غضبا أكثر فأكثر. "لا القوة. ولا التفاهم. ولا أوامر أزواجهن استطاعت أن تبقى النساء المتزوجات فى المنازل. نزلت إلى كافة شوارع روما وجميع الطرقات المؤدية للساحة العامة. كل يوم كان زحام النساء يزداد. إذ كن يتوافدن على المدينة من الأقاليم". وعندما داهمن فعليا مكاتب النواب الأكثر معارضة لإبطال القانون. خرج الأمر عن السيطرة.

انفجر كاتو صارخا فى مجلس الشيوخ "كان أمرا مخجلا أن أشق طريقى عبر أفواج النساء قبل دقائق كى أصل إلى هنا." إذا كان لدى أى امرأة ما تقوله فعليها أن تقوله سرا. إلى زوجها. ورغم ذلك فلا يجب أن يكون لها رأى فى شأن سياسى كهذا ؛ إذا حكم الأزواج زوجاتهم لما قامت مثل تلك المظاهرات السوقية التى شهدتُها تواً . "المرأة حيوان عنيد وجامح. لا يمكن أن تعطيها اللجام وتتوقع منها ألا تشق عصا الطاعة. ما يردنه هو الحرية الكاملة- أو لنقلها بصراحة- الرخصة الكاملة." إذا سنحت لهن الفرصة للتآمر فى سرية لما كانت حياة أزواجهن تساوى شيئا.

وواصل كاتو قائلا: لا.. لا يجب أن يُسمح لهن بالضغط لتحقيق هدفهن. "إذا منحتموهن حقا بعد حق. سيحصلن فى النهاية على مساواة كاملة مع الرجال. أتتصورون أنكم ستجدوهن مُحتَملات؟ هراء!" النساء الثريات وحدهن يردن إبطال القانون كى يمكنهن التبختر مزينات بالذهب والأرجوان الذى لا تستطيع النساء الأقل مكانة شراءه. "هل تريدون أن تفتتحوا عصرا من التنافس فى الأزياء؟... إذا توفر لدى امرأة ما يلزم لشراء شىء فإنها ستشتريه. فإن لم تستطع ستذهب إلى

زوجها لتطلب المال، يالزوجها المسكين سواء أعطاها أم لا!. فإذا لم يجد النقود فإنها ستجدها عند رجل آخر...."

أما النائب فاليريوس L. Valerius فلم يتفق مع تلك النظرة المخيفة للزواج الرومانى. كان كاتو قد قال إن القانون إذا ألغى سيعجز الرجال عن حكم نسائهم. لكن فاليريوس رد "لا شيء من هذا القبيل. المرأة لن تسعى أبدا للهرب من حالة التواكل طالما أن رجالها على قيد الحياة. إنهن يتضرعن (إلى الله) أن يحفظهن من الاستقلال الذى يحصلن عليه إن فقدن آباءهن أو ترملن." كل ما تريده السيدات هو العدالة. فى النهاية من حُرمن من التزين هن زوجات وبنات مواطنين رومانيين. على العكس فإن نساء حلفاء روما كن "منظرا أخاذا فى ذهبهن وأرجوانهن. أولئك النساء يركبن العربات فى شوارع روما فيما على نسائنا أن يمشين. كما لو أن الحلفاء وليس روما هم الذين يحكمون الإمبراطورية. إنه مشهد سيجده الرجال مؤلما بما فيه الكفاية، فما بالكم بالنساء اللاتى ينزعجن من أقل شيء؟ الأناقة. المجوهرات. والعناية بالجمال- إنها أوجه التميز التى تجلها المرأة."[٢]

رغم أن خطبة فاليريوس البطولية كانت أكثر إهانة للنساء من تعصب كاتو الأمين. فقد تم إبطال قانون أوبياس. مع ذلك فقد أثبت الزمن على المدى البعيد صحة رأى كاتو. فبعد مائتى عام ذكر المؤرخ فاليروس ماكسيموس أن الرجال الذين أبطلوا القانون "لم يدركوا الغلو الذى سيقود إليه ولع النساء العنيد بالتجديد فى الموضة. أو الحدود المتطرفة التى ستصل إليها وقاحتهن بعد أن نجحت فى أن تدوس على القانون."[٣]

لو كانت الموضة فى ذلك الوقت مثلما هى الآن. متغيرة على الدوام فى الشكل والطول والقصّات. ربما ما كانت الإمبراطورية الرومانية لتسقط أبدا. لكن ما حدث هو أن شكل رداء النساء ظل على حاله إلى حد كبير. كانت جودة القماش والزينة هى عنوان الموضة. صبغات "تاير" الفاخرة. السلاسل. البروشات. الخواتم. الأساور الذهبية الثقيلة، الأقطان من الهند. التيجان. الحلقان المرصعة بالأحجار الكريمة من أصقاع آسيا البعيدة والتى تتجاوز قيمتها قيمة عزبة من الأرض. الفساتين المصنوعة من أفخر أنواع الحرير الصينى والتى كانت تساوى-فعليا- وزنها ذهبا.. كان ذلك هو المهم.

كما حدث فى اليونان. نتج عن اتساع رقعة العالم المعروف فى البداية تدفق الأموال وزيادة الترف. لكن الوقت مضى وانحسر المد. بحلول القرن الأول الميلادى

قدّر بلينى• العجز البالغ فى التجارة الرومانية مع آسيا بنحو ٣٠ مليون دولار أو ١٥ مليون جنيها استرلينيا فى العام بنقود اليوم. قد يبدو ذلك قليلا للغاية بمقاييس العصر الحالى. إلا أنه كان أمرا جللا فى العالم القديم- إذ كان يبلغ أربعة أو خمسة أضعاف القيمة السنوية للغنائم التى كانت روما تستولى عليها فى غزواتها للمتوسط، بلاد الغال، أسبانيا، وغرب آسيا فى أيام الجمهورية.[٤] كان نحو نصف الأنواع المعروفة من البضائع التى تستوردها روما من آسيا والساحل الشرقى لأفريقيا يتكون من التوابل. أما البضائع الأربع المتبقية من "أسباب الترف الأساسية" لروما فكانت الحرير من الصين، والعاج من أفريقيا، والعنبر من ألمانيا، والبخور من بلاد العرب.

فى المقابل كانت احتياجات البلدان الأخرى من روما -لسوء الحظ- قليلة للغاية. القوافل المسافرة من لو-يانج فى الصين لتقابل التجار أو الوسطاء الرومان فى المعبد الحجرى الشهير فى أحراش آسيا الوسطى فى مكان ما شمالى البامير Pamir. كانت تقايض الحرير الفاخر والتوابل الأجنبية بكميات قليلة من الزجاج والخزف والاسبستوس والقماش وعقود المرجان والجواهر المنقوشة ونبيذ العنب من روما، بالإضافة إلى كميات هائلة من الذهب والفضة. لفترة ظل التوازن قائما بشكل مقبول، كان الصينيون يفضلون الذهب. والرومان الفضة. لكن حدث نقص فى المعادن النفيسة، إذ نضبت مناجم الفضة الكبرى فى اليونان. وبحلول عام ٢٠٠ ميلادية كانت الموارد الرومانية قد استنفذت بشدة حتى أن المهندسين واجهوا صعوبات جمة فى استخراجها من المياه. وتدريجيا فى البداية ثم بإيقاع متسارع بدأ سعر العملة الرومانية فى الانخفاض حتى انهار الاقتصاد بأكمله مع مرور الوقت.

بين الأسباب السياسية والاجتماعية والعسكرية والاقتصادية المختلفة التى ساهمت فى سقوط الإمبراطورية الرومانية. لم ينجح عالم واحد فى تحديد أيها كان أكثر تأثيرا من البقية الباقية. لكن البذخ -وخاصة بذخ النساء الرومانيات- كان دون شك عاملا إضافيا مهما.

• بلينى: المقصود بلينى الكبير Pliny the Elder (٢٣- ٧٩م) والذى وضع كتابا حول تاريخ الإمبراطورية الرومانية (المترجم)

مساعدات صناعية

كانت نساء الطبقة العليا يتمتعن بحرية ندر أن تتاح لسواهن فى العالم القديم. إذ سُمح لهن بفعل الكثير- طالما لا يفعلن شيئا بنّاءً. وقد شاركت المعوقات القانونية والضغوط الاجتماعية فى ضرب طوق ثقافى حولهن. كان بإمكانهن داخل هذا الطوق أن يفكرن ويعملن على هواهن تقريبا. لكن لم يكن بمقدورهن كسر تلك الحلقة إذا أردن التأثير فى الآخرين أو التعدى على مناطق يحتكرها الرجال أو حتى- وهو ما لا يمكن تخيله- تشكيل السياسات السياسية والامبريالية لروما نفسها. لذا استمتعن بإنفاق النقود. وتجميل أنفسهن (ليس لأزواجهن وإنما لعشاقهن). والانغماس فى العبادة أو إقامة الدعاوى لطلب الطلاق.

انتقد سينيكا بعضا من معاصراته لأنهن برعن فى فن العمل بكد لفعل لا شىء.[٥] وهو بالتأكيد وصف عادل للكيفية التى كانت النساء تقضى بها أيامهن. كان الرجل يستيقظ قبل بزوغ النهار، يضع صندله. ويلتقط التوجه• -قطعة الملابس الوحيدة التى يلقى بها قبل أن يذهب للفراش- ثم يتجرع كوبا من الماء ليصبح جاهزا لمواجهة العالم. فيما بعد قد يذهب إلى الحلاق. وقد يتواجد بعد الظهر فى الحمامات. أما زوجته -على العكس- فتستيقظ حسب هواها فى حجرتها (السوقيات وحدهن كن يتقاسمن الحجرة مع أزواجهن) تضع شبشبها، ترتدى فستانها الداخلى فوق ملابسها الداخلية: شدادة الصدر والتنك التى نامت بهما، وتشرب كوبا من الماء ثم تصبح مستعدة.. ليست لمواجهة العالم. بل لمواجهة المرآة. والخادمات. وعلب المساحيق التى لا عدد لها.

ظل النساء والرجال على حد سواء يبذلون ما بوسعهم لتحسين مظهرهم الطبيعى على مدار معظم التاريخ المدون. فإذا عدنا لأيام السومريين نجدهم قد رسموا الكحل حول عيونهم لتكبيرها، ولونوا خدودهم بصبغات حمراء. وقال أرسطوفانيس إن النساء الأثينيات استخدمن طلاء زيتيا وخام الأنتيمون (المسكره) والطلاء الأحمر والرصاص الأبيض (كبودرة للوجه). وطلاء الطحلب البحرى (كظلال للعيون ربما). ولزقات التجميل (كمادات الوجه). وكان كثير من تلك المستحضرات لسوء الحظ غير مقاوم للماء. قال يوبولوس الشاعر الإغريقى بوقاحة

• التوجه: ثوب رومانى فضفاض (المترجم)

"عندما تخرجين فى الصيف، ينحدر جدولان أسودان من عينيك. العرق من خديك يحمل قطرات من أحمر الشفاه منحدرا نحو عنقك. ويتحول شعرك للرمادى من بودرة جبهتك." [٦]

كانت البيبلوس Peplos والشيتون Chiton الإغريقيتان عباءتان ضيقتان تبرزان الجسد. مزودتان بحزام. وأحيانا فضفاضة عند الخصر. ومن ثم برع الإغريق فى فن شد الخصور. كانوا أول من اخترع مشدات الصدر. والتى لم تكن مصممة على أسس علمية مثل الحديثة ولكنها مرضية بما يكفى. كذلك كان لديهم مشدات للخصر عادة ما ترتديها المحظيات لإخفاء الحمل. وللبنات التى كانت أجسامهن غير ناضجة كان بالإمكان تزويد الأرداف "بلحف محشية. تثير دهشة الناس: فيتساءلون عن السر الذى جعل كفلك بهذه الاستدارة!" [٧]

مع ذلك كانت المرأة الرومانية ترتدى عباءة فضفاضة وساترة بدرجة أكبر. إلا إذا كان بإمكانها تحمل نفقات الحرائر الأفخر وعلى استعداد لتجاهل عاصفة الانتقادات التى ستعقب ذلك بالضرورة. ولما كانت عاجزة عن إبراز مفاتن جسدها على أكمل وجه. كانت تقضى كثيرا من وقتها وتنفق كثيرا من نقودها على وجهها وشعرها. أول ما تفعله فى الصباح هو أن تزيل عن جلدها بقايا كريم الوجه والكمادات المصنوعة من عجينة الخبز- تلك التى وضعتها الليلة الماضية. ثم تشرع فى عملية تجهيز شعرها الطويلة. "بعضهن يعالجنه بغسول Lotions يجعله يلمع مثل شمس الظهيرة. والبعض يصبغنه بالأصفر المحمر. إذ يعتبرن اللون الطبيعى قبيحا. (أصبح الشعر الأشقر المحمر موضة نتيجة لاتصال الرومان مع القبائل الجرمانية). وإذا حدث واقتنعن بالشعر الأسود فإنهن ينفقن نقود أزواجهن على مسحه بكافة أنواع عطور العرب. بعد ذلك هناك أدوات حديدية تسخن على نار هادئة، تُموج الشعر وتُدوّره فى حلقات. أىّ ألم تعانيه كى تجعله يسقط على حاجبيها! تقريبا لا تبقى مساحة من الجبهة[٨]." الشعرات الرمادية كانت تنتزع دون رحمة. وفى الحالات المتطرفة قد ترتدى المرأة الرومانية شعرا مستعارا مصنوعا من شعر مستورد من الهند. كان غاليا إذ تفرض عليه الجمارك. لكن لا بد وأنه كان أفضل من وصفات علم أمراض الشعر التى نُصح بها فى العصور القديمة. للشعر الرمادى. كان خبراء ما بين النهرين قد نصحوا بخليط من الأفيون مع قليل من مرارة ثور أسود وعقرب وخنزير. تغلى مع رأس غراب أسود ورأس لقلق. أما المصريون ففضلوا خليطا من صبغة الأفيون. والزيت. ورحم قطة، وبيضة غراب.

وللصلع نصحوا بحك فروة الرأس بمرهم مصنوع من دهن أسد وفرس نهر وتمساح وقطة وثعبان وتيس جبلى.[٩]

فور أن تفرغ وصيفة التزيين الرومانية من تصفيف شعر سيدتها تبدأ العمل على وجهها. وهى مهمة تستغرق الزمن نفسه. كان المستحضر يستخلص من شحم صوف الخراف (نوع من اللانولين)، وكانت هناك كريمات وغسولات أخرى تحتوى على مكونات مثل جريش الشعير، قرن الوعل المطحون، العسل، ورغوة النترات الحمراء. وللعينين والخدين والحاجبين والشفتين كانت المرأة الرومانية تستخدم —فيما يبدو— مكونات شبيهة للغاية بتلك التى ذكرها أرسطوفانيس. وعندما ينتهى العمل الفنى (يجب أن يكرر ثانية خلال النهار بعد الحمام) لا يبقى سوى اختيار المجوهرات الكافية لتزيين كل جزء يمكن تزيينه. أن تضع تنك خارجية. أن تلتقط الوشاح الذى يستخدم كمنديل ومنفضة غبار فى نفس الوقت. ومروحة ذيل الطاووس التى تعمل أيضا كمنفضة للذباب، ومظلة خضراء ناصعة إذا بدا أن الجو يحتاج لذلك، بعد ذلك مع التأكيد على الثنيات النهائية فى قماش العباءة تصبح السيدة جاهزة لمغامرة الخروج لعمل شىء مفيد فى يومها— أن تزور الخياطة أو الصائغ، أن تتجول فى المدينة بمحفة، أن تذهب لصديقاتها، أن تتعبد فى المعبد، أن تذهب إلى المسرح، أو ساحة القتال لتجلس على المدرجات وتستمتع بالإثارة وهى تشاهد قتال المصارعين من مكان آمن، وبالطبع أن تزور الحمامات العامة، الملتقى الاجتماعى المفضل حتى لمن لديهن ملتقيات خاصة، وأخيرا تعود إلى المنزل لتشرف على استعدادات العشاء— سواء كان عشاء خاصا أو وليمة— وهو الشىء الوحيد من أنشطتها اليومية الذى يمكن أن نسميه مجازا بالعمل.[١٠]

اختلافات دينية

ظل الدين يوفر أشياء مختلفة لمختلف الناس. لكنه بالنسبة للنساء الرومانيات كان بمثابة مهرب من الملل. مهرب يتسم بالإثارة الروحية أحيانا. والجسدية فى أحيان أخرى.

معظم الآلهة رومانية الأصل كانت إما رموزا للتحريم والأخلاق المجردة، أو المتبقين من عصر كان دور الآلهة فيه أن يحموا البشرية مقابل بعض الخدمات. إحدى الربات الحاميات كانت فيستا، حارسة الأسرة والبيت. ولعدة قرون ظل

الاعتقاد السائد أن رفاهة الدولة تتوقف على مدى كفاءة عذراوات فيستا — كاهناتها— فى رعاية النار المقدسة. كانت هناك ست عذراوات فقط يُخترن بالقرعة من قائمة قصيرة من المرشحات المنتخبات من أنبل العائلات الرومانية. كان شرفا لا يسعين إليه دائما. وسجل سوتونياس* أنه عندما كان يخلو مكان فى أيام الإمبراطور أغسطس "كان كثير من المواطنين يجاهدون لإبقاء أسماء بناتهن خارج قائمة المرشحات." [١١] ربما كان أحد الأسباب أن ممتلكات عذراوات فيستا تؤول للدولة وليس لعائلتها.

كان تسجيل عذراء فيستا يتم فى سن العاشرة أو قبلها (حيث يمكن ضمان عذريتها) وتلتزم بالعفة الدينية للأعوام الثلاثين التالية. وبعدها يمكن أن يطلق سراحها أو تظل راهبة بحسب اختيارها. وكانت أخلاقها مسألة ذات أهمية قومية. فعندما واجهت روما كارثة كاناى عام ٢١٦ ق.م لم يتهم الجيش بعدم الكفاءة بل ألقى اللوم على عذراوات فيستا الآثمات. تم توجيه الاتهام لاثنتين منهما وأدينتا. وبعد قرن من ذلك أعلنت العذراوات الست جميعهن فاسدات. وأُدين ثلاثةٌ منهن بالتفريط فى عذريتهن. كان العقاب هو الموت البطيء. بالدفن فى حجرة صغيرة تحت الأرض مع فراش ومصباح وغذاء يكفى لبضعة أيام. قال بلوتارك واصفا الموكب الذى رافق عذراءتى فيستا المذنبتين إلى حجرات الموت "ما من مشهد فى العالم أكثر ترويعا. ولا شهد يوم من أيام روما هلعا يقارن بهذا الهلع." [١٢]

لكن الاحتكاك باليونان لأول مرة بدأ فى إضفاء الحيوية والدفء على البانثيون الرومانى، فى تقديم آلهة تحمل من الصفات الإنسانية ما يجعل عابديها يستجيبون لها بشكل شخصى. اندمجت فينوس —وكانت أصلا إلهة الزراعة لدى الرومان (قبل أيام سيريس)— مع أفروديت ذات المزاج العاصف ليصبحا الإلهة الأم للأمة، حامية الزواج. وأيضا راعية العاهرات اللاتى كن يترددن على الميدان الكبير Circus Maximus بحثا عن زبائن فارت دماؤهم من الألعاب. أو معسكر الحرس الامبراطورى Praetorian Guard بالضواحى الشرقية للمدينة، أو المواخير نتنة الرائحة المنتشرة فى كل بلدات شبه الجزيرة. كانت

* سوتونياوس: Gaius Suetonius مؤرخ رومانى شهير عاش فى منتصف القرن الأول وبداية القرن الثانى الميلادى (المترجم)

هناك مهرجانات سنوية لفينوس. وكانت النساء المتزوجات يتعبدن لها فى أول إبريل. وممارسى الدعارة (ذكورا وإناثا) فى الثالث والعشرين.

بالطريقة نفسها تسلّم الإله الرومانى ليبر، والذى كان فى السابق راعى النمو والخصوبة، بعض مهام الإله اليونانى بريابوس. كان يُصور بوجه عام برمز قضيبى. ولم يعنى ذلك الجنس وحده، بل الغزو والتحدى والحماية من العين الحاسدة- نوعا من الإيماءات السحرية الفاضحة متعددة الأغراض. قد جاءت كلمة Phallus (قضيب) من الإغريقية. وكان معادلها باللاتينية Fascinum. وتعنى "الروح السحرية". وهذا هو الاشتقاق الذى تعطيه معظم القواميس باحتشام للكلمة الحديثة Fascinate (ساحر لدرجة تخلب الألباب).

أما الأكثر إثارة للدهشة من بين كافة الآلهة المستوردة القديمة فهو ديونيسوس إله الكرْم والخمر. والذى تحول إلى إله الشراب والسكر. وقد ظهرت عبادته لأول مرة عقب الحرب مع هانيبال وكان ينظر إليها بتسامح- لبعض الوقت.

بعد ذلك -كما قال ليفي• -جاءت مسألة الرؤيا. قام زوج أم الشاب أيبوتيوس باختلاس ممتلكاته، وقد اقترب الشاب من سن الرشد وبات الرجل الآن يواجه خطر الفضيحة. كان خياره الوحيد أن يَقتل الصبى أو يجد طريقة ما لابتزازه ليصمت. لذا فى أحد الأيام سألت الأم الصبى أن يسعدها وينضم كعضو مستجد فى عبادة باخوس. وهو ما وافق عليه الشاب ببراءة. لكنه -لسوء حظ المتآمرين- ذكر الأمر لمحظيته. وهى فتاة طيبة القلب وذات خبرة تدعى هسبالا. فصرخت مرتعبة "حاشا للآلهة!"، وتحت الضغط كشفت المستور. أصلا لم تكن العبادة موضع اعتراض. مهرجان للنساء فقط يقام كل ثلاث سنوات وتديره سيدات نبيلات محترمات. ثم - بذريعة ظهور رؤيا مقدسة - تغير كل شىء. سُمح للرجال بالمشاركة. وبدأت المهرجانات تعقد تحت أستار الظلام خمس مرات شهريا. وفيها تُلقى كافة القيود العاطفية والجنسية جانبا. ويبقى قانون واحد هو ضرورة انتهاك كافة قوانين الحياة لعادية. كانت نساء مخبولات تتطاير شعورهن مع الريح يجرين ويصرخن باتجاه نهر التايبر ليُغَطِسْن مشاعل محترقة فى النهر ويُخرِجْنها ثانية- والمعجزة أنها تظل مشتعلة•.وكان الرجال الذين أطاح السكر

• ليفى: Livy أو Titus Livius مؤرخ رومانى عاش بين عامى ٥٩ ق. م و١٧ ميلادية (المترجم)

• كانت قمة المشاعل تغطى بالجير الحى والكبريت. وربما كانت تخلط بالنفط الخام. وكان الكبريت يضاف لإضفاء قوة واستطالة للأدخنة.

بعقولهم وباتوا يتطوحون عاجزين عن التحكم فى أطرافهم يهبون أنفسهم للمستجدين. شباب تحت العشرين يتعرضون "للغواية بالقوة". وفى هذا الجو العربيدى والمشحون للغاية كان الموت هو النهاية الطبيعية لأى مستجد يحارب قدره.

اعترافات هيسبالا أدت إلى اعتقال سبعة آلاف شخص (كان المؤرخون الرومان مولعين بالأرقام الصفرية) كثير منهم من عائلات كبيرة. الرجال الذين حكم عليهم بالإعدام تولت الدولة قتلهم. أما النساء فتسلمتهن عائلاتهن التى كانت مسؤولة عن تنفيذ العدالة. ثمة زعم—ربما يكون حقيقيا- أن الطقوس الباخوسية -والتى كان كل المشاركين فيها ضالعين فى المؤامرة- ساعدت على تشجيع أو التغطية على بعض أنواع الجرائم مثل القتل والشهادة الزور وتزوير الوصايا وما شابهها من وثائق.[١٣] من الآن فصاعدا ستُحظر عبادة باخوس علنا إلا على مجموعات لا تزيد عن ثلاثة نساء ورجلين. وحتى فى تلك الحالة يلزمهم تصريح رسمى. لقد اعتبرت القضية خطيرة بما يكفى أن يوزع مجلس الشيوخ مرسوما (عام ١٨٦ ق.م) على الدول التابعة التى لا تخضع للقانون الرومانى. يعتبر أن التعاون فى هذا الصدد سيكون من الكياسة الدبلوماسية.

رغم أن عبادة باخوس هى أول ما لفت انتباه الإدارة الرومانية. كانت هناك آلهة وإلهات أخرى تحتشد الآن على الجبهات الشرقية. أرباب صار لهم بالفعل طليعة من المؤمنين بين العبيد الأجانب فى روما. وآخرون أعادهم جنود الاسكندر المقدونى إلى اليونان وتم دمجهم جزئيا.

"سيبيل" كانت أول من وصل إلى روما قبل أعوام من باخوس. مصحوبة باحترام فائق. إذ ظهرت نبوءة أثناء الحرب مع هانيبال مستقاة مما أطلق عليه عالم الأنثروبولوجى فريزر J.G. Frazer "المزيج المريح من الهراء: الكتب السيبيلية". وذكرت تلك النبوءة أن خلاص روما سيكون فى جلب الإلهة العظمى Magna Mater (الأم العظمى) إلى المدينة. وفى طقس احتفالى شُحن تمثالها من فريجيا ليستقر فى معبد خاص ويرعاه كهنتها الخصيان. لكن بمجرد تنفيذ ما طلبته النبوءة بدا أنه لم يعد ضروريا المضى قدما. ولعقود عدة عرف شعب روما "سيبيل" أساسا من خلال كهنتها الذين كانوا يرتدون ملابس شرقية عجيبة ويجوبون الشوارع على أنغام موسيقى الصنج والدفوف والفلوتات والأبواق. كانت الحالة تشبه تلاميذ "هار كريشنا" وهم يتجولون فى عواصم العالم الغربى اليوم. وعندما بدأت الأديان الآتية من خلف الحدود الرومانية الشرقية فى اجتذاب عدد

كبير من الأتباع باتت طقوس "سيبيل" أقل براءة. وأخذت تُصبغ بالدماء والهستيريا والتمثيل بالذات.

بعد باخوس وسيبيل جاء ميثرا والأبعال•، ثم إيزيس وسيرابيس وآخرون. أصبح ميثرا إله الجند. وإيزيس إحدى الإلهات المفضلات لدى النساء. حتى أن أعداء النساء نسبوا جميع المظاهر الحسية النسوية لعبادتها. فى عام ١٩ ق.م وأثناء اجتماع للطائفة فى الهواء الطلق اكتشفت سيدة نبيلة صغيرة تدعى باولينا —كانت تعتقد أنها قضت الليلة فى جماع مقدس مع أنوبيس الإله المرافق لإيزيس— أن دور الإله لم يلعبه سوى واحد من معجبيها الفانين. وكانت النتيجة هى صلب كهنة إيزيس. وترحيل عدد كبير من عابديها إلى جزيرة سردينيا المسكونة بالبعوض حيث—كما قال تايبيريوس• — "لن يفتقدهم أحد إذا قضوا من سوء الطقس." (١٤)

لكن على الرغم من الاضطهادات العارضة التى تواكب ظهور أى دين جديد يهدد القيم الأخلاقية والسياسية لروما، مضت تلك الأديان قدما. كان بينها الكثير من الأشياء المشتركة. فجميعها تعتمد أسطورة البعث والتى كانت صفة مميزة للمجتمعات الزراعية الأولى. وجميع آلهتها عانوا وماتوا ودفنوا ثم قاموا ثانية. وجميعها فرضت طقوسا للانضمام للطائفة. وفترات عارضة من الزهد لغسل الروح. وجميعها كانت تعبد إلها واحدا. حتى لو لم يدّعوا أن إلههم هو الإله الأوحد. ذلك التشديد على معبود واحد على عكس تعدد الآلهة فى الديانة الرومانية القديمة— ساعد على تعبيد الطريق أمام المسيحية التوحيدية.

كذلك شددت الديانات الجديدة على التقوى الشخصية، التطهر الذى يجب أن يتحقق ليس عن طريق التقيد الآلى بالقوانين القديمة وإنما بالالتزام الشخصى والفضيلة الشخصية. وحتى النساء اللاتى كان الدين يعنى لهن القليل كن يجدن جاذبية قوية فى الألوان والموسيقى، وحالات الوجد، والسلام الروحى الذى يتحقق بعد فترات من إنكار الذات. كانت الديانات الشرقية جديدة ومختلفة، وبدا أنها تعطى معنى —ولو زائف— لحيوات كانت لولاها خالية من المعنى، وتوجه العقول الضجرة إلى طرق بدت—ولو زائفة— تقود إلى مكان ما. كانت النساء اللاتى لا يجدن

• ميثرا Mithras إله النور وحامى الحقيقة عند الفرس. الأبعال Baalim جمع بعل Baal هى آلهة الخصب المحلية عند الكنعانيين والفينيقيين. (المترجم)

• تايبيريوس: Tiberius هو ثانى أباطرة الرومان (المترجم)

ما يشغلهن هن المريدات الأقل انتقادا للكنيسة المسيحية والأكثر إخلاصا لها. ربما بدأت تلك العادة مع ديانات الشرق الأدنى التى سبقت مباشرة انقضاض المسيحية الإمبراطورية الرومانية.

مسوغات الطلاق

كان يجب أن يحدث الكثير قبل أن تصبح نساء روما حواريات فى الكنيسة المسيحية الجديدة. فى بداية القرن الثانى الميلادى كان الكثير منهن لا يشعرن بالاستقرار ودون جذور تثبتهن فى الأرض. وعلق جوفينال بسخرية على الطلاق المستهتر فى أيامه "إنها تسجل المزيد من النقاط لقد مر عليها ثمانية أزواج فى خمسة فصول شتاء. اكتبوا هذا على قبرها." [١٥]

كانت النساء يطلقن أزواجهن من باب الملل. والأزواج يطلقون زوجاتهم لأن التجاعيد بدأت تظهر عليهن، أو لأنهن منحلات أو عقيمات أو سليطات اللسان. فى أوائل عام ١٣١ ق.م قال مسؤول رومانى فى مناقشة حول الحاجة إلى زيادة معدل المواليد "لو كانت الحياة دون زوجات ممكنة يا سادتى فعلينا أن نوفر على أنفسنا المشكلة. لكن بما أن الطبيعة قررت أننا لا نستطيع العيش معهن فى سلام. ولا العيش دونهن على الإطلاق. فعلينا أن نتحرك ونحن نضع مكاسب المستقبل نصب أعيننا. وليس راحة الحاضر." [١٦] بعدها بعدة عقود سُئل سيسيرو• -الذى كان قد طلق زوجته تيرينتيا لتوه- عما إذا كان سيتزوج ثانية. فرد بالنفى إذ أنه "لا يستطيع تحمل الفلسفة وزوجة فى نفس الوقت". [١٧] ولكنه بعد ذلك مباشرة أجبر على أن يتراجع عن قراره. فقد نسى أن عليه أن يعيد لتيرينتيا مهرها. والسبيل الوحيد لجلب المال اللازم كان أن يتزوج امرأة أخرى.

لابد وأن الحياة مع النساء الرومانيات والرجال الرومان على حد سواء كانت صعبة. فالمرأة المتحررة فى أوائل أيام الإمبراطورية الرومانية كانت تحمل الكثير من صفات النساء من دعاة "النسوية" فى العصر الحاضر- عقل متعجرف. ونزعة للتسلط. واحتقار صادق للوسطية. على الصعيد الاجتماعى كان زوجها صعب المراس بدرجة لا تقل عنها: أنانى بدرجة كبيرة. مدع ثقافيا. يحب النصائح

• سيسيرو: Marcus Cicero فيلسوف ومحامى ومنظر سياسى ورجل دولة رومانى (المترجم)

الأخلاقية. ويفتقر للخيال، ويتمتع بحس دعابة لا يحسد عليه. فى الواقع لم يكن الأزواج والزوجات أكثر توافقا من المتزوجين على مر العصور. لكن لأن روما ضمت عددا من النساء صاحبات الشخصية القوية لم يشهده أى مكان آخر فى العالم القديم. فإن ضجيج الاحتكاك بين الشخصيات غير المتوافقة كان يصم الآذان.

فى الأيام الأولى للجمهورية كان إتمام الزواج يعتمد على الاحتفالات و"الدخلة"•. وبحلول القرن الثالث قبل الميلاد كان المحك هو أن "يعيشا معا فى قبول متبادل." اتفاق بسيط كان يمكن إلغاؤه ببساطة. رسميا كان يستحيل على الزوجة من قبل أن تطلق زوجها لأى سبب. والآن تستطيع دون سبب تقريبا. وقد فعلت ذلك بحماس كبير وبأعداد متزايدة.

مع ذلك تبين أن الطلاق السهل سلاح ذو حدين. خاصة بالنسبة للمرأة التى كان استقلالها العاطفى أكبر من المادى. إذا كانت سليلة إحدى العائلات ذوات الدم الأزرق التى كانت تستخدم الزواج لتوطيد التحالفات السياسية. كان يمكن لعائلتها أن تحل الزيجة—بنفس السرعة التى رتبتها بها- سواء أرادت الزوجة نفسها أم لا. ليفيا —أم كاتو الأصغر وجدة بروتس (اثنان من ألد أعداء يوليوس قيصر)- تزوجت فى البداية من شريك سياسى لأخيها. ثم -عندما تعارك الرجلان- طلقت وزُوجت ببساطة لرجل آخر. بل أن قيصر نفسه طلق بومبيا دون ذنب جنته لأن أخلاقها لم تعد "فوق مستوى الشبهات"- وهو ما لا يصح أبدا - كما يقول قيصر- مع زوجة رجل لم يكن فقط البريتور• السياسى لروما ولكن أيضا الحبر الأعلى. رئيس مجمع الكهنة.

كذلك لم يتردد أغسطس- حفيد أخى قيصر وابنه بالتبنى الذى كانت خطبه العامة عن الأخلاق تفيض تقوى وورع- فى تطليق زوجته سكريبونيا بسبب "الانحراف الأخلاقي" (كانت قد شعرت بكراهية تجاه إحدى محظياته) عندما وقع فى حب ليفيا دروسيلا- ابنة السابعة عشرة والحامل فى ستة أشهر من زوجها الحالى. كما كان على جوليا-ابنته من سكريبونيا- أن تعانى من نظرة الرومان للزواج كتحالف بين أحزاب وليس أشخاص. رغم أن ما شاع فى ذلك الوقت هو أن أزواجها عانوا أكثر منها. كان على اثنين منهما أن يطلقا زوجتيهما

• الدخلة Consummation أن يبنى المرء بزوجته (المترجم)

• البريتور Praetor: لقب يطلق على الحاكم السياسى وعلى قائد الجيش (المترجم)

ليتزوجا منها. أحدهما تيبيريوس الذى فعل ذلك بعد مقاومة عنيفة. لكن فائدة تلك الزيجة تبينت له فى النهاية عندما توفى أغسطس وتبعه تيبيريوس كإمبراطور. حتى وإن تبين- بعد عشرة سنوات من الزواج بجوليا صاحبة الذهن المتقد- أنه إمبراطور معاد للمجتمع إلى حد ما.

مع الأيام الأولى للإمبراطورية ثبت أن كثيرا من النساء يجد صعوبة فى ممارسة علاقات خارج إطار الزوجية. ليس بسبب تذمر أزواجهن (رغم أن بعض الأزواج كانوا يتذمرون فعلا) وإنما لأن الإمبراطور أغسطس سن تشريعا تسبب دون قصد فى تحويل الزنا إلى شأن من الشؤون العامة. وابتكر عقوبات قانونية لجريمة كانت فى السابق مسألة داخلية تبت فيها العائلة.

بالطبع طُبقت تلك العقوبات أساسا على النساء. إذا اكتشف زوج خيانة زوجته كان يُجبر على تطليقها وإلا واجه هو نفسه خطر المحاكمة. أما هى فكانت تُنفى. وتحرم من نصف مهرها. وثلث ممتلكاتها الأخرى. وكانت جريمة يعاقب عليها القانون لأى رجل أن يتزوجها. وكان الرجل الذى أغواها (فى حال كونه متزوجا) يُنفى هو الآخر إلى جزيرة أخرى. كما كان أى رجل متزوج يتستر على زنا امرأة يتعرض للعقوبة. وكان العُزّاب فيما يبدو معفيين. وإذا كان لدى الرجل محظية غير مسجلة فى سجل العاهرات فإنه يواجه المحاكمة بتهمة "ممارسة رذيلة غير طبيعية." ومع الزيادة المفاجئة فى عدد الطلبات المقدمة للتسجيل فى سجل العاهرات. وكثير منها من نساء محترمات إلى حد كبير. كان على مجلس الشيوخ أن يتخذ موقفا سريعا. لم يتعرض الزوج الزانى لنفس العقوبة التى تتعرض لها الزوجات الزانيات إلا بحلول القرن الرابع الميلادى. رغم أن تلك الخطوة أفسدتها قسوة العقوبة- وهى الإعدام.

يحتشد التاريخ الرومانى بأسماء نساء راجحات العقل. فهناك سيمبرونيا التى قيل إنها تورطت فى مؤامرة كاتيلينا• فى القرن الأول قبل الميلاد. وفولفيا• التى كشفت المؤامرة. وكان هناك كورنيليا زوجة بومباى الذكية. وبراشيا الأقل ذكاءً والتى يعتقد أنها تمتعت بنفوذ هائل بسبب تأثيرها على عاشقها كورنيليوس

• مؤامرة كاتيلينا: نسبة إلى السياسى الرومانى كاتيلينيا Lucius Catelinia الذى حاول الانقلاب على الجمهورية الرومانية (المترجم)

• فولفيا: Fulvia محظية سيسيرو. نقش وجهها على العملة الرومانية (المترجم)

سيثيجوس السياسى البارز فى تلك الأيام. وكانت هناك أم بروتس المميزة سيرفيليا. وزوجته بورشيا ذات القرارات الحاسمة. وفى عصور لاحقة كانت ليفيا رفيقة أغسطس والتى ساعدت على إقرار نظام جديد استطاعت سيدات أخريات فى عصر الإمبراطورية –بينهن جوليا وجوليلا وليفيلا ودروسيلا وبوبايا وميساليناأن يقمن بخطوات لمكافحته.

أحيانا ما يصعب التمييز بين نساء المنزل الواحد فى عصر الإمبراطورية. ليس لأنهن كن متشابهات فى أى شىء. وإنما لتشابه أسماءهن والجرائم التى نسبها إليهن مؤرخو ذلك العصر. فى روما القديمة. كان للرجال اسمان وأحيانا ثلاثة. لكن النساء عادة كان لهن اسم واحد هو اسم العائلة. وفى حالة وجود عدة أخوات كان يتم تمييزهن بالأرقام. فإذا تزوجن أضيف إليهن اسم الزوج (بصيغة الملكية) مما يساعد على تعريفهن. لذا فإن الابنات الثلاث لرجل يدعى بوبليوس كلوديوس Clodius Publius ربما يعرفن بأسماء Pius's Clodia (كلوديا خاصة بيوس) وAgrippa's Clodia (كلوديا خاصة أجريبا) و Octavian's Clodia (كلوديا خاصة أوكتافيان)• . فى الأزمنة الإمبراطورية بدأت النساء يتخذن اسمين خاصين بهما، اسم العائلة أولا يتبعه الاسم الثانى للأب (اسمه المسمى به) أو الاسم الثانى للأم. رغم ذلك كانت إمكانية التمييز محدودة للغاية عندما يتم التزاوج على نطاق واسع بين عائلتين مثل عائلة جوليان وعائلة كلوديان. وذلك هو السبب الذى جعل القارئ الحديث يلاحظ وجود عدد كبير من الجولياوات والكلودياوات بين النساء فى بيوت الإمبراطورية.

بالطبع ما يزيدُ الارتباك هو أن معاصريهن اتهموا كثيرا منهن بارتكاب جرائم متشابهة إلى حد كبير. فهل كانت الغُلمة النسوية، وإدمان المسكرات. والمقدرة على الحصول على قارورة سم أمراضا وراثية فى روما القديمة؟ إجمالا يبدو أن كثيرا من النساء المتهمات لسن سوى ضحايا التقليد القديم: أن يلصق المؤرخون أقذر العادات التى تطرأ على عقولهم بالمتمردين. منذ القرن الثانى قبل الميلاد وحتى وقت قريب جدا كانت الاتهامات بممارسة الجنس الجماعى. وشرب الدماء. وأكل لحوم البشر تلقى بشكل جزافى وغير منطقى على كل مهرطق أو وثنى وفقا لكتب الدين – اليهود. الكاربوكرات Carpocratians المانتشيان

• باعتبار أن أسماء أزواجهن هى بيوس وأجريبا وأوكتافيان على الترتيب (المترجم)

Manichaeans، المونتانيون Montanists، الجنوسطيين Gnostics، اليوكيون Euchists، البوجوميل Bogomil، الألبينجيون Albigensian، الولدانيون Waldensians. هذا بخلاف الهينريشيون Henricians والأبوستوليتشي Apostlici وعبدة الشيطان Luciferians، والآدميون Adamites، والساحرات والغجر والأزتيك. والأنكا والكثير الكثير غيرهم.[١٨] لم يكن الرومان غير منطقيين أو متدينين لدرجة أن يبلغوا فى اتهامهم للمرأة إلى ذلك الحد. لكن ممارسة الجنس الجماعى والعنف تجاه الخصوم بدت اتهامات معقولة يمكن إلقاؤها على المرأة التى تخرج على الأعراف. ربما كانت ممارسة الجنس الجماعى إحدى الصفات المميزة للأديان الغامضة التى انضم إليها كثير من النساء. لكن حتى القرن التاسع عشر بدا محتملا أن معظم جرائم القتل بالسم التى ألقى فيها باللائمة على النساء كانت فى الواقع من عمل بكتيريا السلمونيلا.

مع ذلك فالكثير من النساء ذوات التعليم العالى واللاتى يتمتعن بالذكاء ويشعرن بالملل نزعن إلى الجموح دون شك. والسؤال هو لماذا سمح لهن المجتمع الذكورى بالاستمرار فى ذلك لهذا الزمن الطويل؟

أحد الأسباب دون شك هو أن عبثهن فى الجنس أبقاهن بعيدات عن العبث فى السياسة. وسبب آخر هو أن الزوج الرومانى لم يعنه كثيرا ما تفعله زوجته طالما أنها لا تورطه فى مشكلات. لكن السبب الأهم هو أن عدد النساء لم يكن كافيا. ما كان يجذب الرجل للزواج هو فكرة الحصول على الابن والوريث. وضمان ربح أموال فى صورة المهر التقليدى. لا يهم ما يشعر به لاحقا تجاه زوجته. إذا أراد أن يحتفظ بمهرها فالوسيلة الوحيدة المؤكدة لفعل ذلك هو أن يحتفظ بها هى الأخرى. لذا كانت المنافسة شرسة بين الرجال. ولم تظهر كلمة فى اللاتينية تقابل الكلمة الحديثة "عانس".

مشكلات السكان

وفقا لكاسيوس ديو• كان عدد النساء يقل كثيرا عن الرجال بين المولودين أحرارا فى الأيام الأولى للإمبراطورية. ويقدر البعض الفارق بينهما بما يصل إلى ١٧

• كاسيوس ديو: Cassius Dio مؤرخ رومانى عاش فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين (المترجم)

بالمائة.[١٩] ربما كان السبب الرئيسى هو نظرة الآباء إلى البنات باعتبارهن ترف مكلف- ذكر أن معدل المهور المعتاد بين الأغنياء بلغ مليون سيستيرس*. أى نحو سبعين كيلوجراما من السبائك الذهبية تدفع على ثلاثة أقساط سنوية. عندما كان "سيسيرو" يدبر مهر ابنته "توليا" أصبح وضعه المالى يائسا للغاية مع استحقاق القسط الثالث حتى أنه فكر فيما إذا كان من الأفضل أن يرتب لطلاقها.[٢٠] كانت المهور أقل بالطبع بين المواطنين الأقل ثراء لكنها غالبا ما ظلت كبيرة نسبيا.

فرضت أقدم قوانين روما- المعروفة بـ"قوانين رومولوس"- على الآباء تربية كافة أطفالهم الذكور وأولى الإناث. وحتى وقت طويل من العهد الامبراطورى كان ذلك ما يفعله كثير من الرومان. كانت ثمة أماكن فى المدينة — مثل أسفل عمود لاكتاريا- مخصصة للتخلى عن الأطفال غير المرغوب فيهم وهم عادة من البنات. لكن بعضا منهم كانوا صبيانا غير شرعيين أو مشوهين أو نذير شؤم. قليل منهم ربما التقطهم غرباء وتبنوهم أو ربُّوهم كعبيد. لكن معظمهم كانوا يتركون ليلقوا حتفهم فى سلالهم جوعا أو بردا.[٢١] لم يُمنع قتل الأطفال الرضع بتركهم فى العراء حتى القرن الرابع. وحتى بعد ذلك كانوا يتبعون وسيلة لا تقل قدما أو فاعلية. وهى التجاهل البسيط للطفل. وكانت النتيجة المحتومة للقضاء على الفتيات الصغيرات هو نقص فى أمهات المستقبل بين الأجيال التالية. مما كان له الأثر على أعداد السكان.

رغم تعرض الأطفال الإناث إلى التمييز. فلم يكن ثمة حماس للأولاد فى المقابل. إذ لم تفضل أى من الطبقات الخمس للمجتمع الرومانى الأسر الكبيرة. ولم يكن نادرا بأى حال أن يظل زوجان دون إنجاب-سواء باختيارهما أم رغما عنهما. وعندما كتب المعاصرون عن حالة سيمبرونياس جراتشوس وزوجته كورنيليا واللذين أنجبا اثنى عشر طفلا لم يبق سوى ثلاثة منهم على قيد الحياة بعد مرحلة الطفولة المبكرة. لم يكن ارتفاع معدل الوفيات هو الذى أثار انتباههم. بل ارتفاع معدل الخصوبة.

كانت الطبقتان الأعليان من المواطنين تتألفان من النبلاء —أبناء العائلات الكبيرة- والفرسان Equites وهو لقب من بقايا أيام شكلوا فيها الطبقة العليا من ملاك الأراضى الذين كانوا يمدون الدولة بالخيول فى أوقات الحروب. وتحولوا الآن إلى بارونات الأعمال والتجارة فى الإمبراطورية. كانت مسألة تقسيم الأراضى

* سيسترس: عملة رومانية قديمة. (المترجم)

أو الأعمال كابوسا دائما لدى رجال الطبقتين. وهى عملية لا مفر منها فى حالة إنجاب عدد كبير من الورثة. باستثناء أوقات الحروب حيث يرتفع معدل الوفيات بدا أن ولدين فقط رقما كافيا. يرث أحدهما ويبقى الآخر احتياطيا فى حال أصيب الأول بمكروه.

الطبقة الثالثة من المواطنين كانت تغطى نطاقا واسعا. بداية من الحرفيين المرتاحين ماديا. مرورا بالشخصيات الثقافية والأدبية التى كانت غالبا معدمة (ومن ثم ناقمة على الحياة). وحتى سكان الأقاليم الذين كانوا يعتمدون فى قوت يومهم على معونات الدولة. كانت النظرة الاقتصادية للأسرة لدى المجموعة الأولى شبيهة للغاية بتلك التى تبناها النبلاء والفرسان. والثانية ضمت معظم المعارضين الأعلى صوتا لمؤسسة الزواج. أما الثالثة فلم تستطع تحمل نفقاته من الأساس. كانت حصة الخبز Annona تمنح للرجال فقط. ولا تشمل الزوجات أو الأطفال.

العبيد والمُعتقون شكلوا الطبقتين المتبقيتين من المجتمع. ولم يتمتع أى منهم بالمواطنة. لقد ندر أن يتزوج العبيد حيث كان عدد الرجال يتجاوز كثيرا عدد النساء، ولم يكن سادتهم ليوافقوا بأى حال. رغم أن بعضهم شجع نظام التسرى كوسيلة لزيادة قوة العمل بأقل تكلفة. أما المُعتقون- وهم العبيد الذين اشتروا أو مُنحوا حرية مقننة- فكانوا طائفة مثيرة للاهتمام. رغم أنهم كانوا يعتبروا أجلافا إلى حد كبير كما أشار إلى ذلك كُتاب مثل بيترونياس- ربما لأنهم تمتعوا بدرجة عالية من الفطنة فى الأعمال وأصبح بعضهم من الأغنياء. إذا أراد المعتقون الزواج لم يكن أمامهم من خيار سوى المُعْتقات اللاتى كن قليلات فى العدد ومستقلات فى العقل على حد سواء. ولما كان من غير المعتاد أن يحصل العبيد على حريتهم فى الصغر. كان احتمال ألا تسفر تلك الزيجات عن عائلات كبيرة هو الاحتمال الأرجح.

كانت الضغوط الاجتماعية تعمل غالبا ضد إنجاب الأطفال. بل ضد الزواج نفسه. لكن كانت ثمة ضغوط شخصية أخرى. اضطرت روما بداية أن تسن تشريعا ضد العزوبة فى وقت مبكر عام ٤٠٣ ق.م. كان أحد الأسباب هو غياب الاستقرار بسبب الحروب المتتالية. أما السبب الآخر -دون شك- فكان أن شعب إيطاليا تعلّم الكثير من الإغريق الذين استقروا فى خليج نابلس. أكثر من مبادئ النهجاء وأسماء الآلهة الواردة فى ملاحم هوميروس. فى العصور الإمبراطورية كان فى روما عدد من اللوطيين الذين تميزت بهم أثينا، فيما كان كثيرون آخرون مثليين أحيانا

ومغايرين أحيانا بحسب ما تتيح لهم الفرصة. ومن بينهم الشاعران هوراس ومارتيال.

الرومان الذين اختاروا الزواج وقرروا تكوين عائلة من اثنين- أو ربما ثلاثة- سيصبحون غير قادرين نفسيا على ترك الأمر بيد الآلهة. إذ كانوا يتفاخرون بتفكيرهم المنطقى. ووجدوا متعة حقيقية فى صياغة قوانين دقيقة ومنظمة. حتى وإن كانت ثمة متعة أكبر تكمن فى التفكير فى وسائل الالتفاف حولها. لقد استنكروا ترك الأمور للمصادفة. يشير المؤرخون المقتنعون أن الرومان لم يستخدموا وسائل منع الحمل إلى أن كتاب فن الحب Ars Amatoria لأوفيد- والذى يعد دليلا محدودا ومشتتا للنساء المستهترات• - لم يذكر مثل تلك الوسائل (وهو أمر حكيم لما كان قراؤه يعلمون ربما عن الأمر أكثر مما يعلمه هو). كما لم يذكرها الشعراء أو الفلاسفة أو كتاب الخطابات الرومان إجمالا. بالطبع كان جوفينال هو الاستثناء. كان بمقدوره دائما أن يجد سببا لذكر أى شىء قد يشكل هدفا فى مرمى الخطايا البشرية.

كثير من المعلومات حول منع الحمل كانت متوافرة لمن يحتاج لها. أو يظن أنه فى حاجة إليها. خاصة بين الطبقات العليا المتعلمة. مع ذلك وفى ضوء الاتجاه العام للعلاقات بين الأزواج والزوجات ربما كان الشكل الأكثر استخداما واعتمادية بين الجميع هو الامتناع عن الممارسة. كان البديل الأساسى هو قطع الجماع Coitus Interruptus -خاصة بين الرجال الذين أرادوا أن يشعروا بأنهم يتحكمون فى الموقف. بينما اعتمدت العاقلات من النساء على زيت الزيتون الذى نصح به أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد بدلا من الوسيلة التى نسبها لوكريتيوس• للعاهرات بعدها بثلاثمائة عام. كانت العادة -كما ذكر لوكريتيوس- أن يمسوجن أردافهن أثناء الجماع ما يمنح شركاءهم المتعة وفى الوقت نفسه يوجه

• فن الحب: فى الواقع هو أكثر من ملخص ساخر لفن الغزل. ليس الحب. وبالتأكيد ليس الجنس. والمنطقة التى اقترب فيها أكثر من الصراحة هى فى قسم مختصر حول كيف يمكن للنساء استعراض أجسادهن بطريقة تتجلى مزاياها فى الفراش. "من أصابت نعمة طول الفخذ فى الفراش / لتجثو وتحنى رأسها للخلف/ أما ذات الردف الصغير والصدور الكاملة/ فلتأمر عشيقها أن يقف. ولترقد مائلة...." (٢٢)

• لوكريتيوس: Titius Lucretius شاعر رومانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد ووضع كتاب "فى طبيعة الأشياء" (المترجم)

السائل المنوى بعيدا عن المنطقة الخطرة.[٢٣] فى الواقع توضح الأدلة المستقاة من رسومات المزهريات اليونانية أن المحظيات عرفن طريقة أفضل. فإذا لم يعارض زبائنهن بشدة كن يصممن على ممارسة الجماع الشرجى.[٢٤]

لم يستطع بلينى -رجل الأخلاق الصلب الذى لا يلين- أن يقنع نفسه بتقبل منع الحمل إلا مع النساء اللاتى يعانين من زيادة الخصوبة. كان الحل الذى قدمه هو محاولة الحد من الرغبة فى الجماع. ولا ريب أن وصفاته كانت فعالة إلى حد كبير. وإن لم يكن ذلك لأسباب علمية: "روث الفئران... يوضع فى شكل بطانة" كان أحد الاقتراحات. وكان آخر يتعلق بتجرع إما فضلات حلزون أو روث حمام مخلوط بالزيت والنبيذ. فيما تطلب ثالث أن يؤخذ ديك مصارعة. فتقطع خصيتاه وتُدس مع بعض من دمه أسفل الفراش. بالإضافة إلى ذلك أشار إلى أن المرأة إذا مسحت أعضاءها التناسلية "بالدماء المأخوذة من القرادات (التى تعيش) على ثور برى أسود" فسوف تنتابها "كراهية للجماع".[٢٥] لكن سيكون عليها أن تمسك بالثور أولا.

ونجد اقتراحات لا تقل إثارة فى أعمال ديوسكوريديس -معاصر بلينى- التى ظل الناس يلجؤون إليها ويعتمدون عليها حتى القرن السادس عشر. لقد نصح بإدخال فلفل (لم تحدد الكمية) إلى فم الرحم بعد الجماع. ولا يتبين إن كان قد ظل ينسب خصائص علاجية إلى الفلفل الأسود مثل خَلَفيه ثيوفراستوس وهيبقراط. أم خطر له أنه مادام يُنصح بالعطس دائما كوسيلة لطرد السائل المنوى فستكون فكرة جيدة أن يتم تقريبه من المصدر. مع ذلك قد اقتربت إحدى تركيباته -لا ريب- من النجاح كما كان يأمل. إذ أكد أن الحمل لا يقع خلال الأيام الخمسة الأولى التالية للدورة الشهرية. أى فى الفترة التى تقول نظرية "الدورة الآمنة" -أو "الفاتيكان رولييت" -أن حدوث حمل فيها يظل ضئيلا للغاية ودون الحاجة لاستخدام العقاقير.[٢٦]

كان سورانوس من إيفيسوس طبيب أمراض النساء الذى عاش فى بداية القرن الثانى مصدرا يمكن الاعتماد عليه أكثر. تلقى دراسته فى مدينة الإسكندرية المتقدمة ذات الثقافة الرفيعة فى عهد مصر الإغريقية قبل أن يبدأ العمل فى روما. وعلى غير العادة فى ذلك العصر استطاع سورانوس التمييز بشكل واضح بين منع الحمل والإجهاض. كما نظر بعين الشك إلى جميع وصفات منع الحمل والإجهاض التى تؤخذ عن طريق الفم. ووصفها بأنها -بعيدا عن أى شىء آخر- تخرب

الهضم. كذلك لم يقتنع بالتمائم. ووصف خواصها السحرية بأنها مضللة• كانت الوصايا الأساسية لسورانوس تشجع استخدام سدادات الرحم الصوفية المنقوعة فى مواد صمغية (والتى تساعد على إبطاء حركة الحيوان المنوى) أو فى محاليل قابضة تهدف لقبض فتحة الرحم حتى تنغلق جيدا حول السدادة. لا شك أن التركيبات اختلفت فى مدى فعاليتها. وأن بعض المواد القابضة كانت تنفع لوقت قصير جدا. لكن الجمع بين الوسائل الموضعية والكيميائية كان حلا لا يقل جودة عن أى وسيلة سيبتكرها العالم فى قرون عدة تالية.

كانت أخطر نقاط الضعف فى تقنيات منع الحمل لدى النساء هى أنها نادرا ما كانت تسمح بجماع دون تخطيط. إذ ليس من السهل أن تجد صمغ الأرز. أو زيت الأفيون. أو صمغ الجلبينة فى متناول اليد فى الفترة المحمومة الفاصلة بين القبلة الأولى وإتمام العملية. ربما كان ذلك هو ما دعا الكثير من الكتابات الطبية للحديث عن الإجهاض (كانت النصائح المعتادة هى استخدام مواد مثيرة للغثيان. أو رج الجسد). تعرض سورانوس لكل شىء. وفى هذا الصدد نصح قائلا "على المرأة فى لحظة الجماع عندما يقذف الرجل سائله المنوى أن تكتم نَفَسها. تسحب جسدها للخلف قليلا حتى لا يستطيع السائل المنوى اختراق فم الرحم. ثم تنهض وتجلس فورا بركبتين محنيتين. ثم تحاول العطس فى ذلك الوضع." لحسن الحظ فقد نصح أن تتبع المرأة ذلك بـ"دوش" كامل. والذى ربما كان له بعض التأثير.[٢٨]

ثمة نظرية قائمة على إحدى روايات أسطورة مينوس وباسيفي• تقول إن الرومان ربما اخترعوا الواقى الذكرى بالفعل. واستخدموا مثانة الماعز لذلك الغرض.[٢٩] ما من سبب يمنعهم من التفكير فى ذلك. لكن ما يجعل الأمر مستبعدا هو أن ذكره لم يأت حتى القرن السادس عشر.

إجمالا كانت النصائح المتاحة للأقلية المتعلمة كثيرة. حتى وإن كانت لا تختلف فى فعاليتها عن العقاقير التى تصنعها الساحرات المحليات فى أحوال

• أوضحت الأجيال التالية رغبة مستمرة فى ذلك التضليل. إذ قال أيتيوس من أميدا فى القرن السادس "ضع جزءا من رحم لبؤة فى أنبوبة من العاج وارتديها تلك طريقة فعالة للغاية." [٢٧]

• مينوس وباسيفى: Minos and Pasiphae مينوس ملك كريت ابن زيوس وبيروبا. وزوجته باسيفى التى ضاجعت الثور الأبيض وولدت المينوتور (نصف إنسان ونصف ثور) (المترجم)

عدة. فرغم أن الرومان ربما استخدموا موانع الحمل. يظل هناك احتمال مماثل أنهم لم يحتاجوا لها.

كان فشل الرومان فى إقامة عائلات يرجع إلى عوامل إرادية وغير إرادية. إذ كانت معدلات الوفيات مرتفعة. وفى المقابل كانت الأعوام المتاحة لحمل الأطفال قليلة. ورغم عدد السادة الكبار أصحاب اللغة المقعرة الذين أرهقوا عدة أجيال لاحقة من أولاد المدارس بلاتينيتهم. كان معظم الرومان —مثل من عاشوا قبل العصر الحجرى الحديث— يموتون عادة قبل الثلاثين. كان معدل الوفيات يتراوح حول عشرين بالمائة. وتكدس عشرة بالمائة من سكان إيطاليا فى روما نفسها فريسة لا حول لها ولا قوة لأى فيروس يغزو المدينة.[٣٠] فى منتصف القرن الثانى الميلادى جلب الجنود الجدرى من بلاد الرافدين. ولم يكن لدى الإيطاليين مناعة. وفقدت بعض البلدان والأقاليم نحو ثلث سكانها. بعدها بمائة عام ضرب وباء آخر البلاد. ربما كان الحصبة —وهو وباء قاتل لمن يتعرض له للمرة الأولى. وبلغ إجمالى الوفيات فى مدينة روما فى ذروة الوباء أكثر من خمسة آلاف يوميا.[٣١] وكما هى العادة عانى الضعفاء أكثر من غيرهم: النساء والأطفال من الطبقات الأكثر فقرا.

لكن النساء والأطفال من كافة الطبقات عانوا من نقص الرعاية الطبية اللازمة مثلما عانى أسلافهم. وربما أكثر. إذ أن التوترات والضغوط التى تميز حياة الحضر —والتى بسببها لم يعد الحمل ظاهرة "طبيعية" فى الغرب اليوم— ظهرت دون ريب فى روما. التى كانت أول مدينة على الطراز الحديث فى العالم بسكانها البالغ عددهم ثلاثة أرباع مليون نسمة. وحتى عندما كانت النساء تحمل. كن يعانين كثيرا من الإجهاض. أو صعوبات الوضع. أو عدوى ما بعد الولادة. أما الأطفال الذين ينجون من الموت لدى الولادة فكانوا يظلون فى مرحلة الخطر ليس لأيام ولكن للسنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياتهم.

كانت "اضطرابات نسائية" غير محددة وراء العديد من الوفيات. ورجّحت أبحاث طبية حديثة أن ثمة احتمال لم يدرس من قبل. فالغشاء الذى يغطى عنق الرحم يكون غير ناضج وحساس فى الفتيات المراهقات. ويُعتقد أن اتصاله بالمنى يسبب له التهيج. ولا تزداد مقاومته إلا فى سن العشرين. وهناك أدلة ترجح أن الاتصال الجنسى المبكر —من ثم— لا يزيد من خطر الإصابة بسرطان عنق الرحم فحسب. بل وفى سن مبكرة أيضا. فى بريطانيا ومنذ بدء استخدام حبوب منع الحمل ظهرت زيادة ملحوظة فى عدد وفيات الفتيات تحت العشرين نتيجة للإصابة بسرطان عنق الرحم. رغم تراجع الوفيات فى المجموعات العمرية

الأخرى بنسبة ١١ إلى ١٥ بالمئة.[٣٢] ورغم نضجهن المبكر قليلا فلابد وأن الفتيات الرومانيات تعرضن للخطر نفسه. وخاصة بنات الطبقات العليا اللاتى كن يتزوجن عادة فى سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر. للمرة الأولى يكون الفقراء أقل عرضة للخطر. إذ يتأخر زواجهم لأن الشباب يرسلون عادة إلى الخارج مع فيالق الجيش المحارب أو القوات المساعدة. أما من يبقون فى الوطن فلا يستطيعون تحمل تكاليف الزواج فى سن صغيرة.

تلك جميعها كانت عوامل عامة تؤثر فى عدد حاملات الأطفال المحتملات. وعدد سنوات خصوبتهن. لكن هناك بالتأكيد مخاطر غير معروفة تتعلق مباشرة بالعقم أو العجز الجنسى. وقد أثرت أساسا -للمفارقة- فى أولاد الطبقات العليا. الذين كانوا أكثر عرضة لدخول سوق موانع الحمل.. الأثرياء الذين يعيشون حياة حرة.

عام ١٩٦٦ أوضح عالم الاجتماع الأمريكى سيبيرى كولام جيلفيلان Seabury Colum Gilfillan بالأدلة المقنعة أن الطبقات العليا الرومانية عانت دون ريب من تسمم الرصاص المزمن. وأمراض يمكن أن تسبب العقم للرجال وتؤدى إلى الإجهاض وولادة أطفال موتى بين النساء.[٣٣] كذلك أوضحت الفحوصات السريرية والمعملية عام ١٩٧٨ أن تسمم الرصاص -حتى بمستوى منخفض للغاية- له أثر مباشر على نقص القدرة على التعلم. وفقدان التركيز. وسوء السلوك لدى الأطفال.[٣٤] وهو ما سوف يؤثر على تطور شخصية الأطفال الرومان. بعيدا عن آثار جسدية أخطر قد تعبر عن نفسها أكثر مع زيادة تناولهم للرصاص بتقدمهم فى العمر.

كانت أجساد الرومان تمتص الرصاص من المياه التى تجرى فى مواسير الرصاص لديهم. ومن الكؤوس وأوانى الطهى. ومن معدات التجميل -مثل الرصاص الأبيض الذى استخدمته النساء كمسحوق للوجه. ومن النبيذ الذى كانوا يشربونه. لتحسين النبيذ الرومانى -وهو عادة حاد المذاق- كثيرا ما كان يضاف إليه شراب حلو من العنب بعد أن يغلى فى أوانى مبطنة بالرصاص حتى يصل إلى القوام المطلوب. وأثناء تلك العملية يصبح أيضا ملوثا بقوة بالرصاص.

مع ذلك لم يكن محتوى الرصاص فى الماء والنبيذ فحسب هو الذى ساهم فى غياب الخصوبة لدى الذكر الرومانى. فكما قال شكسبير فى ماكبث قد يزيد الكحول من الرغبة لكنه يحد من القوة الجنسية. ويعتقد علماء اليوم أن للكحول كذلك تأثير سام مباشر على الخصيتين. وأنه يسبب تراجعا أساسيا فى إفراز

الهرمون الجنسى الذكرى: التستوستيرون. أوضحت دراسة أمريكية أجريت على ١٤ ألف مدمن للكحوليات من الذكور على مدار ٣٧ عاما أن ما يقرب من واحد لكل عشرة عانى من عجز جنسى كامل.[٣٥]

كان الرصاص فى جسد الرومان أكثر من أن يتم تجاهله، حتى لو لم تكن عربدتهم بالدرجة التى وُصفوا بها فيما بعد. كان هناك بالطبع ذوى الميول الاستعراضية- جاء أن نوفيليوس توركواتوس ابتلع عشرة لترات مرة واحدة- لكن على المستوى اليومى كان بعض الرجال يبدأون الشرب عصرا فى الحمامات. ولا يتوقفون قبل بزوغ الفجر. وتوصل الشاعر مارتيال-وهو يتساءل ما الذى دفعه أن يدعو شخصا لا يحبه على العشاء- أن البانيتات* الخمسة التى شربها من النبيذ هى السبب. كانت نسبة الكحول فى النبيذ الرومانى نحو ١٧ بالمائة (أى نحو خمسى قوة المشروبات الروحية الأمريكية ذات الثمانين بالمائة أو البريطانية ذات السبعين بالمائة). أى أن البنتات الخمسة من النبيذ التى شربها مارتيال كان لها بالتأكيد قوة نحو زجاجة ونصف من الويسكى أو الجين. وحتى لو كان شربها مخففة بالماء-مثلما كان يفعل كثير من الرومان- تظل كمية لا يمكن تجاهلها. فى الواقع إذا كان ماريتال ومعاصروه يشربون ما يقارب هذا المعدل، فلابد وأنهم قد اقتربوا للغاية من إدمان الكحول بدرجة تجعلهم يعانون من التأثيرات السامة إن لم يكن العجز الجنسى الكامل. فتناول الكحوليات يصل لمعدل "الخطر" إذا بلغ ما يقدر بنصف زجاجة من ويسكى البوربون يوميا على مدار خمسة أو عشرة سنوات.[٣٦]

إذا نجا الرومان من العقم من تسمم الرصاص، فمازالوا يواجهون خطر انخفاض الخصوبة أو العجز الجنسى بسبب الإفراط فى الشراب. لكن حتى ذلك ليس كل شىء. ففى كل مرة يذهب فيها الرومانى إلى الحمامات يجازف مجددا بحياته الجنسية. ومعظم الرجال كانوا يذهبون يوميا.

الغرفة الأولى التى كان الرجال يلجونها بعد خلع ملابسهم هى "الغرفة الدافئة" Tepidarium. حيث يتم التحكم فى درجة الحرارة عن طريق أنابيب هواء ساخن مطمرة فى الأرضيات والحوائط. بعدها يمر فى "الغرفة الساخنة" Caldarium والتى يجرى تسخينها بنفس الأنابيب ولكن لدرجة

* البانيت: يساوى ثمن جالون أو نصف لتر تقريبا (المترجم)

حرارة أعلى. تلك كانت الغرفة التى تحوى حوض الاستحمام. والذى وصفه سيبسا بأنه كان ساخنا لدرجة أنه يكاد يصلح وسيلة لعقاب عبد خاطئ بأن يُغسل فيه حيا. وشكا قائلا إن الناس فى تلك الأيام لا يتورعون عن اتهام شخص مثل سيبيو بأنه ريفى "لأنه لا يتصبب عرقا فى ضوء النهار الكامل ويستمتع بأن يُطهى فى حمامه." [٣٧] فى تلك الأماكن كانت تمضى ساعات الاستحمام. حيث التناوب بين الغطس فى الماء والتعرق على المصاطب المحيطة به. وأخيرا عن طريق الغرفة الدافئة الأقل حرارة يتقدم المستحم فى طريقه نحو "المغطس البارد" Frigidarium إذا كان عزمه قويا بما فيه الكفاية.

لسوء الحظ يبدو أن الحمامات الساخنة تقلل الخصوبة عن طريق منع إنتاج الحيوانات المنوية. فدرجة الحرارة الطبيعية للخصيتين أقل من بقية الجسد. وأوضحت التجارب الأخيرة فى ولاية كانساس أنه إذا ارتفعت درجة الحرارة حتى إلى درجة الجسم العادية (٣٧ درجة مئوية أو ٩٨ فهرنهايت) يكون ذلك كافيا للتأثير على الخصوبة. ويبدو أن درجة حرارة "الغرفة الساخنة" الرومانية كانت تتراوح حول ٤٣ درجة مئوية أو ١١٠ فهرنهايت. أثناء التجارب فى تكساس نجح رجل ظل عقيما لعامين أن يصبح أبا بعد نحو أسبوعين (أو لمزيد من الدقة بعد تسعة أشهر بعد الأسبوعين) من أخذ حمامات باردة طويلة بدلا من الحمامات الساخنة الطويلة. وباتباع العلاج نفسه استطاع رجلان آخران أن ينتجا ضعف كمية الحيوانات المنوية السابقة. بل وصارت الحيوانات المنوية نفسها أكثر نشاطا. [٣٨]

علينا أن نتروى فى تطبيق النظريات المنطقية الحديثة والتجارب ضيقة النطاق على الأحداث الماضية، لكن من الخطأ أن نتجاهلها ببساطة. مثلما يتجاهل أحد المصادر تسمم الرصاص مثلا بحجة أنه "إذا كان ذلك صحيحا. فلابد وأن المقاومة الشخصية للمرض كانت متباينة بشكل ملحوظ. كانت المياه التى يشربها المجتمع تجرى عبر نفس الأنابيب الرصاصية. وداخل كل طبقات المجتمع كان الطعام يطهى فى نفس نوع الأوانى". [٣٩] لكن رجلا شرب كمية مياه قليلة وقليلا من النبيذ لم يتم تحليته بشراب العنب كان أقل عرضة بالطبع للتسمم الرصاصى. بينما كانت المرأة التى تجمل نفسها عدة مرات فى اليوم باستخدام بودرة الوجه أكثر عرضة. إن تحليل ما يعرف بالعادات الشخصية لزوجين رومانيين محددين يمكن أن يوفر الإجابة. فى الوقت نفسه ربما تجدر الإشارة إلى حالة أجريبا وجوليا اللذين أنجبا خمسة أطفال. وجيرمانيكوس وأجريبينا اللذين

أنجبا ثمانية. ففى الحالتين قضى الزوجان معظم سنى نضجهما فى الخارج بعيدا عن روما بأنابيبها الرصاصية وحماماتها الساخنة. وبدا أن كليهما كان معتدلا فى الشراب. وصف تاسيتوس• جيرمانيكوس بأنه "معتدل فى الاستمتاع" وأجريبا بأنها امرأة صارمة من المدرسة القديمة.[٤٠]

كان الرومان يدركون جيدا خطر تناقص عدد المواليد. وبداية من القرن الثانى قبل الميلاد سكنهم ذلك الهاجس. كان من السهل على سيسرو أن يدعى أن ما يحتاجون إليه هو "رغبة أقل وعائلات أكبر".[٤١] لكن كانت ثمة حدود لما يمكن أن تحققه التشريعات.

قام الإمبراطور أغسطس بمحاولة. فبموجب قوانين عام ١٨ ق.م –والتى تبعتها قوانين أخرى مكملة فى العام التاسع الميلادي– كان على الأرامل أن يتزوجن فى غضون عامين والمطلقات فى غضون ١٨ شهرا•. وحُرم الرجال العزاب من الميراث. أما الأزواج الذين لم ينجبوا أثناء سنى خصوبتهم فكانوا يُحرمون من نصف ميراثهم. كانت العادة القديمة التى تحكم الزيجات بين الطبقات قد صارت أقل صرامة. وأصبح من الممكن لرجل وُلد حرا (عدا أبناء عائلات نواب مجلس الشيوخ) أن يتزوج من جارية مُعتقة. ورصدت مكافآت للأزواج الذين لديهم ثلاثة أطفال على قيد الحياة– وكانت "على قيد الحياة" تضم أى أبناء قتلوا فى الحرب•. فى الريف كان يلزم وجود أربعة أطفال للتأهل. وخارج شبه الجزيرة خمسة. كذلك تم تشجيع العبيد المعتقين على التكاثر مثلهم مثل المواطنين. إذا أنجبوا طفلا واحدا كان عليهم أن يورثوا نصف ممتلكاتهم للكهم السابق. وإذا أنجبوا طفلين يورثونه الثلث. أما إذا أنجبوا ثلاثة فلا يرث شيئا منهم. وبات الزنا أمرا من شأن المحاكم العامة وليس العائلة. وكافة الممتلكات التى تضيع على

• تاسيتوس: Publius Tacitus مؤرخ رومانى وعضو مجلس شيوخ عاش فى القرن الأول وبدايات القرن الثانى الميلادى (المترجم)

• ظلت نفس القواعد العامة تطبق فى أوائل القرن التاسع عشر فى بولندا. رغم أن الهدف كان الكفاءة الزراعية. كان على أرملة المزارع أن تتزوج فى غضون عام أو تتعرض مزرعتها للبيع. كما كان أمام الرجل الذى لديه أطفال صغار دون زوجة ستة أشهر فقط ليتزوج وإلا ضاعت ممتلكاته.[٤٢]

• طبق "حق الأطفال الثلاثة" فقط فى مدينة روما. وسرعان ما تحول إلى مكافأة متعددة الأغراض على حسن السلوك. وقد منّ بها الإمبراطور دوميتيان على مارتيال الذى لم ينجب على الإطلاق.

الورثة وفقا للقانون كانت تذهب للخزانة- وهو دون شك أحد الأسباب التى جعلت القوانين تظل سارية حتى بعد أن ثبت فشلها.[٤٣]

بدا أن للتشريع بعض التأثير على الجو الصاخب لحياة الطبقة العليا فى المدينة نفسها. وهو ما كان من حسن الطالع. إذ انطلق أغسطس يستخدم عددا لا بأس به من الاستعارات الذكية بشأن الرجوع إلى الأخلاق القديمة. لكن لم يكن لتلك التشريعات أدنى تأثير على معدل المواليد. كان الرومان فى الواقع يحاولون وضع الضغوط الاجتماعية لحل مشكلة كانت طبية بقدر ما هى اجتماعية. طبية بدرجة تميز روما مثلما تميز المجتمع الرومانى نفسه.

لقد عانت مجتمعات قديمة أخرى من قصر الأعمار، وارتفاع عدد الوفيات بسبب المجاعات والأوبئة والحروب، من "الاضطرابات النسائية" التى تنبع من الخبرات الجنسية المبكرة. ومن التوجهات الاجتماعية (مثل اللواط الأثينى) التى تمنع الإنجاب. أحيانا كانت أرقام السكان تغوص لأسفل -مثلما فى اليونان- ولكن ليس بدرجة قاتلة أو دائمة.

كان ثمة شىء محدد فى المجتمع الرومانى تسبب فى انخفاض عدد السكان. جزئيا كان ذلك الشىء هو غريزة الأثرياء المرفهين- والتى ستتجلى كثيرا فى التاريخ اللاحق- لتقليل إنجاب الأطفال لمصلحتهم ومصلحة الجيل التالى لهم. كانت تلك الغريزة تعمل بأشكال لا تعد، وغالبا غير محددة. وكانت موانع الحمل مجرد وجه من أوجهها. جزئيا أيضا كانت هناك الضغوط الجديدة والمثيرة للأعصاب لحياة المدينة. وجزئيا -ربما- ظهر مزيج من الأعراض الجانبية النفسية الخفية. اعتبره الرومان أنفسهم ثمنا متفقا عليه للحياة الطيبة. الحياة التى استحقها هؤلاء الرجال الذين وسعوا كافة حدود العالم المعروف بانتصاراتهم. ورغم أن أنابيب المياه والحمامات الساخنة والإفراط فى الخمر قد تبدو أسبابا تافهة، فربما كان لها مكان بين أعظم العوامل التى أثرت فى التاريخ.

وفقا لأحدث تحليل كان نقص القوة البشرية هو الذى أدى إلى سقوط روما، بالإضافة إلى انحدار العملة حتى صارت دون قيمة تقريبا. كان على روما التى عجزت تماما عن حراسة حدود إمبراطوريتها أو -تسيير الأمور داخل تلك الحدود بشكل مباشر- أن تستعين بـ"البرابرة" الذين كانوا يكرهونها ويحسدونها فى نفس الوقت. وكان توغل أولئك البرابرة إلى إدارة الإمبراطورية هو ما أدى إلى التفكك النهائى لما كان يوما أكثر هيكل أنشأته يد الإنسان روعة ومنطقية.

٦- الكنيسة المسيحية

تفكك الإمبراطورية الرومانية كان عملية تدريجية. مسألة تآكل بطيء وخمود هادئ. ورغم أن عام ٤١٠ -الذى نُهبت فيه مدينة روما نفسها على يد ألاريك القوطى- يشار إليه أحيانا على أنه نقطة التحول. فقد انتهى العصر الرومانى واقعيا وبدأ عصر جديد قبل ذلك بنحو قرن عندما عقد الإمبراطور قسطنطين حلفا بينه -وبالتالى بين دولته- وبين الكنيسة المسيحية.

كان قرار قسطنطين سياسيا بقدر ما كان دينيا. فالجيش الذى اعتمد عليه أسلافه للحفاظ على تماسك الإمبراطورية شارك فى هدمها. كذلك لم يكن القانون الرومانى ولا نظم النقد والتجارة الرومانية على مستوى التحدى. وبدا أن المسيحية وحدها- ديانة أجنبية تَغيّر مظهرها عبر نحو ثلاثة قرون من التبشير داخل الإمبراطورية- تحمل بعض الأمل فى توحيد ذلك الخليط العظيم من الشعوب غير المتجانسة داخل الحدود الرومانية الشاسعة الممتدة من أراضى اسكتلندا الواطئة فى أقصى الشمال الغربى إلى السواحل الآسيوية على البحر الأسود فى الشرق.

الكنيسة التى سارت على خطى الإدارة الإمبراطورية فى تنظيم نفسها بالأبرشيات والمقاطعات المقابلة للتقسيم الرومانى كان لديها مقومات السلطة العاملة. وقد ثبتت صحة قرار قسطنطين على المدى البعيد. فمع تفتت الإمبراطورية الأوروبية إلى ممالك مستقلة -وسريعة الزوال غالبا. ومع انكماش الأراضى التى حكمها أسلافه من "روما الجديدة" القسطنطينية (البيزنطية) إلى هالة تحيط بالبوسفور. نجحت الكنيسة فى الوقوف راسخة كما نجحت فى توحيد الشعوب غير المتجانسة للإمبراطورية. لكنها لم تفعل ذلك لمصلحة روما.

أثناء القرون التى سادها الارتباك واكتنفها الغموض بين عامى ٤٠٠ وألف ميلادية. حدث تحول فى عدد السكان. وجاء حكام وذهبوا. وتغير وجه أوروبا بأكمله. وتغير ثانية. لكن الكنيسة المسيحية -برسالتها الجليلية المطعمة بتراث الواقعية البابلية. والسلطة المطلقة Absolutism العبرانية. والأفلاطونية الإغريقية. والمادية الرومانية- عاشت وتوسعت كقوة واحدة متماسكة فى عالم غير

مستقر. وأثبتت الكنيسة المسيحية على كافة الأصعدة تقريبا -حتى الصعيد العسكرى المتمثل فى الحملات الصليبية- أنها الخليفة الحقيقية للإمبراطورية الرومانية.

فى ظروف سياسية أخرى ربما استطاعت الأخلاقية المسيحية اكتساب تلك القبضة التى سيطرت على الفكر الغربى بأكمله. قبضة قوية لدرجة أنها لم تبدأ فى الانبساط سوى الآن. لكن فى الحالة الأوروبية أثناء القرون التى أعقبت انهيار روما كان هناك عاملان جعلا النتيجة محتومة تقريبا. وهما الغياب العام للقانون والنظام الذى تفرضه الدولة واختفاء التعليم من الحياة العامة والخاصة.

إن انهيار السلطة المركزية والارتداد إلى الاقتصاد القائم على المقايضة فى أوروبا اجتمعا معا ليقلبا المجتمع رأسا على عقب. أصبحت الحياة محلية إلى حد كبير. وكانت القوانين العلمانية لا تطبق أو غير قابله للتطبيق. لكن الكنيسة كان لها مصلحة قوية فى الاستقرار الاجتماعى. الذى كان بمقدوره وحده أن ينتج تدفقا مطردا من الأموال التى تحتاجها. وتقدم رهبان الأبرشيات ليملأوا الفجوة العلمانية بتعاليم مسيحية. كان القانون الأخلاقى الذى يطرحونه فى مواعظهم مدعوما بتهديدات الجحيم (وهى وسيلة أكثر ردعا مما تستطيع إنجازه أى هيئة لتنفيذ القانون). كما كان قانونا كونيا. يسرى فى القرية كما فى المدينة. وفى المقاطعة التالية كما فى البلد التالى. بهذه الطريقة وعلى مدار عدة قرون لم تنتشر الأخلاقية المسيحية فحسب. بل توغلت أيضا داخل السلطة الاجتماعية والدينية.

كانت أخلاقية مستقاة أساسا من ثلاثة مصادر فحسب- أجزاء من العهد القديم. وكافة الجديد. وتعليقات وتأملات المفكرين المسيحيين الأوائل فيما يخص مناطق الشك فى النصوص الأصولية.

وبرغم مكانتهم فى جيلهم كان آباء الكنيسة مجرد بشر. وكانت خبرتهم محدودة. فى فترة سيادة العلم كانت آراءهم ستفند وتعدل وتعدل ثانية. لكن العلم والتعليم كانا أكبر ضحايا انهيار العالم الكلاسيكى. أثناء ما يسمى بعصور الظلام. باتت القراءة والكتابة حكرا على الأديرة. وأصبحت أهواء الكنيسة تقرر فعليا ما يجب أن يُقرأ أو يُكتب. كان كتبة الأديرة مشغولون تماما فى نسخ ما هو أصولى. وما ليس أصوليا-ببساطة-لم يصبح موجودا. وسواء كان ذلك عن عمد أم لا. فقد أوشكت الرقابة أن تصبح كاملة.

نتيجة لذلك ظلت كلمات وأطروحات آباء الكنيسة بعيدة عن المعارضة. ومن ثم -مع مرور الوقت- باتت غير قابلة للمعارضة. تأملاتهم -المتأثرة غالبا بنظرة شديدة الشخصية والتحيز للحياة والمجتمع- اكتسبت مسحة من الحقيقة المُنزَلة. وأخلاقيتهم -النسبية في أصولها- حققت حالة المطلق. لا ريب أنه إطراء (وإن كان غامضا) لرجال مثل القديس جيروم والقديس أوغسطين أن المفهوم السائد في العالم حتى اليوم عن "الخطيئة" لا ينبع من تعاليم يسوع الناصري. أو من الألواح التي نزلت في سيناء. ولكن من التقلبات الجنسية لحفنة من الرجال عاشوا في فجر أيام الإمبراطورية الرومانية.

النظرة الزاهدة للجنس

قال القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي "أود من كل رجل أن يتخذ زوجة لا تستطيع أن تنام وحدها لأن الخوف ينتابها ليلا."[1]

كان جيروم واحدا من أكثر آباء الكنيسة مهابة وتأثيرا (من على بُعد). وأكبر المحتقرين للزواج. ولم يكن وحده في ذلك. كما لم يكن الأمر مجرد رأي شخصي. نادرا ما ارتكبت الأديان التبشيرية خطأ التقليل من قيمة شيء قد يجذب إليها المهتدين. وكان الزهد الجنسي عنصرا مهما في التنسك الذي جذب شعوب العالم الروماني المنغمسة في الشهوات إلى المسيحية. وكذا إلى أديان شرق أوسطية أخرى. كانت معظم الأديان الأخرى تطلب من أتباعها زهدا مؤقتا فحسب. لكن المسيحيين شجعوا على أن يصبح هذا الزهد دائما•.

مبكرا في القرن الأول الميلادي أرسى القديس بولس قواعد الفكرة التي تقول إن العزوبة أسمى من الزواج، وقال منتقدا المجتمع المسيحي الصغير في كورنيث -أحد أقل مدن العالم القديم سكانا- على توجهه العلماني للغاية تجاه الجنس "ألا تعرفون أن أجسادكم هي أعضاء من المسيح؟ هل آخذ أعضاء المسيح وأجعل

• رغم أن ذلك لم يكن بشكل لا عودة فيه. عندما حل أوريجين السكندري مشكلة زهده الخاص نهائيا بإخصاء نفسه (إذا أخذنا إنجيل متى (إصحاح ١٩. ٢٢) حرفيا حين يتكلم عن الرجال الذين "خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات") فهو لم يضع حدا لحياته الجنسية فحسب وإنما لإمكانية إدخاله في عداد القديسين لاحقا -بسبب الموقف التوراتي الصارم من الرجال ذوي الأعضاء التناسلية المجروحة.

منها أعضاء عاهرة؟ حاشا للرب! ألا تعرفون أن من يربط نفسه بعاهرة يصبح وإياها جسدا واحدا؟ إذ كما هو مكتوب "يكون الاثنان جسدا واحدا" (رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس. إصحاح ٦. ١٥-١٦)

ربما كان أول مفكر فى تاريخ الغرب يساوى الروحانية بالجنس. رغم ما يبدو-أولا- من أنه قد أوقع نفسه فى ورطة. فإذا كانت المضامين الروحية تجعل الجنس مع العاهرات غير مقبول. يجب أن يكون الجنس مع الزوجات خبرة دينية مرغوب فيها. لكن بولس حل المشكلة بشكل منطقى حين أعلن أن العزوبة رغم ذلك حالة أكثر مسيحية. إذ أنها لا تستلزم واجبات دنوية قد تتداخل مع تكريس النفس للرب. ولكنه أدرك أنها تتطلب درجة من التحكم فى النفس لا يستطيع الجميع الوصول إليها. فقال لذوى الدم الحار "التزوج أفضل من التحرق (بالرغبة)" ونصحهم قائلا "وليوف الرجل المرأة حقها الواجب. وكذلك المرأة أيضا الرجل.... لا يسلب أحدكما الآخر إلا أن يكون على موافقة إلى حين. لكى تتفرغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا أيضا معا لكى لا يجربكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم" (رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس. إصحاح ٧. ٩ و٣-٥). فى الواقع لم يكن القديس بولس رجعيا مثلما أظهرته التفسيرات الأحدث لكلماته. كان فى الأساس رجلا من رجال عصره يعتقد أن الزواج يمكن أن يكون طيبا. لكن العزوبة أفضل- لمن يستطيع تحملها. بيد أن قادة الكنيسة تركوا تلك الشروحات تذوى ليتبقى فقط الهيكل الضعيف لأفكاره. لكن فكرة الزواج باركها الإله وطهرها المسيح. وكان قدرا معينا من الإبداع ضروريا لتبرير الأطروحة القائلة إن العزوبة أفضل. مع ذلك فلا دين دون تحديات ثقافية. وقد أثبت آباء الكنيسة أنهم على قدر التحدى. وساعدتهم فلسفات أخرى كانت شائعة فى ذلك الوقت- مثل الجنوسطية والمانوية. والتى تقول إن ما ينبع من الجسد إن هو إلا شر موروث. وكذا رأى سفيريان (أسقف جباله فى سوريا) القائل بأن النساء كلهن. والرجال من الوسط إلى أسفل. من خلق الشيطان.[٢]

ساعدهم أيضا الشيوع الكبير للأساطير الشعبية المذكورة فى أبوكريفا العهد الجديد. بقصصها الشعبية عن بدايات المسيحية ومغامرات الرسل. ليس الصور الإنجيلية الضبابية وإنما شخصيات تعبر عن نفسها وتقول بصراحة إن الجنس "تجربة من الحيّة" والزواج "طريق خاطئ وملوث للحياة."[٣]

من العوامل المؤثرة كذلك كانت التوجهات الشخصية البحتة لبعض كبار مفكرى المسيحية. ومن بينهم ترتوليان وجيروم وأوغسطين. الرجال الثلاثة الذين

تركوا-بجانب القديس بولس- التأثير الأكثر دواما على كافة الأفكار الجنسية المسيحية التالية. لم يكونوا نُساكا ذوى دم بارد بطبيعتهم. وإنما كانوا رجالا عاشوا حياة كاملة (وحياة جنسية كاملة) قبل أن يتحولوا إلى العزوبية. وقد أبدوا أحيانا ردود أفعال مَرضية تجاه الخطايا التى تابوا عنها الآن. جيروم مثلا لم يستطع نسيان العذاب البشع الذى لقيه أثناء الأوقات العصيبة التى قضاها فى صحراء كلسيس- الملجأ الشعبى بل والمزدحم قليلا لنساك القرن الرابع- عندما كان يحترق بالرغبة التى تتملكه. كانت خيالاته المحمومة تملأ صومعته بفرق من الراقصات. أما أوغسطين فقد اعترف أن صلاته للرب كانت دوما "امنحنى العفة- ولكن ليس بعد." [٤]

أوغسطين هو الذى لخص شعورا عاما بين آباء الكنيسة مفاده أن فعل الجماع أمر مقزز فى جوهره. وأسماه أرنوبيوس بالقذر والمنحط. وميثوديوس بغير اللائق. وجيروم بغير الطاهر. وتيرتوليان بالمخزى. وأمبروز بالدنس. فى الواقع كان ثمة إجماع مستتر أنه كان يجدر بالرب ابتكار وسيلة أفضل للتعامل مع مشكلة التناسل. واتخذ أوغسطين- الذى كان يشعر بالغيظ حين يتذكر خبراته الخاصة- قراره فى المشكلة وخلص إلى أن الخطأ يقع ليس على الرب وإنما على آدم وحواء.

وفقا لتفسير أوغسطين للقصة فإن الرب خلق الرجل والمرأة مخلوقين يتمتعان بعقل راجح. ويتحكمان فى رغبات جسديهما تمام التحكم. و"لا تفكروا أنه كانت ثمة إثارة خارجة عن السيطرة. أو أى حاجة لمقاومة الرغبة!". [٥] الجنس فى جنة عدن-إذا وجد من الأساس- كان رائعا ونقيا. دون شهوانية. دون انفعالات خارجة عن السيطرة، وبالتأكيد دون نشوة. كان ببساطة مجرد استخدام المعدات الميكانيكية التى صممها الخالق لإنجاز متطلبات عملية التكاثر بهدوء ونوع من التقدير العميق.

لكن عندما سقط آدم وحواء فى حبائل الخطيئة انتابتهما مشاعر جديدة وأنانية (أسماها أوغسطين الرغبة الملحة أو الشهوة) لم يتمكنا من التحكم فيها. كانت النتيجة الأولى لسقوطهما من الرحمة أن أدركا عريهما وأصابهما الخجل منه. وفسر أوغسطين هذا على أن عصيانهما للخالق قد انعكس فى صورة نشاط فجائى وإرادى من جانب أعضائهما التناسلية. كان عجزهما عن التحكم فى تلك الظاهرة الجديدة هو ما أدى بهما إلى حياكة أوراق التين لصناعة مآزر. وإخفاء ما يمكن أن نسميه الآن فرج Paudena (من الكلمة اللاتينية Pudere بمعنى يخجل). [٦]

اعتقد أوغسطين أن ذنب الخطيئة الأولى التى انتقلت عن طريق الرغبة الجنسية الموروثة لذرية آدم وحواء مازال ساريا فى البشرية. وأن ذلك يفسر انحراف واستقلالية الأعضاء التناسلية. والطبيعة الغامضة للمشاعر الشهوانية. والخجل الذى يصاحب عادة فعل الجماع. الشهوة والجنس كانا جزءا لا يتجزأ من تعاليم "الخطيئة الأولى". وكل فعل جماع قامت به البشرية بعد السقوط كان شرا بالضرورة. مثلما أن كل طفل يولد عنها يولد فى الخطيئة. ورغم أن الرب قد أفاض على الرجل الأول والمرأة الأولى بغريزة جسدية لا يُلاما عليها صممت لتضمن استمرارية النوع. تحولت الشهوة إلى شىء مثير للخجل.

كان من نتائج تلك النظرية الجديدة إعادة التأكيد على نقاء يسوع الناصرى. والذى جاء حمله غير ملوث بأى اتصال شهوانى. لكنها تضمنت أيضا أن أفضل آمال البشرية للخلاص يقع فى رفض الجماع. ومعه عبء الذنب الموروث عن آدم وحواء. العازب وحده يمكن أن يأمل فى تحقيق حالة الرضا الإلهى التى كانت تميز جنة عدن.

كان لزاما على الضعفاء الذين لا يتحملون حياة العزوبية أن يجاهدوا لاستعادة الغريزة الجسدية الأصلية النقية التى تحقق هدف الرب. أن يستخدموا الجنس دون عاطفة لينجبوا الجيل التالى من المسيحيين• ذلك الجماع المُغرض البارد الذى دعا إليه أوغسطين ربما يستحق الصفات التى استخدمها آباء الكنيسة لوصف الجنس بوجه عام—غير لائق، منحط. مخجل– لكن فى ذلك الوقت لم يكن هناك شىء أكثر ملاءمة للمناخ الثقافى.

بدأ أوغسطين فى إضفاء الشرعية على موقف آباء الكنيسة العنيف تجاه الجنس. ونجح فى تقديم مبرر أرضى كلا من الدين والعقل: فالجسد ليس أكثر من وعاء قاصر للعقل والروح. وبات بإمكان الكنيسة الآن أن تدعو للأخلاقية المسيحية على تلك الأسس. ومن ثم كانت لأفكار أوغسطين آثار غير محسوبة على حياة الأجيال القادمة. ليس بطريقة يمكن تفصيلها وشرحها بشكل منظم دائما. وإنما بطرق خفية تتمثل فى الضغط والإلحاح. رغم ذلك ظل أمر واحد واضحا من

• كانت الفكرة هى أن الجنس دون عاطفة "أفضل" من الجنس المصحوب بعاطفة. وقد أخذت منعطفا مثيرا فى العصر الفيكتورى. إذ دفعت بعض رجال الطب أن يخرجوا بفتوى أن الجنس مع العاهرات أقل أذى من الجنس مع الزوجات.

البداية: إن كان الاستمتاع بالجنس خطيئة. فإن الغالبية العظمى من الناس العاديين خطاة.

الزواج المقدس

من الواضح الآن أنه بات ضروريا أن يتسم القساوسة بالعفة. كانت العزوبية هى شعار السلطة الأخلاقية. لكن تحقيق ذلك لم يكن سهلا. ففى هذا الوقت كان يمكن قبول ترسيم الرجال المتزوجين قساوسة. لكن لا يحق لأى رجل أن يتزوج بعد ترسيمه. بالفعل فى عام ٣٨٦ ميلادية حاول البابا سيريكيوس – فيما يُعتقد أنه أول مرسوم بابوى موثق – أن يحرّم على شيوخ الكنيسة والشمامسة المتزوجين الجماع مع زوجاتهم•. لكن ذلك لم يؤثر كثيرا فيما يبدو. كما لم يؤثر القسم على إنكار الذات الذى كان عليهم أن يحلفونه لاحقا قبل الترسيم. فى الواقع. حتى لو كانت مثل تلك المحاولات قد حققت النتائج المطلوبة. فقد كان إنجازها الأكبر هو ما حققته لروح رجال الدين وليس لصورتهم الفعلية.

حاولت الكنيسة جاهدة حل المشكلة على مدار قرون عدة ولكن دون طائل. إذ لم تكن السلطة المركزية بالقوة التى تؤهلها للمجازفة باتخاذ خطوة ربما تثير عصيانا واسعا وشعبيا، خاصة وأن سجلها لم يكن خاليا من العيوب. (كانت البابوية فى صعود وهبوط. وإحدى أبرز زلاتها جاءت فى القرن العاشر عندما أصبحت ثيودورا وماروزيا —النبيلتان الإيطاليتان المستبدتان سيئتا السمعة– هما صاحبتا الحل والعقد فى شؤون التعيينات البابوية)

مع ذلك فقد باتت البابوية فى موقف أقوى بحلول النصف الثانى من القرن الحادى عشر . وأصدر جريجورى السابع مرسوما بمنع رجال الدين من الزواج. فظهرت ردود أفعال عنيفة فى بعض أجزاء العالم المسيحي– أعلن الألمان أنهم يفضلون التخلى عن حياتهم للإبقاء على زوجاتهم. لكن الكنيسة انتصرت فى النهاية. وتم تأسيس مبدأ عزوبية رجال الدين. كانت تلك هى اللحظة التى

• فى انجلترا عام ١٩٧٨ أصدر رئيس أساقفة كانتربرى مرسوما يقضى بفصل أكثر من مائتى أسقف أنجليكانى عن زوجاتهم أثناء مشاركتهم فى مؤتمر لامبيث الدولى الذى استمر ثلاثة أسابيع. وتم ترتيب إقامة الأساقفة فى جامعة كنت وزوجاتهم بعيدات عنهم بأكثر من ميل. (٧)

اقتربت فيها الكنيسة أكثر من أى وقت مضى من تحقيق هدفها الحقيقى. ليس العزوبية فحسب وإنما العفة. التى ظلت قيمة مثالية لا يمكن الوصول إليها. كانت المشكلة الجوهرية هى أن كثيرا من رجال الدين التحقوا بالكنيسة لأنها كانت الطريقة الوحيدة للحصول على مجال وظيفى بشكل محترف فى القانون أو الإدارة أو العلم. فى انجلترا فى القرن الثالث عشر كان هناك رجل دين بين كل اثنى عشر رجلا.[٧] لكن ذلك لم يعنى أن رجلا بين كل اثنى عشر كان صاحب رسالة دينية بحق. أو أنه كان يرى أدنى حاجة لكبت رغباته الجنسية. لحسن الحظ. لم يهزأ الجميع بالقاعدة لتلك الدرجة التى وصل إليها أحد أساقفة ليبج. فحين خلع من منصبه عام ١٢٧٤ كان أبا لخمسة وستين طفلا غير شرعى.

كان مثيرا بوجه ما أن حظر الزواج التقليدى جاء بعد تلك المدة الطويلة من منع "الزواج الروحي" Syneisaktism والذى لم يكن مقبولا فحسب بل مستحبا حتى القرن الخامس. كان زواجا كاملا فى كل شىء عدا الجماع الجنسى. وقد اتخذ بعض نساك الصحراء زوجات روحيات ربات للمنزل. إذ لم تكن خلوات الصحراء تخلو من وسائل راحة المخلوقات مثلما كان يفترض عامة. بيد أن ظلالا من الشك بدأت تزحف. وأخذت اجتماعات أساقفة الكنيسة بداية من القرن الخامس تخرج بإدانات متتالية للزواج الروحى وما يصحبه من إدخال "نساء غريبات" إلى المؤسسات الدينية كربات للمنزل أو "رفيقات".[٨]

حتى فَرضُ العزوبة على رجال الدين. بدا أن كثيرا من القساوسة قد أخذوا أفضل ما فى العالمين بأن تزوجوا فى سن صغيرة ثم تقدموا للترسيم عندما بدأ الملل يغزو حياتهم العائلية. لكن آخرين امتنعوا نهائيا عن الزواج. بعضهم عن قناعة. والبعض الآخر لأن الفضيلة كانت تمنح مكافأتها الخاصة فى صورة الترقى داخل الكنيسة. كان القس الذى يأمل أن يصبح أسقفا يعرف أن الأفضلية تعتمد على العزوبية. لكن لا يبدو محتملا أن غالبية القساوسة-سواء كانوا عزابا أم لا- قد نجحوا فى التخلى عن خطايا الجسد. فى القرن التاسع على سبيل المثال قرر أسقف فيرسيل توبيخ مرؤوسيه رسميا بأشد لهجة. فكتب "العديد منكم عبيد للعاطفة لدرجة أنكم تسمحون لمحظيات عديمات الحياء أن يعشن فى مساكنكم. ويشاركنكم طعامكم. ويظهرن معكم علنا. خاضعين لمفاتنهن تسمحون لهن بإدارة بيوتكم. وتدفعون الأموال لقواديهم. ولكى تلبس تلك النسوة ملابس فاخرة. تُنهب الكنيسة. ويعانى الفقراء."[٩] فى النهاية ثبت أن فرض العفة على رجال ليسوا نساكا بطبيعتهم مهمة تفوق مقدرة الكنيسة.

الزواج العلمانى

يتحدث رجال الكنيسة المحدثين أحيانا عن "الأسرة" كما لو كانت اختراعا مسيحيا. لكن أسلافهم كانوا أكثر إصرارا على إظهارها كاختراع شيطانى.

بتحفظ قال آباء الكنيسة لجمهور الناس: تزوجوا إذا اضطررتم لذلك. ثم استطردوا ليصفوا متع الحياة الزوجية بأوصاف كان سيدركها أى إغريقى أو رومانى على الفور. كان الأطفال "المتعة الأكثر مرارة". والزوجات بطبيعتهن ضعيفات وهشات. بطيئات الفهم. غير مستقرات عاطفيا. خفيفات العقل. مخادعات. وغير موثوق فيهن على الإطلاق فيما يخص الشؤون العامة.[١١١] كان الجنس داخل الزواج خطرا كبيرا، رغم أن جون كريسوستوم وميثودياس سلّما بأنه طالما اقتصد الزوج وزوجته فى العناق. فإن السعادة الزوجية لا تعود بالضرورة عقبة لا يمكن تجاوزها أمام الخلاص. بل كان كليمنت السكندرى مستعدا للاعتراف أن الزواج قد تكون له قيمة إيجابية. إذ يخضع الفرد لغواية عظيمة. ما يمنحه كذلك فرصا عظيمة لجهاد النفس.[١١٢]

إجمالا نظرت الكنيسة إلى الزواج باعتباره سلسلة من الامتيازات الممنوحة للضعف الإنساني- الحاجة للرفقة والجنس والأطفال- وفعلت ما بوسعها للتقليل من أهمية الثلاثة. زعمت أن زواجا واحدا يمكن أن يوفر رفقة كافية لأى رجل. أما الزواج الثانى فهو زنا. والثالث فسوق. والرابع ليس أقل من "بهيمية".

بتحديد أكثر رفضت أن تنظر للجنس باعتباره جزءا لا يتجزأ من الزواج. بداية من القرن السابع وحتى الثانى عشر ظل الجدل مستمرا حول ماهية الزواج. هل كان عقدا أخلاقيا يصبح ساريا بمجرد إتمام الاحتفال الطقسى. أم يجب أن يؤكد بالجماع الجنسي؟ كان الحكم النهائى هو أن "القبول وليس الجماع يصنع الزواج" Nupitas non concubitus sed consensus facit.[١١٣] إن الزواج يمنح حق (وليس واجب) ممارسة الجنس. وهو حق لا يتوفر إلا داخل إطار الزواج.

رغم أن ذلك لم يكن شائعا للغاية فقد نصح بعض رجال الدين الصارمين بالامتناع فى أيام الخميس- ذكرى اعتقال المسيح. والجمعة- ذكرى وفاته. والسبت- تكريما لمريم العذراء. والأحد- تمجيدا للقيامة. والاثنين إحياء لذكرى الأموات. كما كان الحظر كثيرا ما يشمل أيام الثلاثاء والأربعاء عن طريق حظر

الجماع أثناء الصيام والاحتفالات- الأيام الأربعين قبل عيد الفصح. وعيد الخمسين. والكريسماس. والأيام السبعة أو الخمسة أو الثلاثة قبل العشاء الربانى. وهكذا. [١٤]

مع ذلك فكما قال تيرتوليان بصدق تام. كم هو رائع أن بَركة القسيس تُحول الخطيئة إلى فعل طاهر. حتى وإن كان طاهرا فقط فى اعتداله. وفقط لإنجاب طفل. بل أن آباء الكنيسة نظروا أيضا لإنجاب الأطفال ببعض الشك. إذ لم يكونوا واثقين أن الأمر الذى ورد فى العهد القديم "أثمروا وأكثروا " مازال ساريا. كان الهدف الأساسى منه هو خلق ذرية يمكن أن ينحدر منها يسوع المسيح Messiah. والآن بعد أن جاء المسيح. بدا أن الخلاص لم يعد معتمدا على التناسل. [١٥] مع ذلك كان تفريخ المؤمنين وسيلة فعالة لنشر الإيمان. وآلت الكنيسة على نفسها أن تدفع رعاياها للتزايد بانتظام وإنجاب مزيد من الحملان.

لكنها مازالت تتوق للقيمة المثالية وهى العفة الزوجية، وكان من نتائج ذلك – حتى قبل أن يُعلن الزواج سرا مقدسا لا يمكن أن يُحل تحت أى ظرف فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر- أن الكنيسة عجزت عن اعتبار غياب الأطفال مبررا للطلاق. رغم أنه ظل سببا مقبولا فى كل المجتمعات منذ بداية التاريخ المدون. ودون قصد أعطت تلك الفتوى الجديدة إحساسا غير مسبوق بالأمان المعيشى لطبقة كبيرة من النساء كن فى السابق عرضة للهجر بسبب عيب ربما لا يكون فيهن وإنما فى أزواجهن.

عادة ما يقال إن المسيحية جاءت بتحسين سريع لوضع المرأة. لكن فى الواقع-مع هذا الاستثناء الوحيد- لم تتغير حالتها القانونية والاجتماعية إلا فيما ندر. وفى الأوقات التى لا تشوبها صراعات مذهبية أبقت الكنيسة المسيحية تقريبا على القانون المدنى والعرفى لروما.

المرأة والكنيسة القديمة

قال القديس بطرس (فى نبرة أقرب إلى نبرة كاتو الأكبر•) على النساء أن يزينّ أنفسهن ليس بالشعر المضفر والأساور الذهبية والملابس الفاخرة، وإنما بـ"روح

• كاتو الأكبر: Cato the Censor رجل دولة رومانى عاش فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد (المترجم)

الرزانة والهدوء. هذه هى الزينة التى لا تذبل. وهى غالية ونفيسة فى نظر الله!"
وأشار القديس بولس –وهو مثل نظيره ابنا لعصره– بنبرة أقل شاعرية إن المرأة خلقت لمنفعة الرجل وعليها أن تختلف عنه فى كل شىء. ولا يسمح لها أن تُعلِّم فى الكنيسة• عليها أن تتلقى التعاليم بصمت وبكل خضوع كونها ابنة حواء التى ضللت آدم وأخرجته من الجنة.[١٧]

كان الأمر كما لو أن الحواريين قد نظروا للمرأة فى روما الإمبراطورية القديمة كنموذج معكوس لكل ما هو مرغوب فى النساء المسيحيات. بالتأكيد كان ثمة تشديد على أن كل امرأة مسيحية طيبة يجب أن تخفى جمالها. وتستتر فى الكنيسة. وتتوقف نهائيا عن استخدام مساحيق التجميل التى يسميها جيروم "كمادات الرغبة" مضيفا "ماذا تتوقع (امرأة) من السماء عندما ترفع أثناء الدعاء وجهها لن يتعرف عليه خالقها؟"[١٨] لم يكن الأمر أن الطهارة من الإيمان. بل كانت كل امرأة مغرية تهديدا لخلاص الرجل. وكتب تيرتوليان "حتى الجمال الطبيعى. يجب أن يطمس بالإخفاء والتجاهل. إذ أنه خطر على من ينظرون إليه."[١٩]

ما قدمته المسيحية للمرأة هو المساواة الروحية. وهى هدية تعود قيمتها العظيمة بالنفع على المانح أكثر من المتلقى. فبمعاملتها كمهتدية لها أهميتها استطاعت الكنيسة أن تستغلها علنا فى أعمال الخير والتبشير، فيما تحفظها (على المستوى الخاص) فى منزلها. حتى فى الكنيسة الشرقية حيث كان ثمة فصل بين النساء والرجال ومن ثم كانت النساء تلعب دورا رعويا مهما بدرجة كبيرة. وحيث كانت الأرامل والعذراوات والشماسات لهن أماكن محددة فى الترتيب الهرمى. ظلت النساء ممنوعات من أداء القرابين أو التعميد أو التدريس أو الصلاة بصوت عال فى الكنيسة. كما حُرمن من الاقتراب من المذبح أو إعطاء البركة. وقد لخص كليمنت السكندرى ببراعة –وإن كان دون قصد– توجه الكنيسة القديمة عندما قال

• وهى النظرة التى مازالت شائعة حتى الآن. فى عام ١٩٧٧ أعلن الفاتيكان أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لا "تعتبر نفسها مخولة بالاعتراف للنساء بالترسيم ككاهنات." لقد قرر المسيح ألا يسمى أى امرأة– ولا حتى مريم العذراء– حوارية. وقد تمسكت الكنيسة من يومها بالتقليد الذى لا يُكسر وهو قصر الرهبنة على الذكور. يجب أن يكون لدى القساوسة "شبه طبيعى" بالمسيح. وإذا أقامت امرأة قداسا "سيكون من الصعب أن نرى فى الدير صورة المسيح." [١٦]

إن المرأة مساوية للرجل فى كل شىء. لكن الرجال دائما أفضل من النساء فى كل شىء.[٢٠]

ليس كل شىء تماما.. فثمة مجال كانت فيه قيمة النساء لا تقدر بثمن بالنسبة للكنيسة كما كانت بالنسبة للدولة. ألا وهو الزيجات السياسية. لم تتردد الكنيسة فى إرسال سيدات مسيحيات من بنات العائلات الكبرى إلى البربرية ليتزوجن قادة فرنجيين أو ساكسونيين ويهدينهم إلى المسيحية. فى عام ٤٩٦ ميلادية أُرسلت كلوتيلدا من بورجوندى إلى الشمال لهداية كلوفيس ملك الفرنجة. وبعد زمن أبحرت حفيدتهما بيرثا إلى انجلترا لتتزوج إيثلبيرت دوق كنت.

مع مرور القرون بات على الأميرات المسيحيات فى سن الزواج —وبعضهن يتمتع بشخصية قوية خاصة من عائلتى الميروفنجيان والكارولنجيان—أن يسافرن بعيدا من أجل أزواجهن. لم يكن ذلك لأن عدد غير المهتدين إلى المسيحية قد تناقص باطراد فحسب. وإنما كذلك لأن الإمبراطور جوستنيان أصدر مرسوما يقضى بأن الزواج من الأقارب حتى الدرجة الخامسة يعد سفاحا. وبعدها بخمسمائة عام رفع جريجورى السابع الحد إلى أقارب الدرجة السابعة. وقد أدى الحظر على الزواج من أى شخص أقرب من ابن العم من الدرجة الخامسة أو السابعة إلى تكوين شبكة من الزيجات الملكية امتدت من أيرلندا إلى القدس. ومن كاستيل إلى نوفجورود.

خطايا الجسد

فى عالم القرية المحدود والمحلى حيث كانت صلة القربى تجمع بين كل السكان تقريبا بدرجة ما، سيكون تطبيق مثل هذا الحظر مستحيلا. بل ويبدو غير محتمل أن يكون قساوسة الأبرشية قد حاولوا حتى تنفيذه. الأقرب إلى الاحتمال فى الواقع هو أن ذلك المرسوم —مثل معظم مراسيم الكنيسة— قد جرى ترشيحه قبل تمريره إلى القرية على قاعدة عالية الانتقائية. كان يُنتظر من القس نصف المتعلم —بمعاونة "كتاب التوبة" دليله الخاص حول الخطايا والكفارات— أن يتعامل بنفسه مع عدد كبير من الخطايا. ولا يرجع إلا فى الخطايا الكبرى أو المستعصية إلى الأسقف أو المُتوّب العام—الذى يتجول بين أبرشيات منطقته مثل قاض روحى زائر. لم يكن مستغربا إذن أن يعتمد القس كليا على ما يعتقد أنها

"المبادئ العامة". وفيما يخص الجنس كان المبدأ العام هو أنه ليس مباحا إلا فى إطار الزواج. وفقط بغرض الإنجاب.

ما من وسيلة لتحديد الأثر الذى أحدثه تشديد الكنيسة على الجنس من أجل التناسل على أعداد السكان فى أوروبا فى أوائل العصور الوسطى. فأولا مازال العلماء عاجزين عن وضع رسم بيانى لكافة التقلبات بين نهاية القرن الثالث وبداية السابع. إذ ضربت القارة موجة تلو أخرى من الطاعون (بلغ إجمالها خمس عشرة موجة). بدءا من بيزنطه عام ٥٤١ إلى ٥٤٤ حيث بلغ عدد الضحايا- وفقا للمؤرخ المعاصر إيفاجريوس- ثلاثمائة ألف (بين ثلث ونصف السكان). ثم تحرك الوباء تدريجيا تجاه الغرب حتى انتهى بعد مائتى عام. وفى عام ٥٧٠ أيضا ضرب وباء الجدرى بقوة قارة أوروبا بأكملها. وتذكر التقديرات الحالية أن عدد سكان أوروبا عام ٦٠٠ ميلادية كان عشرين مليونا فقط- بعد أن كان ٣٦ مليونا عام ٢٠٠ ميلادية.[٢١] على الأرجح أن المسيحيين عانوا أكثر من اليهود أو المسلمين. حيث لم تكن النظافة العامة جزءا من عقيدتهم. فكما يقول جيروم: الرجل الذى تطهر بالمسيح لا يحتاج مزيدا من الطهارة.[٢٢] ومن المستبعد أن يكون النقاء الروحى قد شكل خط دفاع قوى ضد البراغيث التى كانت تنقل الطاعون.

الخراب الذى نجم عن الطاعون الذى ضرب جنوب أوروبا-معقل الكنيسة المسيحية- بقوة أكبر من الشمال. ربما ساعد على بلورة نظرة الكنيسة تجاه الجنس والتناسل. وكذا معارضتها التامة لأى ممارسة قد تؤثر على الخصوبة. ولكن ما إذا كان لذلك تأثير كبير على عدد السكان يبقى محل جدل. عندما بدأت الأرقام فى الارتفاع مجددا وبسرعة كان ذلك فى الشمال. والأرجح هو أنه كان بالأساس نتيجة لانفراجة فى الزراعة والتغذية أكثر من نصائح رجال الدين.[٢٣] فى الواقع ربما كانت نظرة الكنيسة للأخلاق قد تسببت فى زيادة عدد المواليد الذين ينجبهم الأزواج ويربونهم. لكن لعدة قرون على الأقل ربما كانت مسؤولة أيضا عن انخفاض واضح فى عدد المواليد غير الشرعيين. ورغم أن بيانات الكنيسة اليوم تمر عادة دون أن يأبه بها أحد. فيجب أن نتذكر أن تلك البيانات كانت مؤثرة بشكل هائل وخاصة فى العصور الوسطى المبكرة. وقادرة -فى مجتمع بسيط- على أن تصبغ معظم جوانب الحياة اليومية. خطايا قليلة لم يكن لها علاج لدى القسيس فى أبرشيته الصغيرة. وخطايا قليلة لم تجد جوابا فى كتب التوبة. التى وضعت كفارات لكل صيغة من صيغ الجنس باستثناء الجنس المغاير Heterosexual الذى يهدف للإنجاب. بين الرجل وزوجته وفقط. وفى

الوضع الذى يعتلى فيه الرجل امرأته. وحتى تلك الصيغة كانت تستلزم عاما من الصوم إذا مورست أثناء الصوم الكبير•.

لم تكن كتب التوبة معتمدة من الفاتيكان. لم تخرج من حجرة مركزية للنُسّاخ. وإنما كانت تجميعات محلية لمؤلفين بدا وأن لديهم معرفة واسعة–وإن كانت نظرية كما هو مفترض– عن الطرق الغريبة لممارسة الجنس. مع ذلك فكون تلك الكتب تغطى عددا كبيرا من الخطايا لا يعنى أن القسيس كان يقابل مثل تلك الخطايا كثيرا (أو ربما على الإطلاق) فى فترة خدمته العادية. ربما كان فى موضع يشبه كثيرا ذلك الذى يحتله موظف الجمارك الحديث. والذى ستصيبه الدهشة إذا سأل مسافرا عما إذا كان لديه ما يريد أن يفصح عنه فوجده يعترف بوجود "خنفساء كولورادو" فى حقيبته.

إحدى الخطايا التى تعامل معها معظم القساوسة بانتظام هى قذف المنى. والتى لم تكن تستوجب سوى سبعة أيام من الصوم إذا كانت لا إرادية. وعشرين يوما إذا كانت باستخدام اليد. حتى الراهب الذى كان يستمنى فى الكنيسة لم يكن يعاقب بأكثر من صيام ثلاثين يوما. والأسقف خمسين يوما. إن الطبيعة الفردية لتلك الممارسة جعلتها مختلفة تماما. فقد كانت نظرة الكنيسة لقطع الجماع– وهى نظرة مشتركة فى جوهرها– أكثر صرامة بكثير.

كانت الخطيئة الجنسية الكبرى هى منع الحمل، وقد اكتشف عالم أمريكى محدث بعد دراسة عشرين من كتب التوبة التى وصلت إلينا وتعود إلى الفترة من القرن السادس إلى التاسع أن جميعها باستثناء كتاب واحد قد اعتبرت منع الحمل عملية خطيرة للغاية. وخاصة إذا تضمن تناول "سموم تسبب العقم"، أو الجماع الشرجى. أو الجماع الفموى (المنى فى الفم Seminem in ore). كانت تلك الممارسة بخطورة القتل تقريبا، واستلزمت كفارات تتراوح بين ثلاث إلى خمس عشرة سنة. ويبدو أن "امرأة صغيرة فقيرة" فعلت ذلك "بسبب صعوبة إطعام" أفواه إضافية كانت تتعرض لكفارات أقل. فيما تتعرض امرأة فعلت ذلك "لإخفاء جريمة فسوق" لكفارة أعظم.[٢٤] كذلك يُفترض أن ثمة تمييز مشابه يوضع فى الاعتبار فى

• لم يقر رجال الدين (أكانوا جميعا عزابا؟) سوى وضع واحد "طبيعي" للجماع. كانت الأوضاع الأخرى "غير طبيعية" لأنها تصور الإنسان على صورة الحيوان. أو لأنها تحرف طبيعة الذكر والأنثى. أو لأنه يشتبه فى كونها تمنع الحمل ومن ثم تخالف طبيعة الزواج.

حالات قطع الجماع. والتى استلزمت عامين إلى عشرة أعوام. كانت العقوبات الطويلة عادة تتضمن فيما يبدو الصيام بشكل أو آخر- الامتناع عن الطعام والشراب (باستثناء الخبز والمياه). أو عن الجنس. أو عن أى شىء يمكن أن يفسر على أنه انغماس فى الشهوات. أما البديل الذى ظهر فى القرن الحادى عشر فقد كان جلد الذات (للرهبان) أو بالنسبة للعامة الجلد على يد قس الأبرشية. فيما كانت هناك فئة أخرى من العقوبات تتطلب غناء مزامير التوبة. كان على الرجل الذى يقذف بالليل- وإن بشكل غير إرادي- أن يستيقظ فورا ويرتل سبعة مزامير. ويتبعها بثلاثين أخرى فى الصباح.

الإجهاض خلال الأربعين يوما الأولى للحمل (قبل أن تدخل الروح البشرية فى الجنين) كان خطيئة أخف قليلا من منع الحمل. ربما لأن الإجهاض يصحبه عادة آلامه وكفارته الخاصة. وكما أشار القديس جيروم فى قسوة فإن النساء ذوات العلاقات الجنسية المتعددة اللاتى يتناولن العقاقير المسببة للإجهاض ويمتن نتيجة لذلك يدخلن الجحيم باعتبارهن "قاتلات ثلاث مرات: كمنتحرات. وكزانيات (خائنات) للمسيح عريسهن فى السماء. وكقاتلات لطفلهن الذى لم يولد بعد." [٢٥]

أحد الأحكام المثيرة فى كتب التوبة تشير إلى أن منع الحمل رغم كونه خطيئة كبرى داخل الزواج، ربما كان أقل خطورة خارجه. "إذا أفسد رجل عامى عذراء وهبت نفسها لله وفقد سمعته (هكذا فى الأصل) وأنجب طفلا منها. فعلى ذلك الرجل كفارة ثلاث سنوات.... لكن إذا لم يأت طفل. ومع ذلك أفسد العذراء. فعليه كفارة عام واحد." [٢٦] فى الواقع كانت تلك نصيحة فعلية لمن يريد أن يغتصب امرأة أو يغويها، أن يمارس إحدى طرق منع الحمل (وألا يذكر تلك الواقعة فى الاعتراف). [٢٧]

مع ذلك بوجه عام كان لمعارضة الكنيسة منع الحمل تأثير مؤكد ليس فقط بتثبيط تلك الممارسة داخل الزواج. بل وبقمع أى معرفة تتعلق بالطرق العلمية الأولية التى تطورت منذ أيام أرسطو. (لما كان التعليم حكرا على الأديرة. كان أى شىء لا توافق عليه الكنيسة يمحى من السجلات). نتيجة لذلك لم يكن أمام المرأة التى تتحدى زوجها وقسيسها وتقرر أن تقوم بالأمر بيديها من خيار سوى العودة إلى الطرق التقليدية، نصائح الزوجات العجائز. التمائم. والتركيبات التى تصنعها "الحكيمات" المحليات. واستمر ذلك الموقف مئات السنين. وليس غريبا أن يلاحظ العلماء المحدثون أنه عندما عاد منع الحمل للظهور فى المشهد القروسطى

المتأخر. بات مختلطا بالسحر والخرافات مثلما كان فى الأيام الأولى للتاريخ المدون.

خطيئة سدوم

فيما يمكن للخاطئ المغاير جنسيا أن يلتمس تخفيف العقوبة حتى للجرائم الكبرى مثل منع الحمل. لم يكن للمثلى جنسيا مثل تلك الفرصة. كانت جريمته (نادرا ما شغلت الكنيسة نفسها بالمثلية النسوية) تقدر وفقا لمقياس انزلاقى من القيم. فهل كانت جريمة صغيرة لم تتعد التقبيل؟ أم لواطا Sodomy كاملا وصفه البابا جريجورى الثانى بأنه "رذيلة كريهة للغاية فى عين الله. حتى أن المدن التى كان يسكنها ممارسوها قضى عليها بالدمار بالنار والكبريت."[٢٨]

كان بإمكان سكان سدوم مقاضاته على ذلك•. فكل ما ذكره الكتاب المقدس حقا بشأن الموضوع (سفر التكوين. إصحاح ١٩. ٤-١١) هو أن الله أنزل ملاكين للتحقيق فى شرور ترتكب هناك. وأن لوطا استقبلهما بحفاوة للبلة. ولكن كافة رجال المدينة حاصروا المنزل بعد ذلك ونادوا لوطا "أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما."

هل كانوا يقصدون "أين هذين الغريبين الغامضين اللذين وصلا بالليل؟ أخرجهما حتى نستطيع إلقاء نظرة عليهما"؟ أم كان قصدهم "أخرجهما حتى نستطيع اغتصابهما"؟ بعيدا عن قوانين الاحتمالات. تكمن الإجابة فى استخدام كلمة يادها Yadha بمعنى "يعرف". وفقا للبحث المضنى الذى أجراه ثلاثة من العلماء فإن تلك الكلمة تتكرر فى العهد القديم ٩٤٣ مرة. ولكنها تستخدم بمعنى جنسى خمس عشرة مرة فقط. فى كل مناسبة أخرى باستثناء قصة سدوم المشكوك فيها وفقرة ثانوية فى سفر القضاة (إصحاح ١٩. ٢٢) فإن الكلمة تعنى ببساطة "يتعرف على".[٣٠]

• كما فعل أربعة زعماء من جماعة فورى Fouri الإيطالية لتحرير المثليين ومقرها تورين. إذ قاموا بمقاضاة البابا بولس السادس عام ١٩٧٦ زاعمين أن كراهتهم الشخصية قد تأذت بوصف البابا للمثلية الجنسية بأنها أمر "مثير للخجل" و"مخزي" و"بشع".[٢٩]

بداية. جرى التعامل مع لفظة سدوم Sodom باعتبارها كلمة منحوتة تعنى الخطايا التى كان اليهود بوجه خاص على علم بها. أو التى كانت تزعجهم بوجه خاص- الغرور. الزنا. إساءة استغلال الكرم. الروح غير المتدينة. لكن بحلول القرن الثانى قبل الميلاد أثار الإغريق الذين عاشوا حياة متحررة وأقاموا علاقات جنسية متعددة انتقادات عنيفة من جانب اليهود. وبدأت تظهر للمرة الأولى فى أدبيات مثل السودوبيجرافا* Pseudepigrapha إشارات إلى سدوم بمعنى "الفسق" و"النجاسة". بعدها عندما شاعت المثلية الجنسية فى روما وكانت اللواطة معروفة فى المدن المتحولة للهيلينية حول المتوسط. استقر الأمر نهائيا.

فى القرن الأول الميلادى فسر فيلو السكندرى بوضوح قصة سدوم بمعنى مثلىّ. كان يعرف بالتحديد كيف كان هذا المكان الشرير. وأى شبه بين سدوم وبين الإسكندرية فى أيامه كان دون شك محض صدفة. أوضح قائلا "أرض اللوطيين Sodomites كانت مرعى لخطايا لا تعد. وخاصة تلك التى تنبع من النهم والخلاعة.... (إن السكان) ألقوا من على أعناقهم بقانون الطبيعة. وأفرطوا فى شرب خمور قوية. وتناول الطعام الشهى وممارسة أشكال محرمة من الجماع. إنهم لم ينتهكوا (قوانين) الزواج عند جيرانهم بشهوتهم المجنونة تجاه النساء فحسب. بل أيضا اعتلى الرجال الذكور دون احترام لطبيعة الجنس والتى تميز كل من الشريك الإيجابى والسلبى، وهكذا عندما حاولوا أن ينجبوا أطفالا تبين أنهم غير قادرين إلا على غرس بذرة عقيمة." كانت كلمته الأخيرة مسك الختام: "وإذ عوّدوا قليلا قليلا أولئك الذين كانوا رجالا بطبيعتهم أن يخضعوا ويلعبوا دور المرأة. ألقوا عليهم بسرج اللعنة المهولة.. المرض النسوى." [٣١]

كان تفسير فيلو هو التفسير الذى تبناه آباء الكنيسة. ومن المرجح أنه كان يدور على الألسنة قبل أن يضفى عليه ذلك الشكل المبتكر. مع ذلك فبعد عدة قرون بدأ المشرعون الغربيون ثانية -ربما ببراءة وربما عن ارتباك يمكن فهمه- فى استخدام كلمة Sodomy بشكل أقل محدودية، وتعاملوا معها كخلاصة لكل ما رأوا أنه من قبيل "الرذيلة غير الطبيعية"، واليوم فى ولايات مثل فيرجينيا على سبيل المثال. فإن ما يسمى بالقوانين السدومية Sodomy Statutes لا تمنع

* السودوبيجرافا: كتابات يهودية قديمة لا تعد جزءا من التوراة. (المترجم)

المثلية الجنسية على وجه التحديد. بل الجماع الشرجى والفموى. بغض النظر عن جنس الأشخاص الذين يمارسونه.

حتى القرن الثالث الميلادى على الأقل. ورغم بعض التشريعات الضبابية التى ربما استمرت من أيام الجمهورية. لم تتخذ روما الإمبراطورية أى تدابير قانونية ضد المثلية بين البالغين. فى الواقع كان الأباطرة فى موقف عصيب قبل أن تصبح المسيحية هى ديانة الدولة. إذ كان معظم الجيش يفضل ديانة ميثرا. وهى ديانة شرقية أخرى ولكنها تنطوى على مسحة قوية من المثلية الجنسية. وكان التشريع ضد المثلية سيعنى عزل الرجال الذين كانوا مسؤولين عن صعود الأباطرة أو سقوطهم. وحتى بعد رسوخ المسيحية. ندر أن تطبق التشريعات بصرامة.

مع ذلك ففى "روما الجديدة" القسطنطينية دمج الإمبراطور جوستنيان القانون الرومانى بالأخلاقية المسيحية ونجح-لفترة قصيرة- فى فرض كليهما على مساحة واسعة من الإمبراطورية القديمة. كانت الهرطقة والمثلية الجنسية فى نظره على نفس الدرجة من الضلال. بل وآمن أنه "بسبب تلك الجرائم. تظهر المجاعات والزلازل والأوبئة. لذلك نحض الرجال على الامتناع عن الأفعال غير القانونية المذكورة آنفا. كى لا يفقدوا أرواحهم.... نأمر حاكم العاصمة المحترم أن يقبض على من يصرون على الأفعال الخارجة عن القانون والفاسقة المذكورة آنفا بعد أن حذرناهم منها. وأن يفرض عليهم أقصى العقوبات. حتى لا تصاب المدينة والدولة بأى أذى من جراء مثل تلك الأفعال الشريرة.. "[٣٢] كان ذلك فى عام ٥٣٨. وكانت إحدى العقوبات وفقا لبروكوبيوس (والذى عُين هو نفسه حاكما بعدها ببضعة أعوام) إخصاء المذنب ثم تجريسه.[٣٣]

فى عام ٥٤١ ولما تنتشر بعد كلمات جوستنيان ظهر فى القسطنطينية الطاعون العظيم والذى سيقضى على أكثر من ثلث سكان المدينة على مدار السنوات الثلاث اللاحقة. بالنسبة للإمبراطور والكنيسة على حد سواء كان ذلك مؤشرا واضحا على أن تقدير جوستنيان للموقف كان فى محله. عندما انحسر الطاعون صدرت "رواية قصيرة" Novella أخرى. "رغم حاجتنا الدائمة لرأفة الله ورحمته. فإننا فى أمس الحاجة لها فى ذلك الوقت بالذات. بعدما أثرنا غضبه بوسائل شتى بسبب كثرة خطايانا.... كان علينا أن نمتنع عن كافة الاهتمامات والأفعال الدنيئة- وخاصة... تدنيس الذكور والذى يجرؤ على فعله بعض الرجال بنجاسة وفسوق . إذ يرتكبون أفعالا قذرة مع رجال آخرين." كان تدمير سدوم وعمورية المذكور فى

النصوص المقدسة هو طريقة الله ليقول: "عن طريق التشريعات يمكننا تجنب مثل ذلك القدر المشؤوم." [٣٤]

لذا. واحدة واحدة. كانت النتيجة أن قصة توراتية غير واضحة المعالم – صبغها الرفض اليهودى للعادات الإغريقية والاشمئزاز المسيحى من "الخطايا ضد الطبيعة"– كان لها أكبر الأثر على تحويل المثليّ جنسيا إلى خطر على الدولة.

من جانب آخر كان خطرا على الكنيسة كذلك. فهو نقيض حى للأخلاقية المسيحية. فى بداية القرن الرابع. كان يُرفض تعميده. وكذا تعليمه قواعد الإيمان حتى يكف عن ممارساته الشريرة. [٣٥] برغم ذلك– كما كانت الكنيسة تعرف جيدا– كان هناك مثليون داخل صفوفها نفسها. ومع انتشار حياة الأديرة بدأ القانون الكنسى يعانى من اضطراب عصبى عارض. فى عام ٥٦٧ قرر مجلس تور الثانى أن يتبنى القاعدة البنيدكتية التى تحرم نوم اثنين من الرهبان فى سرير واحد. وبعد ذلك بقرون عدة صيغت قاعدة مماثلة للراهبات. الأكثر من ذلك أن مصابيح المهاجع كان يجب أن تظل مشتعلة طوال الليل. [٣٦] فى عام ٦٩٣ قرر مجلس طليطلة.. الذى وصف اللواطة بأنها "شائعة" فى أسبانيا أنه "إذا كان أى من أولئك الذكور الذين يرتكبون تلك الممارسة الخسيسة ضد الطبيعة مع ذكور آخرين أسقفا أو قسا أو شماسا يُجرد من شرف منصبه. وينفى إلى الأبد . وتحل به اللعنة" أما عقوبات المشاركة فى الجرم فكانت مائة جلدة. وحلاقة الرأس. والطرد. [٣٧]

مع ذلك فنادرة هى الأدلة التى ترجح أن الأديرة كانت مرتعا للواط. فى الواقع كان المضمون العام للقواعد والتنظيمات الكنسية يشير إلى أن المغايرة الجنسية لرجال الدين كانت مشكلة أكبر كثيرا من المثلية الجنسية.

فيما يتعلق بالعامة أصدر مجلس أنقرة فى عام ٣١٤ ميلادية قانونين كنسيين لم تكن صيغتهما واضحة تماما. ويعتقد علماء محدثون أنهما كانا يتعلقان فقط بالبهيمية "أولئك الذين ارتكبوا فسوقا مع الحيوانات." لكن فى بداية عصر الكنيسة الغربية كانا يؤخذان على أنهما يشيران أيضا إلى المثليين جنسيا. نتيجة لذلك كانت الكفارات التى خُصصت للبهيميين تؤخذ فى الغرب على أنها قاعدة لمعاملة مرتكبى المثلية الجنسية. بينما تعاملت الكنيسة الشرقية مع اللواط بنفس قاعدة الزنا. واختلف العقاب بحسب عمر المذنب–دون العشرين أو فوقها– وما إذا كان عازبا أم متزوجا. وما إذا كان الجرم عادة متكررة. المذنب العادى فوق

الخمسين سنة والمتزوج يمكن أن يتوقع أن يُرفض فى العشاء الربانى إلا إذا كان بالفعل على أعتاب الموت.[٣٨]

ومع اتساع نطاق سيطرة الكنيسة واضطرارها لوضع جدول للأخلاقية المسيحية يسهل الرجوع له فى الأبرشية. لم تصبح أكثر تساهلا. ولكن أكثر عقلانية نوعا ما. لو كان الأمر بيدها لكانت قضت على كل أنواع الممارسات أو الغرائز المثلية. لكنها أدركت أن المثلية لها مساحات واسعة من التعبير فى الغيرية. وأنها قد تتواجد ككيان سلبى. أو تظهر فى صورة عاطفة قوية. أو رغبة فى الاتصال الجسدى. أو الجماع المحموم. كان على الكنيسة فى ضوء موقفها الرئيسى ألا تفرق بين تلك الصور المختلفة. فإذا كانت المثلية فى ذاتها خطيئة مطلقة. فلا معنى لتقييم أوجهها المختلفة على أسس نسبية.

مع ذلك اختارت أن تلتف حول تلك المشكلة العقيدية بنظرية أن الرحمة فوق العدالة. ومن ثم صارت الكفارات التى توصف معقدة بشكل غير طبيعى. كانت كافة العوامل توضع فى الحسبان. بما فى ذلك عمر الخاطئ ووظيفته. فالراهب يعامل بقسوة أكبر من الشخص العادى. كذلك يوضع فى الحسبان ما إذا كان الخاطئ قد لعب الدور الإيجابى أم السلبى. وكذا مدى تكرار الإثم ومداه. إذ كانت بعض الطرق شائنة بوجه خاص. فالراهبات اللاتى استخدمن الذكر الصناعى كن يعاملن بحدة مفرطة. وكذا الإخوة الذين ارتكبوا جماعا مثليا مع إخوتهم.

ليس غريبا أن كُتب التوبة أظهرت بعضا من عدم التوافق فى العقوبات الموصوفة. فى ويلز فى القرن السادس كان المثلىّ الذى يرتكب الفعل يستحق كفارة ثلاث سنوات. وفى بورجوندى فى أوائل القرن الثامن. عشر سنوات. بالنسبة للجماع الفموى فالعقوبة تتحدد بمحل السكن. وقد يجد المثلىّ نفسه عرضة لأى عقوبة بين سبعة أعوام ومدى الحياة.[٣٩]

كتاب التوبة Cummean Penitential الفرنجى الأصل الذى يرجع إلى القرن السابع كان نموذجا جيدا للكتيبات التى استخدمها القساوسة فى جلسات الاعتراف فى أوائل عصر القرون الوسطى. كانت خطايا المثلية تعامل كالتالى:

التقبيل: بالنسبة للمجرمين تحت سن العشرين:
"التقبيل البسيط" ست مرات صيام خاص.

"التقبيل الفاسق" دون قذف، ثماني مرات صيام خاص.
التقبيل "مع قذف أو احتضان" عشر مرات صيام خاص.

بالنسبة للمجرمين فوق سن العشرين:

لا يوجد تمييز هنا. كانت العقوبة أن يعيش في تقشف. أن يأكل وحده (خبز وماء فقط). وألا يسمح له بدخول الكنيسة. وكان طول المدة يتوقف على رغبة المعترف على الأرجح.

الاستمناء اليدوي: للرجال فوق العشرين:

كفارة عشرين أو أربعين يوما.

مائة يوم لتكرار الإثم.

إذا كانت عادة متكررة، "فعلى الشخصين المعنيين أن يُفرّقا وعليهما كفارة سنة."

الاتصال الفخذي (إدخال القضيب بين فخذي شريك سلبي)

كفارة عامين.

أو مائة يوم للمرة الأولى وعام للثانية (ربما كانت الكفارة الأولى لمن تجاوزوا سن العشرين، والثانية لمن هم دون العشرين. أو الأولى لرجال الدين والثانية للعامة).

يتزايد عدد المثليين بين رجال الدين، والذين سيلوثون جمهور الناس. وقد أثار "بيتر داميانى" فى القرن الحادى عشر احتجاجا عنيفا ضد العادة التى تجعل ممارسى المثلية الجنسية يعترفون أمام نفس الرجال الذين ارتكبوا خطاياهم معهم.[٤١] لكن تشديد الكفارات لم يكن كافيا. بل أنه كلما طالت الكفارة كلما ازداد احتمال أن تأتى بتأثير عكسى. لذلك نقلت الكنيسة الخطايا التى تتعرض لها بوجه خاص من نطاق اختصاص قس الأبرشية إلى الأسقف أو المتوب العام. فى فرنسا عام ١٣٠٠ كانت "كافة الخطايا ضد الطبيعة التى يرتكبها رجل تجاوز العشرين من عمره" يجب أن تحال إلى الأسقف. وكانت "الخطايا ضد الطبيعة" تعنى المُفاخذة، والجنس الفموى، واللواط، والبهيمية. كذلك تعامل المتوّبون مع نفس الخطايا حين يرتكبها رجل دون العشرين، أو حين ترتكبها النساء. وكذا مع "التدنيس اليدوي"، والذى كان يعنى —فيما يبدو— الاستمناء التبادلى. أما بقية الذنوب فكانت تترك لقس الأبرشية— أفعال المثلية التى يرتكبها الصبية تحت ١٤ عاما، والنساء تحت ٢٥•، والاستمناء الفردى.[٤٢]

إذا كان ثمة رجل بعينه مسؤولا عن تشديد موقف الكنيسة تجاه المثليين، فهو القديس توما الأكوينى، الفيلسوف ورجل الدين العظيم الذى عاش فى القرن الثالث عشر. مثلما قدم أوغسطين من قبل أساسا منطقيا لنفور آباء الكنيسة من الممارسة الجنسية المغايرة واعتبرها مقبولة فقط بغرض التكاثر، كذلك عضد توما الأكوينى من المخاوف التقليدية من المثلية الجنسية باعتبارها جريمة قد جلبت النار والكبريت على سدوم وعمورية، بأن "أثبت" ما كان يؤمن به كل رجل مغاير— أن الأمر غير طبيعى فى عين الرب كما فى عين الإنسان. لم يكن من الصعب إثبات ذلك. خاصة بعد أن انطلق من أطروحة أوغسطين أن الخالق قد صمم الأعضاء الجنسية خصيصا للتكاثر، وأن استخدامها لا يمكن أن يكون شرعيا إذا استثنيت إمكانية التكاثر منه. من ثم كانت المثلية الجنسية فى ماهيتها انحرافا عن النظام الطبيعى الذى نزّله الله (كما كانت بالطبع الممارسات الجنسية الشرجية

• حد العمر للنساء ربما يظهر غريبا قليلا. إذ يأتى بعد أكثر من عشر سنوات على البلوغ. وليس أكثر من خمس سنوات قبل نهاية عمرها المتوقع. لكن يبدو أن ذلك كان ولا بد صدى لنظرة الرومان أن المرأة تبلغ فى الخامسة والعشرين.

والفموية المغايرة، وبالطبع البهيمية)، انحرافا ليس شاذا وحسب، بل-على الأساس الأوغسطينى نفسه- شهوانى وهرطقي•

كان الأكوينى -المنبهر بالتناغم الذى ينجم عن وحدانية النمط الأخلاقى - له أعظم تأثير على عصره ولأزمنة طويلة تالية. لكن عيب النمط الأخلاقى الأحادى أن من لا يجد مكانا فيه لن يجد مكانا فى المجتمعات القائمة عليه. بداية من القرن الرابع عشر فصاعدا، لم يجد المثليون كجماعة ملجأ ولا تسامحا فى أى مكان آخر فى الكنيسة أو الدول الغربية.

الإنجازات المسيحية

فيما يتعلق بتاريخ الجنس، كانت سجلات الكنيسة المسيحية الأولى مرعبة. لقد أدانت مجتمعات غربية أخرى -بدرجات متفاوتة من الحدة- الزنا (عادة) ومنع الحمل (نادرا) والإجهاض (أحيانا) والمثلية (أحيانا) وقتل الأطفال الرضع (نادرا) والبهيمية (أحيانا) والعادة السرية (إطلاقا). لكن الكنيسة حرمت تلك الممارسات جميعا.

وقد غامرت مجتمعات أخرى باقتراح العدد المناسب لمرات الجماع بين الزوجين. قال سولون "ثلاث مرات شهريا"، وقال "المشناه"• اليهودى "يوميا لغير العاملين، ومرتان أسبوعيا للعاملين، ومرة أسبوعيا لسائقى الحمير." أما الكنيسة فقد حرمته إلا إذا كان الهدف هو الأطفال.

• مازالت الكنيسة الكاثوليكية اليوم تتبع تعليمات توما الأكوينى. وكذا -وإن بنوع من التردد- الكنائس البروتستانتية. فى عام ١٩٧٦ وفى إعلان بشأن بعض القضايا المتعلقة بالأخلاق الجنسية أعاد الفاتيكان التشديد على أنه لا من مبرر للممارسات المثلية. والتى تتعارض مع "الحس الأخلاقي" للمسيحيين. وتعاليم الكتاب المقدس. و"النظام الأخلاقى الفطرى." ورد أحد قساوسة الجيزويت- وهو نفسه ذو "توجه مثلى" بتفاؤل قائلا إنه "بمجرد أن تدرك الكنيسة التأثير الهدام لسياساتها بشأن مئات الآلاف من الأرواح (بعد ٧٠٠ عام أخرى؟) سيكون عليها أن تغير من سياساتها." فى الوقت ذاته استمرت الكنيسة المشيخية المتحدة للولايات المتحدة، والكنيسة الأسقفية البروتستانتية واليثوديون فى الإصرار على أن الممارسة المثلية "لا تتوافق مع تعاليم المسيحية". فيما ظلت كنيسة المسيح المتحدة، والكنيسة المسيحية (أتباع السيد المسيح) فريسة للشك.[٤٣]

• المشناه: تشكل مع الجماراه كتاب "التلمود" اليهودى أو "كتاب التعاليم" (المترجم)

وفيما نظرت مجتمعات أخرى إلى الجنس كوسيلة للمتعة فى أى وضع. كانت المتعة الجنسية بالنسبة للكنيسة خطيئة*. وكان الوضع الذى يعتلى فيه الرجل امرأته هو الوحيد المقبول.

ما من طريقة لمعرفة كيف أثرت النظم الجديدة فى حياة الأشخاص العاديين. الأدبيات الوحيدة تقريبا التى وصلت إلينا من العصر القروسطى المبكر تتألف من علم الدين المسيحى، وثائق الدولة، وقوائم جرد الممتلكات، لكن قبضة القس التى تزداد قوة فى أذهان أتباعه ساعدت دون شك على تشكيل نمط حياة تجاوز الحدود الجغرافية. معطيا نوعا من الوحدة الفائقة للمجتمع المسيحي- وحدة تقوم على أسس غير سليمة من الخجل والخوف والارتقاء الروحى.

ومع خروج العالم الغربى من "عصور الظلام" كان الدور الذى تلعبه الخطيئة قد بات أكثر أهمية -لأنه أكثر إلحاحا- للأخلاقية المسيحية، أكثر حتى من فكرة الفداء نفسها. ومن بين كافة الخطايا التى تشملها تلك الأخلاقية كانت خطايا الجنس هى الأكثر تطبيقا. ومن ثم بات للقس سلطة أخلاقية حتى وإن كانت عفته نظرية. وسواء عن وعى أم لا فقد أصبح الرجال والنساء الذين يتمتعون بشهوات جنسية عادية مسكونين بهاجس الذنب. ربما كان الجنس هو خطيئتهم الوحيدة، لكن فى عيون الكنيسة كان هو الخطيئة الأعظم.

ما حدث- بالضرورة تقريبا- هو أن مفهوم الكنيسة عن الخطيئة والذى ربما كان دافعا لفعل الخير، قد انحرف عن مناطق كان يمكن استغلاله فيها بشكل أكثر نفعا. لقد أصبح النقاء الجنسى بصورة غامضة وسيلة للتكفير عن خطايا أخرى. لذا فإن القمع الأخلاقى والبربرية الجسدية التى أصبحت من السمات المميزة للكنيسة المسيحية فى القرون الوسطى المتأخرة وعصر النهضة نادرا ما كانت تبدو كخطايا من الأساس مقارنة بخطايا الجنس والهرطقة.

كان ذلك فى الواقع إنجازا لا تغفل عنه العين.

---

* الزوج الذى يدفعه عشق أهوج.. أن يجامع زوجته بحماسة لكى يرضى عاطفته لدرجة أنها حتى لو لم تكن زوجته لكان تمنى أن يمارس الجنس معها فهو يرتكب خطيئة [٤٤]

القسم الثالث

آسيا حتى العصور الوسطى والعالم العربى

فى آسيا -كما فى الغرب- كان الرجل هو المهيمن. هنا أيضا كان باله مشغولا بالخصوبة. لكنه بدلا من الاكتفاء بتثبيط كافة الممارسات الجنسية التى قد تعوقها. شجع الممارسات التى قد تعزز من فرصها. كان الجنس جزءا من نمط الحياة. إذا تم بالشكل الأمثل يصبح مددا للروح. وقد اعتمدت كل من الفلسفة الطاوية فى الصين وفلسفة التانترا فى الهند بشكل كبير على التعليمات الجنسية. من الناحية القانونية والاجتماعية لم تكن النساء أقل تعرضا للقمع من نظيراتهن فى الغرب. لكن عمليا كانت القيود التى تكبل حياتهن -فى العادة- أقل بكثير. كانت كل من الصين والهند تبيح تعدد العلاقات الجنسية. وكذلك فعل العرب الذين ظلت فكرة الحريم عندهم تراود خيال الغرب الأحادى فى علاقاته لما يزيد عن ألف عام. وتحت تأثير دينهم الإسلامى الجديد اجتاح العرب فى بداية العصور الوسطى عموم الأراضى البحر-متوسطية ودحروا حضارة الفرس العظيمة. وتحولوا من بدو بسطاء إلى وسطاء ثقافيين عظام لمصلحة العالم الغربى. حيث قاموا بتوصيل الفنون والاختراعات والتقنيات من أحد طرفى العالم المعروف إلى الآخر. ومن بين ميراثهم الذى ورّثوه لأوروبا كان نظامهم الخاص والمتفرد للحب العذرى. والذى سيؤثر بعد ذلك ليس على الشعراء والغنائيين الذين يمجدون الحب الطاهر فحسب. وإنما على صورة المرأة فى الغرب بوجه عام.

٧- الصين

فيما كان آباء الكنيسة المسيحية الأولى يدعون للعفة الجنسية باعتبارها الصراط الوحيد المؤكد المؤدى للجنة، كان رجال لا يقلون ورعا فى جزء آخر من أجزاء العالم يتبنون وجهة النظر المعاكسة تماما. "كلما زاد عدد النساء اللاتى يعاشرهن الرجل عظمت الفائدة التى تعود عليه من العملية." هذا ما قاله أحدهم. وأضاف آخر "إذا استطاع (الرجل) أن يضاجع أكثر من عشر نساء فى الليلة نفسها لكان ذلك أفضل ما يكون".[1] كانت تلك إحدى تعاليم الطاو —"الصراط" أو "درب الطبيعة الأسمى"- وهى فلسفة توغلت فى بنية الفكر والمجتمع الصينى بأكملها لما يزيد عن ألفى عام.

الأفكار التى أقامت عليها الصين واحدة من أرقى حضارات التاريخ كانت أفكارا نبذتها جميع الشعوب الأخرى تقريبا على الدرب الطويل المبتدئ من العصر الحجرى القديم إلى ما بعد العصر الحجرى الحديث. الصينيون وحدهم —رافضين أن يحلوا أنفسهم من علاقة أنا-أنت مع الطبيعة (انظر ص ١٧)- بدءوا فى تطوير نظرة للعالم لا تدين بشىء للآلهة التى خلقتها المخيلة البشرية. بالنسبة لهم بدأ الوجود كحركة ديناميكية من التغيير السرمدى، اتصال زمانى ومكانى لطاقات سائلة يمتزج فيها وبشكل أبدى كل من الإنسان والحيوان والعشب والأشجار والصخور والجبال والسحب والأمطار والرياح والنهر والبحر. إن شيئا لم "يكن" لأن كل شىء مازال فى مرحلة الكينونة. وفى الواقع فإن القارئ الذى يقرأ نهاية تلك الجملة لم يعد هو نفس القارئ الذى بدأها.

بالنسبة للعقل غير المجرد ربما كان أقل طرق تصوير المفهوم الصينى للخلق غموضا هو تصويره على أنه نوع من خرائط الطقس متعددة الأبعاد، تحتوى على قنوات دائمة التغير من ضغط جوى، وتيارات هوائية تتدفق وتتصادم وترتد، وسحب تتفكك إلى ندف من البخار، وتتحلل إلى زغب فى قزعات من الغيوم بطيئة الحركة. أو تعلو متحولة إلى سحب رعدية. وعبر طريق وهمى منحنى تشق طريقها خلال كل ذلك -كما لو كانت مدعومة بسلسلة من تروس شفافة لنقل

الحركة- القوة المعروفة بالـ "تشى" -الرحيق الحيوى أو نفَس الحياة- والذى درْبه هو "الدرب الأسمى". "الصراط". "الطاو".

الخاصية الأساسية المميزة لذلك الإدراك الصينى للعالم —مثل الخاصية الأساسية لخريطة الطقس- هى الحركة والتفاوت والتموج. كل العناصر فى حالة دائمة من التقدم والتراجع. عندما يندفع أحدها إلى الأمام يجب أن يتراجع آخر. وعندما ينكمش واحد يتمدد آخر. لا نشاط بغير كمون يناظره. ولا إيجاب دون سلب يعوضه.

حتى منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد ظلت تلك الأفكار غامضة. مفهومة ولكن غير مجسدة، ثم جاء دليل الكهانة —الـ"آى-تشينج" ("كتاب التغيرات"). والذى أطلق على القوة السلبية اسم "ين" والإيجابية "يانج" ووصف كيفية تشبيكهما معا لدفع الـ"تشى" عبر "الدرب الأسمى". "تفاعل ين واحدة مع يانج واحدة يسمى الطاو. والعملية الناجمة والمستمرة والمولِّدة تسمى "التغيير".[٢]

الفلسفة التى تكونت حول مفهوم "الصراط" عرفت باسم "الطاوية". وكان معتنقوها —ومازالوا- يؤمنون أن الحياة الطويلة والسعادة وحتى الخلود ستتحقق إذا استطاع الإنسان أن يتعلم العيش فى انسجام كامل مع الطبيعة. بدلا من الخضوع لزيف المجتمعات المكبلة، ولتحقيق ذلك كان من الضرورى أن يسعى كل فرد —فى وجوده أو وجودها- إلى نفس التفاعل المنسجم بين "الين" و"اليانج" والذى كان مسؤولا -فى الطبيعة- عن توليد "التشى". "نَفَس الحياة". وأن يتعلم كيف يعزز كلا العنصرين كما يحدث ذلك فى الطبيعة عن طريق اتصالهما معا وامتصاص كل منهما للآخر.

ويمكن ملاحظة قوتى "الين" و"اليانج" -المتناقضتين والمتكاملتين فى الوقت نفسه- فى كثير من الظواهر الطبيعية. فالقمر والشتاء كلاهما "ين". والشمس والصيف "يانج". وعندما نأتى للجنس تصنف المرأة -رغم سوء الفهم الشائع ليس فى الغرب فقط وإنما فى الصين نفسها أحيانا- ليس كـ"ين" خالص وإنما كـ"ين أصغر". والرجل بالطريقة نفسها يصبح "يانج أصغر". كان ذلك اعترافا بالحقيقة النفسية أن هناك عنصرا من "اليانج" الإيجابى حتى فى أكثر النساء سلبية. ومن "الين" السلبى حتى فى أكثر الرجال إيجابية. واستتبع ذلك الإيمان بأن العنصر الثانوى يغذى العنصر الأساسى ويعزز منه فى كلا الجنسين. وهو الإيمان الذى لعب دورا محوريا فى تطوير النظرة الطاوية -بل والنظرة الصينية بأكملها- تجاه الجنس.

ولما كان تشغيل العقل والإرادة هو الذى قاد الإنسانية للانحراف عن درب الطبيعة. فإن التعاليم التى ترجع بها إلى ذلك الدرب كانت بالضرورة ستتعلق بالجسد. وبالطبع كان الجنس أحد أهم تلك التعاليم. وكانت صلته بالموضوع سهلة بما يكفى لفهمها دون اللجوء إلى الكثير من الرموز. إذ لم يتطلب الخيال سوى قليل من الجهد لإدراك أن المعاشرة الجنسية هى المعادل البشرى للتفاعل بين قوى "الين" و"اليانج" الكونية. حتى عندما كانت أوجه الشبه لا تظهر بالمفهوم الجسدى المباشر للمهبل والقضيب. وإنما بمفهوم أكثر رقة وهو رحيق "الين" (النداوة التى تبلل أعضاء المرأة التناسلية) ورحيق "اليانج" (منى الرجل).

التعاليم الجنسية للطاوية كانت سهلة الفهم بل و-فى حدود- ممتعة فى التطبيق. لكن التعاليم الأخرى كانت تتطلب عملا أكثر إيجابية. خضوعا كاملا عن طيب خاطر. لم يكن ذلك لأن تلك التعاليم غامضة بطبيعتها. ففى الواقع إذا طُلب من أطباء العصر الحديث أن يصفوا نظاما لحياة طويلة وصحية فإن قليلا منهم سيجد نقاط خلاف جوهرى مع برنامج الطاوية الأساسى -التمرين المنتظم. التغذية المتوازنة. التحكم الجيد فى النَفَس. العلاج الشمسى. والحياة الجنسية الكاملة- وإن كانوا ربما يستبدلون البند الأخير فى القائمة -وهو إكسير الحياة- ببديله فى القرن العشرين وهو حبوب الفيتامينات.• مع ذلك فعندما تم تطعيم ذلك البرنامج بمتطلبات الانسجام بين "الين" و"اليانج" لم تعد معظم تعاليمه بسيطة سواء فى أدائها أو فى فهمها.

فى الواقع وفى مرحلة مبكرة صارت فلسفة الطاو بأكملها عويصة للغاية وارتبطت بشكل وثيق بأسرار الكهنوت الغامضة مما جعل الطلاب الأكثر التزاما وحدهم هم الذين يمكن أن يأملوا فى التقدم إلى ما بعد التعاليم الأولى. كانت المشكلة الحقيقة أن الفكرة الأساسية التى يمكن إدراكها دون كثير جهد عن طريق الغريزة أو الحدس، كانت عصية على اللغة. بل أن الكلمات حين تقع فى الآذان-باستثناء آذان المتمرسين- كانت تتحول إلى محض هراء. "الكينونة هى اللا كينونة واللاكينونة هى الكينونة.... الحق هو الفراغ والفراغ هو الحق...." [٣] وكنتيجة لذلك أصبحت الرسوم التوضيحية والخطوط اليدوية والتصوير والنحت —

• وهو أمر حكيم. فإكسير الحياة القديم كان يتسبب عادة فى الفناء بدلا من الخلود. إذ لحق عدد كبير من ذوى الدم الملكى والموظفين الكبار بأسلافهم قبل الميعاد بعد تناول جرعات كانت تحتوى بشكل متكرر على الرصاص والزرنيخ.

والتى لم تكن معانيها مضطرة للمرور على فلتر المنطق- جهازا فلسفيا دينيا يميز الطاوية. ففيما كانت رسوم عصر النهضة للعذراء والطفل. أو فى لوحة العشاء الأخير. أو الصلب، توضح فقط جزءا محدودا من الإيمان المسيحى الكلى. فإن منظر "السونج" الطبيعى المرسوم فى القرن الثالث عشر يوضح الانسجام الفلسفى لـ"الين" و"اليانج" بأكمله. وقد كانت إمكانية نقل الانسجام نفسه عبر تصويرات إيروتيكية صريحة للمعاشرة الجنسية ميزة إضافية فى صالح الطاويين الذين كانوا يتمتعون بالقليل من الحس الفنى.

لقد عاش معلمو الطاوية وفكروا على مستوى شديد التسامى بالنسبة للرجل العادى. وكانت أطروحاتهم بعيدة عن عقلية الصينى "العادى" بُعد أطروحات علماء اللاهوت المحدثين عن الرجل الغربى الذى يذهب للكنيسة مرة كل شهر. نتيجة لذلك وعلى مستوى الحياة العادية تحولت الفلسفة الطاوية المعقدة والمستعصية على الفهم إلى عقيدة سحرية هجر أتباعها العقل فى مقابل الإيمان. ولكن مثلما ساعد آباء الكنيسة فى عصور مبكرة فى تشكيل الموقف من الجنس فى العالم الغربى بأكمله، ساعد معلمو الطاوية فى تشكيل الموقف من الجنس فى العالم الصينى. وكما عرف الأوروبى فى العصور الوسطى المبكرة —دون أن يفهم السبب- أن الجنس خطيئة ولكنه مباح أحيانا، كان معاصره الصينى يعرف —دون أن يفهم السبب- أن الجنس واجب مقدس يجب أن يؤديه كثيرا وبأمانة إذا كان يريد حقا تحقيق الانسجام مع "الدرب الأعلى". "الصراط". "الطاو".

السحب والأمطار

لأن المعاشرة الجنسية كانت واحدا من الطرق السريعة المؤدية إلى السماء لم يكن ثمة مبرر للتعامل معها بالكتمان، بل أن العكس هو الصحيح. حتى إذا كان تحفظ الصينى العادى فى شئونه الشخصية يمنعه من الحديث عنها فى المحادثات العامة. لم يكن ذلك مهما. كان الأمر نادرا ما يهم. إذ كان الصينى هو الذى أبدع أول كتيبات جنسية فى العالم وأكثرها شمولا وتفصيلا. كثير من الغربيين —حتى اليوم- سينظرون لها باعتبارها "بورنو". لكن البورنو مفهوم ثقافى فى النهاية، فبالنسبة للصينية كانت تلك الأعمال جادة، وضعها مؤلفون جادون لتعليم القراء طريقة الوصول إلى انسجام "الين"-"يانج" -الرجل والمرأة. ولأنهم كانوا طاويين فى إدراكهم ولأن الطاوية كانت عقيدة "ين" هادئة ومرنة وبدهية.

كانت تلك الأدلة موجهة للمرأة بقدر الرجل. بل وكثيرا ما تمنح للعروس قبل زفافها.

قائمة الكتب الرسمية التى تضم أهم الكتب المتداولة فى العهد الأول لأسرة "هان" (٢٦٠ق.م -٢٤م)• شملت ثمانية كتيبات. يضم كل منها —باستثناء واحدا— ٢٠ فصلا أو أكثر. ورغم أن نصوص تلك الكتيبات لم تعد موجودة فى شكلها الأصلى فإن العلماء يعتقدون أن كتابتها وتحريرها وطباعتها تكررت مرة بعد أخرى على مدار قرون. لذا فإن كتب "فن حجرة النوم" الثمانية "الجديدة" الواردة فى قائمة كتب أسرة "سوى"• فى القرن السابع (إلى جانب ثلاثة عشر من "كلاسيكيات الطاوية" عن الموضوع نفسه) لا تختلف كثيرا عن سابقاتها المتداولة فى عصر "هان". وحتى كتب "سوى" اختفت. لكن أجزاء أساسية منها حفظت فى عمل يابانى جُمع فى القرن العاشر تحت اسم "آى شين بو". فى ذلك التوقيت تقريبا سقطت اليابان تحت لعنة الثقافة الصينية وبدأت فى بناء حضارتها الخاصة المزدهرة الدنيوية القوية على نفس الخطى تقريبا. لقد حفظ اليابانيون فى الحقيقة تقدير الصينيين للنشاط الجنسى لمدة طويلة بعد أن تم قمعه فى الصين نفسها.

ويبدو أن معظم الكتيبات الصينية مقسمة لستة فصول. فى البداية هناك ملاحظات تمهيدية حول الأهمية الكونية للقاء الجنسى. ثم تأتى التوصيات الخاصة بالملاطفة. ثم وصفا لفعل الجماع. بما فى ذلك الأساليب والأوضاع المستحسنة. وبعد أن ينتهى الجانب العملى تبدأ فصول عن القيمة العلاجية للجنس وعن طريقة اختيار المرأة المناسبة والسلوك الواجب عليها اتباعه أثناء الحمل. أما الفصل الأخير فيحتوى على روشتات ووصفات مفيدة. وكمثل كل الأدلة التعليمية الجيدة كانت كتيبات الجنس موضحة بالصور. ليس من أجل الزينة وحسب. وإنما لتكون مرجعا يوضع بجوار الفراش ويستخدم فى المراجعة السريعة.

•حكمت أسرة هان الصين لفترة طويلة امتدت من عام ٢٠٦ قبل الميلاد وحتى عام ٢٢٠ ميلادية. وإن انقسمت إلى فترتين: الأولى (الغربية) (٢٠٦ق.م-٦م) والثانية (الشرقية) (٢٥م-٢٢٠م). تخللهما حكم "وانج مينج" بين عامى ٩ و٢٥ ميلادية. المترجم

•أسرة سوى حكمت الصين بين عامى (٥٨١-٦١٨) ميلادية. المترجم

عندما تُبدى الزهرة الحمراء جمالها
وتتنشق عطرها الذكى
عندما تمكث معك فى الليل
وتلعب أنت آخذا معها متعتك
فتشير إلى الصور وتتبع تسلسلها
فيما ترتبك هى وتحمر وجنتاها خجلا
وتبدى بحياء اعتراضها.[٤]

كان انسجام الـ"ين-يانج" هو بؤرة الاهتمام الأولى لكافة الكتيبات. والمعاشرة هى المرحلة الأولى فى تحقيقه، المعاشرة التى كانت انعكاسا بشريا للتزاوج بين الأرض والسماء. عندما ارتفعت السحب من الأرض لتلتقى بالأمطار الهابطة من السموات. "السحب والأمطار" مازالت حتى اليوم التعبير الأدبى التقليدى لفعل المعاشرة الجنسية، صدى لمعتقدات الطبيعة البدائية التى سبقت بكثير عصور الطاوية.

وربما ليس من المستغرب سيادة الاعتقاد بأن رحيق "ين" المرأة معين لا ينضب. فيما كان رحيق "يانج" الرجل —أو المنى— محدودا فى كميته ومن ثم ثمينا. وكانت خواصه ذات أهمية قصوى. إذ يمكن (أو يجب كما يصر الخبراء) لرحيق "الين" الذى كان مورده الطبيعى أن يغذيه ويقويه بانتظام. وهى العملية التى تتحقق خلال الجماع.

الوضع النموذجى كما تقول الكتيبات هو أن يطيل الرجل الجماع لأقصى درجة ممكنة، فكلما ظل بداخل المرأة كلما امتص من رحيق "الين". كما يجب عليه أن يرفعها إلى الأورجازم دون كلل، حيث يصل رحيقها إلى ذروته. بالنسبة للصينيين —دون غيرهم— كان أورجازم المرأة مهمًا للرجل بقدر ما هو مهم لها.

لكن الأمر كان يتطلب كفاءة خاصة. إذ ماذا يفيد تقوية رحيق "يانج" الرجل إذا ضيعه بسرعة وصولا إلى لحظة الذروة؟

الطريقة الأساسية لتجنب ذلك كما يصفها المعلم تونج هوسان (الذى يُعتقد أنه كان طبيبا فى القرن السابع) هى كالتالى: فى اللحظة الأخيرة "يغلق الرجل عينيه ويركز فى أفكاره. يضغط لسانه فى سقف حلقه. يحنى ظهره. ويمدد عنقه. يفتح منخاريه على وسعهما ويربع كتفيه. يغلق فمه ويشفط نَفَسه. ثم (لن يقذف و)

سيصعد المنى إلى الداخل بنفسه." [٥] وما نصح به المعلم فى الواقع هو نوع من ضبط النفس القوى لبعض اللحظات.•

بالإضافة إلى طريقة إطالة الجماع Coitus reservatus تلك استخدم الصينيون منع القذف Coitus obstructus الذى ورد وصفه فى كتاب "أمور مهمة لحجرة اليشم•". "أثناء الفعل الجنسى وعندما يشعر الرجل أنه على وشك القذف، عليه أن يضغط على المنطقة الواقعة بين الصفن والشرج بسرعة وقوة باستخدام الأصابع الوسطى فى اليد اليسرى. وفى اللحظة نفسها يستنشق بعمق ويصرّ على أسنانه مرات ومرات. دون أن يمسك أنفاسه. حينها سينشط المنى ولكن دون أن يُقذف. حيث سيرجع من ساق اليشم• ويدخل المخ." [٦] وما تحققه تلك الطريقة فى الواقع بعيدا عن النظرية. إذ أنه تحويل للسائل المنوى من القضيب إلى المثانة، ومنها سوف يخرج مع البول. كان ذلك نوعا من "منع القذف" الداخلى وله نفس التأثير المانع للحمل. بل أنه استخدم بالفعل لتحديد النسل فى عصور لاحقة. استخدمه الأتراك والأرمن. وسكان جزر ماركيز• والكميونة ذات النظام المعقد التى أسسها جون هامفرى نويز فى أونيدا بنيويورك فى القرن التاسع عشر.

•فى عام ١٩٧٦ لحق الغرب بالعلم تونج-سوان. قبل ذلك بعشرة أعوام اكتشف الباحثان ماسترز وجونسون أن الأورجازم والقذف لدى الرجل عمليتان فسيولوجيتان منفصلتان وأن من الممكن الشعور بالمتعة فى الأولى عدة مرات قبل أن تنتهى بالثانية. فى ١٩٧٦ ذكر عالم الجنس فى جامعة كاليفورنيا دكتور مينا روبنز أمام المؤتمر الدولى الثانى للسكسولوجيا أن آلة ستظهر قريبا سيكون بإمكانها تحذير الرجال عندما تقترب لحظة القذف كى يتمكنوا من تأجيلها- عن طريق الثبات والتنفس ببطء وانتظام. [٦]

•اليشم: Jade حجر أخضر أو أبيض اللون من الأحجار شبه الكريمة يكثر استعماله فى الصين لصناعة الحلى (المترجم)

•ساق اليشم: كانت واحدة من مترادفات صينية عديدة للقضيب. وكانت الإشارة ليست بالطبع إلى الساق الخضراء ولكن إلى الساق "البيضاء" الأنفس بلون القشدة. ومن بين المترادفات الأخرى الطائر الأحمر. والساق المرجانية. وعمود التنين السماوى. وعيش الغراب المنتفخ. أما أعضاء المرأة التناسلية فربما كانت زهرة الفاونيا المتفتحة. أو اللوتس الذهبى. أو المزهرية المنفتحة. أو بوابة الزنجفر.

•جزر ماركيز: مجموعة من الجزر البركانية فى جنوب المحيط الهادى. وهى جزء من جزر بولينيزيا الفرنسية. (المترجم)

لكن مؤلفى تلك الكتيبات كانوا يعرفون أن "إطالة الجماع" و"منع القذف" تتطلب أساليب لا يقدر عليها كل الرجال فى كل مرة. لذا حددوا قدر المنى الذى يمكن أن يفقده الرجل دون أن يُفسد نظامه. وكقاعدة عامة ذكر كتاب"مبادئ تغذية الحياة": "فى الربيع يمكن للرجل أن يسمح لنفسه بقذف المنى مرة كل ثلاثة أيام. وفى الصيف والخريف مرتين فى الشهر. وأثناء الشتاء على الرجل أن يخزنه وألا يقذف إطلاقا." وكان فقدان طاقة "اليانج" الناتج عن عملية قذف واحدة فى الشتاء "أعظم مائة مرة من قذف واحد فى الربيع."[٨]

أما قراء "التعليمات السرية لحجرة اليشم" فقد نالوا مزيدا من التفاصيل. "الرجال ذوو البنية القوية فوق ١٥ عاما يجوز لهم أن يقذفوا المنى مرتين يوميا. أما النحاف فمرة يوميا. والأمر نفسه ينطبق على الرجال فى العشرين. أما ذوو البنية القوية الذين تخطوا الثلاثين فلهم أن يقذفوا مرة يوميا. والرجال الأضعف مرة كل يومين." وكانت المرات تقل فى أعمار ٤٠ و٥٠ و٦٠ من مرة كل ثلاثة أيام إلى مرة كل عشرين يوما. وكان للرجل البالغ سبعين عاما المتمع بقوته أن يغامر بذلك مرة شهريا. ولكن "الضعفاء عليهم ألا يقذفوا المزيد فى هذه السن".[٩]

أحد الأطباء الطاويين العظام –"سون زو-مو"– الذى عاش فى القرن السابع كانت لديه حكاية تحذيرية عن خطر تجاهل تلك النصائح. إذ يذكر أنه قبل عدة أعوام جاءه فلاح تجاوز السبعين ليستشيره. "قال "لأيام عدة كان رحيق "اليانج" لدىَ وفيرا. غزيرا بدرجة أردت معها أن أعاشر زوجتى حتى أثناء النهار. وأصل الذروة كل يوم. الآن لا أعرف ما إذا كان ذلك مفيدا أم ضارا فى سنى المتقدمة" وأجبت "للأسف الشديد! أتعرف ماذا يحدث مع المصباح الزيتى؟ قبل أن يخبو يحترق فتيله أولا ببطء. ثم يشتعل فجأة. وبعدها ينطفئ تماما.... إنى شديد الخوف عليك ولا يسعنى إلا أن أنصحك أن تأخذ حذرك جيدا على نفسك." بعدها بستة أسابيع سقط الرجل مريضا ومات." وقرر سون أن يسجل تلك الحالة تحت عنوان: "تحذير إلى الأجيال القادمة".[١٠]

كانت الفلسفة الطاوية أساسا مهتمة بالخواص الكونية أكثر من الخواص التناسلية البشرية لمنى الرجل. ولكنها نظرت للرغبة فى إنجاب الأطفال على أنها حقيقة من حقائق الطبيعة. وفى ذلك –كما فى كل شىء آخر– كانت هناك قواعد "ين-يانج" يجب أن تتبع. ولكى يولد الطفل سليما معافى كان من الضرورى على رحيق "يانج" الأب أن يكون فى ذروة فحولته. ما يعنى أن بناءه يجب أن يتم على مدار عدد من اللقاءات الجنسية دون قذف حتى اللحظة النهائية الحاسمة.

وقد شددت كافة الكتيبات على أن تغذية "الين" الأولية يجب أن تأتى من عدد من النساء المختلفات. "إذا بدّل الرجل باستمرار النساء اللاتى يعاشرهن ستكون الفائدة عظيمة. وإذا استطاع معاشرة أكثر من عشر نساء فى ليلة واحدة لكان ذلك أفضل شىء." وسبب ذلك هو أنه "إذا عاشر نفس المرأة دائما فإن رحيقها الحيوى سيضعف تدريجيا. وفى النهاية لن تكون فى ظروف لائقة لتفيد الرجل. بالإضافة إلى أن المرأة نفسها ستصبح هزيلة." [١١]

وكان الأمر يتطلب بعض التمييز فى اختيار الشريكات التمهيديات. لم يكن ضروريا أن يتمتعن بالجمال. ولكن يجب أن يكنّ ممتعات. طيبات التربية. صغيرات وريّانات ومتناسقات الجسد والأفضل لو كن قد بلغن بالكاد. ورحيق "الين" للمرأة "ذات الشعر الأشعث والوجه القبيح. التى لها عنق طويل تبرز منه تفاحة آدم . وأسنان ملخبطة وصوت رجالى" سيُفسد على الأرجح "يانج" الرجل بدلا من أن يقويه. [١٢]

ومثل اليونانيين وكثير من الأجيال اللاحقة فى الغرب. اعتقد الصينيون أن فرص حمل المرأة تبلغ أقصاها خلال الأيام القليلة التالية للحيض. وقال المعلم تونج-سوان "إذا التقى (الرجل) معها فى اليوم الأول أو الثالث بعدها. سيُرزق. وإذا فعل فى الرابع أو الخامس ستولد فتاة. وكل قذف للمنى أثناء الجماع بعد اليوم الخامس هو إراقة لبذور الرجل بلا معنى." [١٣]

لم يكن ذلك بلا معنى فحسب. وإنما حماقة بالغة أن يضيع الرجل بذوره فى زمن لم تكن السماء فيه رحيمه، فالأطفال الذين يولدون أثناء النهار أو فى منتصف الليل. أو أثناء رعد أو خسوف للشمس أو قوس قزح. أو حال تمدد القمر أو انكماشه. كانوا جميعا معرضين لمصائر غير سارة. بل أن الأب قد يحكم على طفله أن يعانى من الصرع والدمامل والقروح إذا ارتكب الخطأ الشهير وهو الإفراط فى الشراب قبيل اللحظة الحاسمة. [١٤]

لابد أنه حتى أكثر الطاويين ورعا كانوا يشعرون فى بعض الأوقات أن التعفف أسهل، ولكن ذلك كان طريق هروب غير مقبول لدى الصينيين: غير لائق. خيانة لواجب الرجل تجاه أسلافه. متعارض مع إيقاع الطبيعة. وتنص الطاوية على أن الملل يصيب ذهن الرجل حين يُحرم من الجنس وبالتالى تعانى روحه. وقد اتفق الطبيب "سون زو-مو" مع القديس بولوس —دون أن يعرف أى منهما الآخر- على أنه أمر رائع أن يكون العقل "صافيا دوما وخاويا من المشكلات التى تجلبها أفكار الجنس.... ولكن بين عشرة آلاف رجل ربما كان هناك واحد

فقط يمكنه تحقيق ذلك." [١٥] إن تلك النظرة المتحفظة تجاه الزهد ستشكل عقبة جادة أمام انتشار المسيحية والبوذية المحافظة (هينايانا) فى الصين. إذ يدين كلاهما العاطفة الجنسية.

أسرار حجرة اليشم

عندما انتقلت الكتيبات من المبادئ العامة للتفصيلات العملية —حيث أرجعت كافة "أوْهان" الجسد والروح إلى "الممارسة الخاطئة للفعل الجنسى"— تطرقت بجدية إلى كل شىء يحتاج المستجد معرفته. رغم أن العادة الصينية الأدبية المعتمدة على الإسراف فى استخدام الصور والتعبيرات الشعرية التى يعود أصلها إلى السحر والكهانة والسيمياء جعلت تلك الكتيبات عصية على المتابعة.•

جميعها أكدت على أهمية أن يكون كل من الرجل والمرأة فى وضع استعداد. "إذا تحرك الرجل ولم تستجب المرأة، أو إذا استثيرت المرأة ولم يستجب الرجل. ساعتها لن تجرح العملية الجنسية الرجل فحسب بل ستؤذى المرأة." أما إذا كان كلاهما فى حالة مناسبة من الاسترخاء والقبول النفسى. تأتى المرحلة التالية وهى الملاطفة. وقد شددت عليها الكتيبات وأبرزتها بشكل بالغ. ليس بسبب المتعة الحسية التى تجلبها. وإنما لأنها تحفز رحيق "ين" المرأة وهو ما يصب فى مصلحة الشريكين.

فى نسخته الخاصة من "فن الحب"• —التى لا تختلف كثيرا عن مقال أوفيد الممل عن الموضوع نفسه— كان المعلم "تونج-سوان" حريصا على التفرقة بين الأساليب التى يجب أن تستخدم مع الشريك الجديد وتلك التى تصلح للعلاقات

• رغم ذلك فحتى فى وقت متأخر مثل سنة ١٩٦١ شعر الدكتور روبرت فان جوليك (أول كاتب غربى جاد يكتب عن الجنس فى الصين) أن من واجبه ترجمة أكثر من نصف مقتطفاته من الأجزاء العلمية من الكتيبات إلى اللاتينية بدلا من الإنجليزية. وكان أحيانا يخرج بنتائج مثيرة. على سبيل المثال "قال الامبراطور الأصفر Cum coitum perpetrate desideranti Caulis mihi jaspius surgere nolet، utrum sollicitare eum debeo an non?" وأجابت الفتاة الداكنة "بالطبع لا!".

• فن الحب. Ars Amatoria كتاب شعرى من ثلاثة أجزاء للشاعر الرومانى أوفيد حول الحب والجنس. ينظر إليه البعض على أنه أقدم دليل جنسى. (المترجم)

المتكررة. الأمر يحتاج لنوع من الرقة والتفهم والاستكشاف والملاطفات الناعمة. الكلمات المطمئنة، والقبلات اللطيفة. ورغم أن مراقبين غربيين لاحقين ذكروا أن الصينيين جزعوا من مجرد فكرة التقبيل ونظروا إليها كصورة من صور أكل لحوم البشر. فقد كان ذلك مجرد سوء تفاهم. إذ كانت القبلات تنتمى -ببساطة وبحكم التعريف- إلى عالم "حجرة اليشم" الحميم ولا تمارس مطلقا فى أى مكان آخر. والمرأة التى تقبل رجلا جهارا تبدو مثل عاهرة رخيصة.•

ومع العناقات الأولى تتكشف "ألف مفتنة" وتُنسى "مائة محزنة". بدأت المرأة فى تدليل "ساق اليشم" حتى تصلب مستجيبا. وبدورها أحست هى برغباتها الخاصة تتحفز. فيما كانت تشعر بقوة "يانج" الرجل. وأصبح "شق الزنجفر•" لديها رطبا كما لو كان من نبع خفى. "وفور أن وصلا إلى تلك المرحلة. باتا فى وضع مؤهل لاتحادهما معا."

لكن المعلم لم ينصحهما بالبدء على الفور. بل أكد على ضرورة القيام بـ"مزيد من المداعبات قبل الإيلاج." وقال إنه على "ساق اليشم" أن يحوم بخفة حول المدخل النفيس "لبوابة الزنجفر" فيما يقبّل صاحبه المرأة بحب أو يسمح لعينيه بالنظر مليا إلى جسدها، أو يلقى نظرة بأسفل على "شقها الذهبى". عليه أن يضرب على بطنها ونهديها ويلاطف "شرفة الدرّة" لديها. وبينما تتصاعد رغبتها عليه أن يبدأ فى تحريك "قمته الإيجابية" بحسم أكبر. إلى الخلف وإلى الأمام. موجها إياه الآن إلى اتصال مباشر مع "الشق الذهبى" و"عروق اليشم". لاعبا من جنب إلى جنب فى "قاعة الفحص". وأخيرا مريحا إياه فى جانب من جوانب "شرفة الدرة"، ثم -عندما يغرق الطوفان "شق الزنجفر" - يحين وقت اندفاع "القمة الحيوية" إلى الداخل.•

•ذلك السلوك يستمر فى بعض أجزاء من العالم اليوم. فى مايو ١٩٧٤ نظرت المحكمة الجنائية بالكويت قضية اتهم فيها صبى وفتاة لم يبلغا الثامنة عشرة بالفعل الفاضح وهو التقبيل فى الشارع. وحكمت أن التقبيل فى الطريق العام جريمة.

•لزنجفر: Cinnabar حجر يحوى خام الزئبق (المترجم)

•القمة الإيجابية والقمة الحيوية= القضيب المنتصب. شرفة الدرة= البظر. الشق الذهبى وعروق اليشم= الجزئان الأمامى والخلفى من الفرج. قاعة الفحص= الشفرات أو شفاه البظر.

"الإيلاج البطيء يجب أن يماثل حركة سمكة شبوط معلقة بخطاف. والإيلاج السريع مثل طيور تشق الريح. الدخول والانسحاب والتحرك لأعلى وأسفل ومن اليسار إلى اليمين... كل تلك الحركات يجب أن تكون متلازمة ومتواقفة." يستطيع الرجل أن "يرفرف يمينا ويسارا كما يضرب قائد حربى صفوف الأعداء." أو أن "يدفع ببطء مثل ثعبان يدخل فى جحر استعدادا لبيات شتوى." أو أن "يعلو ثم يغوص إلى أسفل. مثل شراع كبير يتحدى العواصف." وكل من تلك الحركات يجب أن تطبق فى الوقت المناسب. على الرجل "ألا يتشبث بأسلوب واحد وأن يتحرك بحسب هواه." [١٦]

لكن الرجل المعتاد على عشرة لقاءات جنسية أو أكثر فى ليلة واحدة يواجه بالتأكيد خطر الملل منها جميعا (على الأقل). وقد حاولت الكتيبات التغلب على ذلك بوضع قائمة تحوى الأوضاع الممكنة المختلفة. وذكر المعلم "تونج سوان" أن هناك ثلاثين وضعا أساسيا فحسب، ولم يتعب نفسه بتحديد الأربعة الأوائل "الاتصال الوثيق، التلاصق الثابت، الخياشيم المفتوحة. وقرن الخرتيت"- بافتراض أنها معروفة للجميع، أما أسماء الأوضاع الأخرى فهى شديدة الشاعرية. ووصفها كثيرا ما يكون بهلوانيا. هناك وضع "التنين اللولبى" و"البط الأرستقراطى"•. و"البامبو بجوار المذبح وزيز الحصاد المفسوخ"[١٧] و"العنقاء تتريض فى شق الزنجفر". و"الأفراس البرية الوثابة". أما وضع "العنقاء تمسك بفرختها" فقد كان نكتة طريفة، إذ بدلا من وصف الممارسة يصف الشريكين: امرأة طويلة ريانة ورجل صغير للغاية. بعض الأوضاع لم تكن تضمن المتعة الجنسية فحسب بل الشفاء من علل متنوعة ("أنواع الأوجاع السبعة" على سبيل المثال). وخاصة عند استخدام عدد سحرى من مرات الإيلاج. وكان رقم تسعة تحديدا من أرقام "اليانج" القوية. كما كان مربعه ٨١ يسمى عادة بـ"اليانج الكامل" [١٨]

وبرغم تلك النزعة التجديدية، نظر الصينيون -مثل معاصريهم فى أوروبا- إلى وضع الرقود أو المواجهة حيث يعلو الرجل المرأة باعتباره الوضع "الطبيعى" والأهم. يقول المعلم "على الرجل والمرأة أن يتحركا وفقا لوضعهما الكونى. على الرجل أن يدخل من أعلى والمرأة تتلقى من أسفل". كما نجد أن الـ"تسان-تونج-تشى" وهو المرجع الكلاسيكى العظيم للسيمياء فى القرن الثانى (وهو مادة غنية

•البط الأرستقراطى: حرفيا بط الماندرين Mandarin. والماندرين هو طبقة الصفوة أو كبار موظفى الدولة الصينية القديمة (المترجم)

بالرموز الجنسية) ركز على أنه "عندما يتأمل شخص فى امرأة ورجل متحدين فى لقاء جنسى... لا يتحقق ذلك عن طريق مهارة معينة. ولم يتعلماها من أحد. يجب أن يقارن بالرجل الذى يولد ورأسه لأسفل. والمرأة على ظهرها. إن الرجال والنساء لا يتخذون تلك الأوضاع عند ولادتهم فحسب. بل يمكن مشاهدتهم يتخذونها حال موتهم (كان الصينيون يعتقدون أن الرجل الغريق يطفو ووجه لأسفل والمرأة ووجهها لأعلى). لم يعلمهم أحد ذلك.... إنه فى جذور (الوضع الأساسى المتخذ أثناء) الجماع. والذى يرسخ النموذج الأصلى." [١٩]

أما الأمر الغائب عن الكتيبات التى تكشف أسرار غرف النوم فهو كل الممارسات التى يمكن أن توصف بالسادية أو المازوكية. كما لم تكن تلك الممارسات من خصائص الآداب الأقل احتراما حتى عصر القمع فى أسرة "تشانج" التى بدأت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وكان لها نظرة تجاه الجنس تشبه نظرة البيوريتانيين. حتى ذلك الوقت تقريبا أيضا. كان ينظر للممارسات الجنسية التكميلية منطقيا من منظور فائدتها فى علاقة "الين-يانج". كان الجنس الشرجى والفموى مسموحا به ما لم يتضمن قذفا يضيع بعضا من رحيق "اليانج". وذلك برغم كونه لا يقدم شيئا لتعزيز "يانج" الرجل. كذلك كان لعق البظر مستحسنا. باعتباره تجهيزا للمرأة وفى الوقت نفسه اجتلاب لرحيق "الين" من أجل الرجل. أما الاستمناء —والذى كان مسألة غير مهمة حين تمارسه المرأة— فقد كان تبذيرا مكروها فى الرجل. وما يثير القلق حقا هو القذف أثناء النوم. إذ اعتقد الصينيون أن ذلك يحدث عادة عندما تتخذ الشيطانة• هيئة امرأة جميلة لتسرق "يانج" الرجل عن طريق مضاجعته فى أحلامه•.

وانتقد الصينيون بشدة بعضا من أباطرتهم الأقل احتراما لأنهم يزينون جدران غرف معيشتهم برسومات إيروتيكية (هسياو-تشينج الذى أدخل تلك العادة فى القرن الثانى قبل الميلاد كان يعد "مخترع" الفن الإيروتيكى). كما لم ترق لهم الصور المتماثلة التى تحوط الفراش فى أكثر من "حجرة يشم" امبراطورية فى القرن السابع. مع ذلك لم يكن لديهم أى تحفظات تجاه حفلات الجنس الجماعى العامة التى ظهرت للمرة الأولى فى أواخر القرن الثانى وأصبحت شائعة نسبيا —فيما

•السقوبة: Succubus شيطانة تضاجع الرجال فى نومهم. (المترجم)

•الفكرة نفسها تقريبا كانت موجودة فى أوروبا فى العصور الوسطى المبكرة.

يبدو- بحلول القرن الرابع. وقرب نهاية عهد أسرة "هان" عندما اجتاحت الصين أزمة اقتصادية واجتماعية، عزم رئيس "الكنيس" الطاوى -ويدعى "تشانج تشويه"- على الإطاحة بحكم "هان" وتأسيس امبراطورية طاوية. وشرع فى خطته الطموحة تلك بمعاونة جيش كان رجاله يحيطون رؤوسهم بأوشحة صفراء ويمارسون تعاليم الجنس الجماعى عند ظهور الهلال واكتمال البدر بهدف الوصول إلى الـ"شيه تسوى" أو "التحرر من الذنب". وتم قمع ثورة "أصحاب العمامات الصفراء" بدموية. لكن ذلك النوع من التصوف سينتشر مرة بعد أخرى عبر القرون. وخاصة فى مقاطعة "شانتونج". المعقل التقليدى للوسطاء الروحانيين والسحرة والعرافين. وحتى فى الصين الشيوعية ولغاية عام ١٩٥٠ كانت هناك طائفة طاوية سرية. قالت عنها صحيفة "كوانج مينج جيه باو" إن "زعماءها الشهوانيين منعدمى الحياء" حرضوا أعضاءها على معاشرات جنسية تعددية كطريق للخلود والتحرر من الأمراض. وسواء كان التقرير حقيقة أم فبركة صحفية لا يهم كثيرا. لأن المثير هو ذلك الاستعداد لقبول الجمع بين الطاوية والجنس الجماعى والخلود.

وكانت المثلية الجنسية بين البالغين وبرضا الطرفين موضة فى بعض الأحيان. كما فى عصر "هان" وبعدها فى عهد أسرة "سونج" (٩٦٠-١١٢٧) ونادرا ما كانت تثير ردود أفعال قوية لأن الاتصال الحميم بين اثنين من عناصر "اليانج" -رغم كونه ليس مغذيا كما هو الحال بين "يانج" و"ين"- لم يكن مدمرا بالتأكيد. أما السحاق فكان مقبولا -على مضض- كنتيجة طبيعية لإيواء عدد من الزوجات والمحظيات معا فى أجنحة النساء- وهو ما يمكن تسميته بـ"الأعراض الجانبية للحريم". كانت ممارسة مهدرة للطاقة ولكنها ليست خطيرة. إلا عند المبالغة واستخدام القضبان الصناعية، وقد حذرت كافة الكتيبات من الاعتماد كثيرا على تلك الأدوات لأنها قد تُتلف الأنسجة. وهو الخطر الذى يزداد -ربما- مع النوع ذى الرأسين. وهو عصا مضلعة مصنوعة من الخشب أو العاج. كانت الشريكة التى تلعب دور "الذكر" تضع أحد طرفى القضيب الصناعى فى "شق الزنخفر" الخاص بها، وتشد الجزء الأوسط حول وسطها بأربطة حريرية. وتستخدم الطرف الثانى كما لو كان "ساق يشم". وتشير إحدى روايات العصور الوسطى إلى شىء يسمى "الأربية الكانتونية•" والتى يبدو وأنها كانت نباتا سريع

•الأربية: منطقة التقاء الفخذ بالجذع. والكانتونية: نسبة إلى مقاطعة كانتون الصينية. (المترجم)

النمو على شكل قضيب يتضخم ويتصلب عند غمسه فى الماء الساخن ليتحول إلى قضيب صناعى ممتاز.

كانت المثلية الجنسية الذكورية معروفة باسم "لونج يانج" على اسم شاب يدعى "لونج يانج تشون" كان الرفيق المفضل لأمير "وى" الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد. كما أطلق عليها اسم "توان هسيو" (الكم المقطوع) بسبب قصة تتعلق بأحد أباطرة أسرة "هان" الذى فضل قطع كُمه عن إزعاج شريكه الجميل فى الفراش والذى نام بثقله مستندا عليه. كان العديد من أباطرة "هان" مثليين بالمعنى الغلمانى اليونانى: حيث كانوا مزدوجى الميول وليسوا صارمين فى مثليتهم. وكان أحد كتاب عصر "مينج" (١٣٦٨-١٦٤٤ ق.م) مقتنعا أن الآباء مزدوجى الميول كثيرا ما ينجبون أطفالا هيرمافروديت (مزدوجى الجنس). إذ قال إنه خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عندما شاع ازدواج الميول بشكل واسع ظهر عدد كبير من الأطفال مزدوجى الجنس[٢٠]. ومزدوجو الجنس -كما كان يعرف الجميع- هم وحوش غير طبيعيين قادرين على ارتكاب أسوأ وأخس الجرائم.

الدجاجات الصلعاء والكرات الرنانة

لم يكن الصينيون بأى حال أول من استخدم المنشطات الجنسية. ولكن حاجتهم لها كانت دون شك أعظم من حاجة معظم الشعوب. وتعاملهم مع مشكلة استثارة الرغبة (ودرأ التعب) كان أكثر أمانة وعلمية. فبينما نظر الإغريق إلى البصل والبيض والعسل وبلح البحر وسرطان البحر والحلزون باعتبارها من بين أكثر المثيرات فاعلية،[٢١] خلط الصينيون بحرص مكونات مثل "بوشنياكا جلابرا" و"كوسكوتا جابونيكا" و"بوليجالا جابونيا" و"سريجيوم جابونيكوم"• وغيرها فى أدوية تحمل أسماء مرحة مثل "عقار الدجاجة الصلعاء". والقصة وراء تلك التسمية هى أن أحد الموظفين اعتاد على تناول العقار بانتظام فلم ينجب ثلاثة أبناء وهو فى السبعين فحسب. بل أخذ يطلب طلبات عديدة من زوجته لدرجة أنها أصبحت فى النهاية عاجزة عن الجلوس أو الركود. بعد وقت طويل ألقى بالدواء فى الحظيرة حيث ابتلعه الديك. وبعدها اعتلى الديك أقرب دجاجة وقضى الأيام القليلة التالية فى جماع لا ينقطع، وفجأة أخذ ينقر رأس الدجاجة حتى صارت

•أعشاب صينية- باللاتينية فى الأصل (المترجم)

المسكينة صلعاء تماما. لم يسجل التاريخ -في صورة المعلم "تونج سوان"- مزيدا من التفاصيل لتلك الحكاية الشيقة. لكن المعلم قال إن الرجل إذا تناول "عقار الدجاجة الصلعاء" ثلاث مرات يوميا لستين يوما. سيصبح من السهل عليه أن يرضى أربعين امرأة.

أما عقار "قرن الغزال"والذى يحتوى من بين مكوناته على مسحوق قرن الوعل فكان مخصصا للوقاية من العقم أكثر من زيادة القوة الجنسية (رغم أنه كان يعالج التعب وأوجاع الظهر أيضا). كما ذكر المعلم تركيبات لعلاج مشكلات نادرا ما تُذكر فى الأعمال الغربية حتى العصور المتأخرة مثل عدم التوافق بين القضيب والمهبل. إذا طحن نبات البوشنياكيا جلابرا مع عشبة البحر. ثم نُخلا وخُلطا بعصارة كبد كلب أبيض قُتل والقمر هلال. ثم وُضع على القضيب ثلاث مرات. وأخيرا غُسل بماء بئر عذب فى الصباح الباكر. فذلك يضمن إطالة القضيب مقدار ثلاث بوصات•. وهناك وصفات مشابهة لتضييق المهبل حتى يصبح منطبقا أكثر على القضيب. رغم أن المعلم حذر من استخدام الكثير من مسحوق التضييق حتى لا ينسد "شق الزنجفر" تماما.[٢٢]

كانت المكونات المستخدمة فى معظم المنشطات الجنسية القديمة غير مؤذية فيما يبدو. بل أن بعضها فى الواقع يحتوى على نسبة عالية من البروتين وربما كانت مفيدة لشعب يتكون غذاؤه الرئيسى من الأرز والخضروات. أما المكونات الأخرى فربما أضيفت بسبب رمزيتها وشبهها بالقضيب: فال"بوشنياكيا جلابرا" على سبيل المثال فطر لا يختلف كثيرا فى شكله عن القضيب المنتصب. مع ذلك فقد بدأ فى العصور الوسطى استخدام مكونات أكثر خطورة. مثل ذبابة ال"تيليني" والتى قد تتسبب فى التهابات مزمنة فى مجرى البول•.

•حتى لو كان ذلك لا يحدث إلا فى عيون أصحابه. فاللطب لا يعرف طريقة لتكبير القضيب سواء كان مرتخيا أو منتصبا. والطول المتوسط فى غرب أوروبا هذه الأيام هو ٩.٥١ سم أو ثلاث بوصات وربع. لكن الإحصائيات -للأسف- ليست متوفرة فيما يخص الصين فى القرن السابع.

•فى القرن الثامن عشر عادت المنشطات الجنسية غير الخطيرة مرة أخرى. وكان ينظر إلى خمر الكلب والماعز على أنه ذو قيمة خاصة (كان اللحم يخمر مع مكونات أخرى لبضعة أيام ثم يصفى). وعاد منتصف القرن العشرين إلى الغرائبية. فعندما أنهى الراحل "ك.م. بانيكار" فترته الثانية كسفير هندى فى الصين. دعاه "تشو إن لاى" إلى وليمة. وذكر بعد ذلك أن بعض القطرات الصغيرة من سائل صاف أضيفت إلى بقايا نبيذه. وقيل له إن تلك عصارة صفراوية لقرد أسود قتل حديثا. وأنها منشط جنسى قوى.[٢٣] (اجتماع حس الدعابة الصينى والهندى يجعل من تلك القصة محل شك)

معظم العقاقير المستخدمة فى المنشطات الجنسية الصينية القديمة مازالت متاحة لدى الصيادلة الصينيين واليابانيين اليوم. فيما تحتفظ محلات الجنس الأوروبية بمخزون من النسخ الأحدث للأدوات الميكانيكية التى شاعت فى الصين منذ خمسة قرون وربما أكثر. ويرد ذكر كل من حلقات القضيب والـ"الكرات الرنانة" (أو "أجراس العزم") فى الروايات الإيروتيكية التى ترجع إلى عهد أسرة "مينج".

كانت حلقة القضيب مصممة لضمان الحفاظ على انتصاب "ساق اليشم". كانت تُصنع بالقياس المناسب من اليشم أو العاج أحيانا (رغم أن الطبقات الأفقر كان عليهم تصريف الحال بشريط من القماش) وتُلف حول قاعدة الساق وتُثبّت مكانها بشريط حريرى يمر بين الساقين ثم إلى أعلى حتى يدور حول الوسط. وكانت بعض الحلقات فاخرة تُنحت بنقوش بارزة بغرض آخر هو —دون شك— استثارة "شرفة الدرة" لدى المرأة أثناء الجماع.

وما نعرفه اليوم بالاسم اليابانى "رين–نو–تاما" ومعناه "الكرات الرنانة" هو تنويعة على ما أسماه الصينيون فى الماضى بـ"أجراس بورما" والتى كانت "بورمية" مثلما الحروف الفرنسية "فرنسية". إذ كانت شائعة أصلا فى جنوب شرق آسيا كما فى الصين. ووصفها الرحالة الانجليزى "رالف فيتش" فى "الولايات الشانية البورمية" فى نهاية القرن السادس عشر. وقال إن الرجال يرتدون "حزمة من كرات صغيرة دائرية فى أعضائهم الخفية... وهم يقطعون الجلد ثم يضعونها فيه". وكانت الأرستقراطية تستخدم كرات فضية "مطلية بالذهب ومصنوعة بمهارة عظيمة" وكانت ترن "مثل جرس صغير". أما كرات الرصاص التى يستخدمها الفقراء فترن هى الأخرى "ولكن قليلا". وكان الملك "أحيانا ما يخرج كراته ويعطيها للنبلاء كهدية عظيمة". وبعد أقل من عشر سنوات ذكر التاجر الفلورنسى "فرانسيسكو كارليتى" أيضا تلك الكرات. هذه المرة فى تايلاند. قائلا إن "الشخاليل كبيرة مثل حبات البندق" ومصنوعة بشكل دائرى أو بيضاوى. وعندما يتم إدخال اثنين أو ثلاثة تحت جلد القضيب. فهى تقوم بـ"تكبير العضو. بالقدر الذى يمكن لأى شخص أن يتخيله" وأضاف أنه وفقا لـ"نيكولو دى كونتى" —وهو نبيل فينيسى زار بورما فى أوائل القرن الخامس عشر– كانت هناك وقتها "نساء عجائز ليس لهن من حرفة سوى بيع تلك الشخاليل". واعتقد كارليتى أن الفكرة الأصلية من تلك الأجراس هى تكبير القضيب لدى يمكن معه "استبعاد واستحالة ممارسة المعاشرة فى أجزاء غير مشروعة من الجسد حتى مع الرجال" —وهو ما

عنى به على الأرجح الجماع الشرجي- بينما ادعى "فيتش" -بغموض أكبر- أن تلك الأدوات "اخترعت لمنع الإساءة لجنس الرجال. حيث كانت كل تلك البلدان عبر العصور متورطة فى تلك المعاشرة لدرجة أن تعداد السكان لديهم كان شحيحا للغاية". وربما كان يقصد مسألة المثلية الجنسية. لكن كلا المؤلفين استدركا أنه بغض النظر عن أصل تلك العادة فقد نالت الخلود عندما وجدتها المرأة مثيرة للغاية.[٢٤]

النساء أنفسهن استغللن "أجراس بورما" ففى البداية كن يضعن واحدة فى المهبل قبل أن يبدأ الجماع، ولكن فيما بعد أصبحن يستخدمنها فى المتعة الفردية. وفى تلك الحالة تحتاج المرأة إلى زوجين من الكرات الفضية الصغيرة. واحدة تحتوى على قطرة من الزئبق والأخرى على لسان معدنى مرتعش وصغير للغاية: وكانت تمنح إحساسا إيروتيكيا متفردا حتى بأقل حركة من الأرداف أو السيقان. وقد نالت كرات الـ "رين- نو- تاما" شعبية بين نساء الغرب فى القرن الثامن عشر. ومرة أخرى فى أواخر القرن العشرين. رغم أن العدة الحديثة تتكون من ثلاث كرات بدلا من اثنتين، والثالثة مفرغة.

بدأ اختراع أدوات ميكانيكية تساعد على الإشباع الجنسى والاستعانة بها فى الصين. فقط بعد أن أصبح المجتمع مفرطا فى الاحتشام بدرجة تجعله لا يتعامل مع كتيبات الجنس التى كانت بالغة الأهمية لأكثر من ألف عام. بالإضافة إلى ذلك كانت دروس الجنس الواردة فى الكتيبات تفترض فى قارئها كلا من الثروة ووقت الفراغ. واللذان أصبحا من الأمور النادرة مع تغير العالم. بحلول عام ١٦٠٠ تقريبا تضاءلت تلك الأدلة الجنسية بدرجة كانت تتطلب ظهور وسائل تعليم جنسية أخرى.

فى "بهو البوذيين اللاهين" قال المعلم "شين تى فو" إبان عهد "مينج" إن هناك "أزواجا من (تماثيل) بوذا المرصعة بالزخارف . تتعانق وتلتصق بأعضائها الجنسية (أحد الزوجين كان أنثى) وبعض التماثيل كان لها أعضاء جنسية متحركة. وجميعها واضحة للعيان.... عندما يتزوج أمير. يُقتاد الزوجان أولا إلى البهو. وبعد أن ينحنيا للصلاة. على كل من العروس والعريس أن يتحسس الأعضاء التناسلية للتماثيل بأصابعه. حتى يتعلم دون كلمات طريقة الاتحاد الجنسى.... والسبب هو الخوف من أن أولئك الأشخاص الأجلاء قد يكونوا جاهلين بالطرائق المختلفة للمعاشرة الجنسية." [٢٥]

كان ذلك أكثر ما يثير الضحك. إذ لم يكن يتخيل أى من معلمى الطاوية القدماء الذين كانوا يشجعون الجنس، أو أى من البوذيين الأوائل الذين كانوا يشجبونه، أن يأتى اليوم ويضطر العرسان الملكيون تعلم حقائق الحياة من نموذج مصنوع- لبوذا!

الحجرة الغامضة

العنصر المحتشم فى المجتمع الصينى الذى انتصر على فلسفة الطاوية المعتدلة المتسامحة كان قائما على فكرة كنفوشيوس. وقد نالت زخمها خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد، وكانت نموذجا لكل ما عارضته الطاوية —الطقوس والاحتفالات، السيطرة الإدارية، التقيد الحرفى بالشرع، التفرقة الطبقية، الفاشية، وكل "الإدعاءات" الخاصة بالمؤسسات الاجتماعية التى صنعها الإنسان. ورغم أن وجهة "الصراط" ربما كانت غامضة، فإن نقطة الانطلاق إليها كانت هى الدولة الكنفوشية العقلية غير الروحية. مع ذلك لم تكن الطاوية والكنفوشية فلسفتين على النقيض التام، بل يمكن أن نجادل أنهما استطاعا أن يبقيا العالم الصينى متراوحا بينهما من خلال تفاعل الـ"ين-يانج" الخاص بكل منهما: الطاوية عقيدة "الين" المرنة والحدسية، والكنفوشية عقيدة "اليانج" القائمة على الإخضاع وعدم المصالحة والصواب المطلق. حتى أواخر القرن الثانى عشر آمن الصينيون بهدوء بكليهما، إذ سيّروا حياتهم الشخصية وفقا للطاوية، فيما اعترفوا بالكنفوشية كعقيدة تستحق الإعجاب كونها مناسبة لاحتياجات المجتمع والدولة.

من بين العناصر الأساسية فى الدولة الكنفوشية كانت العائلة المترابطة والمرتبة جيدا، والتى يتعايش فيها الماضى إلى جوار الحاضر والمستقبل مثلما يحدث فى نظرة الطاوية للخلق. لم يكن الرجل سوى حلقة وصل بين أسلافه وأبنائه: وكان "الولاء للآباء" واجبا ليس تجاه الوالد فحسب وإنما تجاه الأجيال الماضية إلى ما لا نهاية، والذين يعتمد المستقبل بأكمله على سعادتهم الأبدية فى العالم الآخر. كانت النساء دائما وأبدا فى مرتبة أدنى، بالإضافة إلى كون "التعامل معهن عسير" كما قال كنفوشيوس، مضيفا: " إذا كنت ودودا معهن يخرجن عن طوعك، وإذا عاملتهن بتحفظ يكرهنك." [٢٦] كانت النساء مجرد ضرورة بيولوجية لإنجاب أطفال ذكور يمكن لهم مواصلة تلبية احتياجات "الأسلاف". وإحدى النتائج المثيرة (من وجهة النظر الغربية) لانشغال بال الكنفوشية بالأبناء كان استعداد تلك المدرسة

الفلسفية المتطرفة فى تزمتها لتشجيع الممارسة الجنسية بأقصى قدر من السخاء. بل وتبنيها الكامل لنصائح الكتيبات للوصول إلى أقصى امتصاص للـ"ين" قبل القذف لأن تلك كانت الطريقة التى تضمن إنجاب أبناء أصحاء.

وأيا كانت درجة التفلسف فى أدلة الجنس فقد كانت لها أهمية عملية لا يستهان بها. إذ كانت تمثل خيطا أساسيا فى شبكة العلاقات الأسرية المعقدة. وكانت تلك الأدلة بالإضافة إلى الرغبة فى الأبناء. ونظام تعدد الزوجات. والنسبة الجنسية والطبقية للسكان عوامل تعتمد على بعضها البعض.

كان تعدد الزوجات فى النظام الصينى السخى يختلف عنه فى معظم المجتمعات. وقد استمر كنظام لفترة أطول كثيرا. ورغم أن سليمان -على سبيل المثال- كان يتمتع بعدد هائل من الزوجات والمحظيات. كان الأغلب الأعم من رعاياه -على الأرجح- يعتبرون أنفسهم محظوظين إن نالوا زوجة واحدة ومحظية واحدة. وفى حدود المعروف لم يكن الأمر مختلفا بين الفلاحين الصينيين. لكن بين الفلاحين والعائلة المالكة فى الصين كانت تقع طبقة وسطى قوية بدرجة غير معتادة. طبقة كانت متمسكة بالأسرة إلى حد كبير. كان رب الأسرة العادى فى تلك الطبقة لديه بين ثلاث ودستة من الزوجات والمحظيات. وللنبلاء الصغار ثلاثون أو أكثر- ما يعنى أن إصرار الكتيبات على معاشرة عشرة نساء مختلفات فى ليلة واحدة ليس أمرا قابل للتطبيق فحسب. بل ضرورة استراتيجية.

كان احترام حقوق كل زوجة ومحظية أمرا واجبا. وكان فرضا على الزوج أن يعول نسائه. ليس اقتصاديا فقط وإنما عاطفيا وجنسيا. وينص الـ "لى-تشى" - "كتاب الطقوس" الكنفوشى- بصراحة ووضوح أن "حتى لو كانت المحظية كبيرة السن. طالما لم تصل الخمسين. على الزوج أن يعاشرها مرة كل خمسة أيام." [٢٧] والمنهج التفضيلى فى الأجواء الملتهبة لأجنحة الحريم كان يعد خطرا على السلام العائلى. خطر قد يقضى على مستقبل الرجل المهنى. فالرجل الذى لا يستطيع حفظ النظام فى منزله لن يصبح محل ثقة فى وظيفة تتطلب مسؤولية رسمية.

كانت الزيجات تُرتب عادة عبر وسائط. ولم يكن الحصول على زوجة يختلف كثيرا عن شراء منزل فى الأزمنة الحديثة. كان على الوسيط أن يتأكد من دقة وصف البضاعة - فعذريتها محفوظة. ولا يوجد فى بنيتها أى ضعف غير معلن. ووالداها متقبلان. وليس من موانع قانونية أو اجتماعية لإتمام الصفقة. خاصة إذا كانت العروس والعريس أقارب أيا كانت درجة القرابة (كان حمل اللقب نفسه كافيا لاستبعاد أى إمكانية للزواج ويحوله إلى "زنا محارم"). كذلك

كان الوسيط يتأكد من عدم وجود أى تطورات غير مرغوبة فى الصفقة (عن طريق التأكد من نذائر الشر). وأن السعر صحيح.

فور انتهاء المفاوضات. يذهب العريس لزيارة والدى العروس. مصطحبا معه –لسبب صينى يستعصى على الفهم– أوزة. وعندما تنتهى الزيارة يرجع بالعروس. وتقام وليمة عشاء للزفاف فى اليوم نفسه وتتم "الدخلة" فى الليلة نفسها فى "الحجرة الغامضة" –حجرة ليلة الزفاف.

عادة ما يجمع احتفال الزواج ليس بين الرجل وزوجته الأساسية فحسب. بل وبين أخواتها وخادماتها أيضا. واللاتى تصطحبهن معها كزوجات ثانويات له. وذلك يوفر على الزوج الوقت والنفقات. كما يسهل انتقال الزوجة. والتى لم يكن عليها مواجهة العالم الجديد وحدها دون سند. كان لديها ما يكفى من المشكلات. حيث باتت الآن تنتمى كلية لعائلة زوجها– عائلة ممتدة يعيش فيها الآباء والإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والعمات والخالات كل مع أسرته مجتمعين داخل المجمع السكنى العائلى. مجتمع شديد الترابط لم تتعرف عليه العروس حتى الصباح التالى للزفاف. وفى اليوم نفسه يتم اصطحابها إلى بهو الأسلاف لتقديمها إلى أرواح "الأسلاف". وبعدها بيومين تعود إلى منزلها لتودع والديها للأبد. إذ يُفترض ألا تراهما ثانية. مع ذلك عليها أن تجتاز فترة اختبار من ثلاثة أشهر لتنال الاعتراف كـ"سيدة أولى" مستقرة. كان الزوج عادة ما يمتلك الحق فى هجران زوجته الأساسية بسبب العقم أو المرض الذى لا شفاء منه. بيد أن ذلك لم يكن شائعا، إذ تعد تلك إهانة لعائلة الزوجة من جانب. ومن جانب آخر كانت "السيدة الأولى" المغادرة تصطحب معها معظم الحريم. أى أن هجران الزوجة يعنى هجران الأخوات والمرافقات اللاتى تزوجن فى اللحظة نفسها.

مع ذلك فأيا كانت درجة الاختلاف بين نظم الزواج فى الشرق والغرب، كان الأزواج الصينيون سيدركون أن بينهم وبين معاصريهم العبرانيين والإغريق والرومان كثيرا من الجوانب المشتركة، خاصة فيما يتعلق برأيهم فى الصفات التى تميز الزوجة الصالحة. لم يكن مطلوبا أن تتمتع بذكاء أو مهارة أو جمال فائق. طالما كانت "لطيفة ورزينة وعفيفة ومنظمة" وعلى استعداد لـ"التركيز فى الغزل والنسج وتجنب الفكاهة والضحك. وأن تكون بارعة فى إعداد الطعام والخمر للضيوف.... عليها ألا تستمع إلى الكلام الخليع. وألا تنظر إلى الأشياء غير المناسبة. ألا تبدو مهملة داخل المنزل، أو مبذرة خارج المنزل. عليها ألا تختلط بالعامة. أو تتجسس من النوافذ...." [٢٨] النقطة الوحيدة المثيرة للاهتمام حقا بخصوص قائمة فضائل

الزوجة تلك هو أن الذى وضعها لم يكن ناظم مزامير عبرانى، أو أثينى كاره للنساء. وإنما "السيدة بان شاو" ذات التربية العالية والذكاء الحاد. وواحدة من أوائل المعلمات الصينيات العظيمات. والتى كانت مسؤولة جزئيا عن تجميع التاريخ الرسمى لأسرة "هان".

"السيدة بان" التى كانت معلمة وكنفوشية وإن لم تكن نسوية (ليس بالمعنى الحديث للكلمة). كانت تؤمن أن البنات يجب أن ينلن نفس التعليم الابتدائى الذى يناله الصبيان. فى أيامها (ماتت عام ١١٦م فى سن متقدمة) ولأكثر من ثمانية قرون بعدها، كانت معظم النساء المحترمات أميات. ما لم تكن لديهن الرغبة والفرصة لتعليم أنفسهن. أو ما لم يكنّ محظيات يعتبرن القراءة والكتابة بين عدة الشغل- مثل المحظيات الإغريقيات. ومن نتائج ذلك أن معظم القصائد التى تندب حظ المرأة المتزوجة كانت من نظم الرجال.

أى مرارة أن تولد امرأة
كيف تتخيل تلك الوضاعة!
.... لا أحد يذرف دمعة عندما تتزوج وترحل....
حب زوجها بعيد بعد الطريق اللبنى.
لكن عليها أن تتبعه مثلما يتبع عبّاد الشمس شمسه
وتفترق الأفئدة سريعا مثل النار والماء
وتتلقى هى اللوم عن كل خطأ.... [٢٩]

كانت النساء فى الأساس أمهات ومديرات للمنزل، كل منهن لديها مكانها الخاص فى الترتيب الهرمى لأجنحة النساء، ولكل منهن مهمات يومية محددة. كانت ساعات الفراغ العديدة تضيع أمام المرآة، فى ارتداء الملابس أو التزين. وساعات أخرى كانت تُقضى فى علاقات حب غير شرعية بدا وأنها سهلة الانجاز. كانت المرأة الرومانية ستشعر براحة غريبة إذا قارنت نفسها بالروتين المفروض على أختها الصينية.

ورغم وصايا كتيبات الجنس، كانت أجنحة النساء عادة ملجأ للأنوثة المحبطة، ولم يكن من المستغرب على الأبناء البالغين أن يقمن علاقات مع زوجات والدهم الثانويات أو مع محظياته. وبوجه عام لم تكن النساء يقابلن أزواجهن فى أوقات الأكل أو فى الفراش. كما كانت الحوارات محدودة بالشؤون

العائلية. كان الكنفوشيون يحتقرون المرأة التى تحاول مشاركة زوجها اهتماماته. و-مثل الرومان- يعتبرون مشاركة النساء فى الشؤون العامة الأصل فى كل الشرور. وذكر رجل الدولة "يانج تشين" فى القرن الثانى قبل الميلاد "إذا أوكل للنساء مهمات تتعلق بالاتصال بالعالم الخارجى فإنهن سيتسببن فى عموم الفوضى والاضطراب على الامبراطورية، وسيجلبن العار على البلاط الامبراطورى.... لا يجب أن يُسمح للنساء بالمشاركة فى شؤون الحكومة." [٣٠] وفى الواقع كان لـ"يانج تشين" بعض الحق فى شكواه. إذ كان البلاط الإمبراطورى فى ذلك الوقت يحكمه -أو بالأحرى يسىء حكمه- زمرة غير مسؤولة من الحريم. تحالف غير مقدس من المحظيات والخصيان، نجح فى هز دعائم عائلة هان من أساسها.

كذلك كره الكنفوشيون الاتصال الجسدى العارض بين الزوج وزوجته أو محظيته- وبدا أن السبب الأساسى لذلك هو أن مثل ذلك الاتصال يمكن أن يثير رغبات قد تتداخل مع الجدول المنظم للمعاشرات التعددية. يقول "لى تشى": "لا يجوز أن يتسلم الرجل والمرأة أى شىء أحدهما من الآخر يدا بيد. إذا أعطى الرجل شيئا لامرأة فلتأخذه عن طريق صينية من البامبو." كذلك لا يجوز لهما أن يذهبا إلى البئر نفسها أو إلى الحمام نفسه. أو أن يعلقا أرديتهما على المشجب• [٣١] نفسه. ربما كان ذلك من قبيل شد الأمور إلى أقصاها. ولكن ذلك الحد الأقصى لم يكن بالتأكيد أغرب من بعض القواعد التى وضعها المسيحيون لاستبعاد أى إمكانية لاتصال غير مقبول بين الجنسين. فى عام ٥٨٥ على سبيل المثال، قرر "مجلس ماكون" الثانى ألا تدفن جثة رجل بجوار جثة امرأة حتى تتحلل الأخيرة. [٣٢]

فى البداية عامل البعض قواعد الفصل الكنفوشية بسخرية صحية. فكما لاحظ الشاعر "زو-ما سيانج-جو"، كان هو نفسه أكثر فضيلة من معظم المتشددين الكنفوشيين. فنادرا ما يمر يوم لا يواجه فيه الغواية ويتغلب عليها. فيما كان الكنفوشيون يهربون ببساطة من أى موقف قد تتبدى فيه. [٣٣] كانت تلك نقطة أثارها بعض المسيحيين الذين لم ينالوا كثيرا من الاحترام. مستخدمين التبرير

•فى مكان ما بعد نحو ألفى عام من "لى تشى"، كان لدى طائفة الهزازين" الأمريكية American Shakers الفكرة نفسها. كان الرجال والنساء يأكلون منفصلين. ويتعبدون منفصلين. ولم يكن يسمح لهم حتى بالمصافحة. بل وتمادوا فمنعوا الجنس أيضا. وسبب ذلك أن مؤسسة الطائفة -"الأم لى"- قد انتقلت فى رؤيا عائدة إلى جنة عدن حيث شاهدت فعل المعاشرة بين آدم وحواء الذى كان الأصل فى كل المشاكل.

نفسه فى مواجهة آباء الكنيسة الذين يصرون على أن كل النساء الصالحات يجب أن يخفين زينتهن لأنهن يهددن أرواح الرجال. مع ذلك وبرغم أن القواعد الكنفوشية تبدو غريبة وغير طبيعية للعيون الحديثة. فقد نجحت كثيرا فى تأسيس صيغة للعائلة تتمتع بالكياسة وتضمن درجة من الكرامة الإنسانية حتى لأقل محظيات الرجل مكانة. كرامة لم تكن تنالها سوى النساء ذوات الحسب والنسب فى المجتمعات المبنية على العلاقات الأحادية فى الغرب.

فى واقع الأمر لم تكن النزعة الأبوية فى الدولة الكنفوشية قامعة للزوجات أو المحظيات أو الأرامل- والأخيرات يُعرَّفن بدقة مريبة على أنهن "شخص لا يفعل سوى انتظار الموت"- مثلما يمكن أن يتوقع. فالفيلسوف "كو هونج" الذى عاش فى القرن الثالث بعدما لخص قواعد الفصل يذكر بمرارة أن النساء والفتيات كن يستخففن بها. وبدلا من ذلك كن "يتسكعن فى السوق....يخرجن فى الزيارات. لرؤية أقاربهن. ويمكثن هناك على ضوء النجوم أو وهنّ يحملن المشاعل ليلة بعد ليلة. مصطحبات معهن حاشية كبيرة. مشعلات النار فى الشارع... الخادمات. والرسل. والكتبة. والخدم.... هؤلاء النسوة يطلبن المتعة أيضا برحلات إلى المعابد البوذية. ويخرجن لمشاهدة صيد الحيوانات والأسماك. وينظمن نزهات على التلال وضفاف النهر. بل يسافرن... فى عربات مفتوحة بستائر مرفوعة. ويتوقفن فى كل قرية وبلدة يمررن بها. يشربن الأنخاب. ويغنين. ويعزفن الموسيقى على الطريق". ويقول "كو هونج" متأففا إن ذلك يضرب بقواعد الاحتشام عرض الحائط ولا يدل إلا على انهيار الأسرة وخراب الدولة.[٣٤]

فتاة فى كوخ أخضر

فكرة أن الحاجة إلى الدعارة تنتفى حيث تنتشر التعددية الجنسية فكرة لها وجاهتها. إلا أنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة. واقع الأمر أن الزوج الصينى الذى يتمتع بضمير حى كان يتردد كثيرا على المومسات. ليس من أجل المعاشرة الجنسية وإنما هربا منها. كان الكوخ الأخضر الذى يقع تحت إدارة خاصة (سمى كذلك لأن أخشابه كانت مطلية بالأخضر مثل بيوت الأغنياء) ملاذا من المسؤوليات والخصومات المنزلية. يوفر الهدوء والاسترخاء. الغذاء والشراب الجيد. والموسيقى والرقص. وكرمٌ ليلىً إذا تطلب الأمر. وحتى القرن التاسع عشر كانت بيوت البغاء

التى تقدم خدمة الجنس فقط أمرا نادرا عدا فى بعض الأحياء التى ينتشر فيها الفقر وما يصاحبه من أحادية العلاقات الجنسية.

حتى نحو القرن الثانى قبل الميلاد كان الأمراء وكبار الموظفين يحتفظون بفرق من الراقصات والعازفات. كن يقدمن خدمة الحب لسيدهن وحاشيته وضيوفه. وأحيانا يُبعن أو يُمنحن هدايا للزوار من أصحاب المقام الرفيع. بل أن فرقا كاملة منهن قد تنتقل من إمارة إلى أخرى كرشوة دبلوماسية. وكانت هناك قضية عرض فيها الخصم الذى يأمل فى حكم لصالحه فرقة من تلك الفتيات إلى القاضى كنوع من الرشوة. مع ذلك فقد افتتحت أولى بيوت البغاء العامة فى أيام أسرة "هان". جزئيا لخدمة طبقة التجار الجديدة الذين لم يتمكنوا أو لم يجرؤوا على امتلاك فرقهم الخاصة. كما ابتكر الامبراطور "وو" من أسرة هان مؤسسة "أتباع المعسكر" للجيش- وسبق بها عصره قليلا من الناحية التاريخية.

كما هو الحال فى بقية المجتمعات. كانت هناك عدة طبقات من البغايا. تتراوح بين فتيات لا يمتلكن مؤهلا باستثناء الجاذبية الجسدية. ومحظيات بارعات ماهرات فى الموسيقى والرقص والأدب كان يُخصص لكل منهن حجرة نوم وصالون. وكن فى منزلة تمكنهن من اختيار الخُطّاب أو الرفض. على هواهن. كانت خلفيات الفتيات تختلف: بعض أصحاب دور البغاء اشتروهن من عائلات فقيرة. والبعض الآخر خُطفن. وبعضهن كن محظيات هجرهن رجالهن المحترمون وانحرفن إلى تلك المهنة حين لم يجدن مكانا آخر. كان هناك عادةً ما يشبه العقد بين أصحاب دور البغاء وبين الفتيات. كان المُلاك ينتمون لنقابات تجارية. ويدفعون الضرائب للحكومة. وفى المقابل كانوا يتمتعون بنفس الحماية الرسمية التى تتمتع بها الشركات التجارية الأخرى فى مسائل مثل انتهاك العقود. كان يحق للفتيات إذا تم تسجيلهن كمحترفات أن يشكين الملاك القساة. ولا يسمح أى طرف لأى عامل غير نقابى بالتدخل.

فور أن تدخل الفتيات مجمع البغاء يجرى تقييم قدراتهن وتدريبهن وفقا لها. كن يتعلمن عن طيب خاطر، حيث كان طموح كل بغى أن يشتريها زبون مميز فيضمها زوجة أو محظية. لم يكن للفتاة العادية أن تطمح فى أكثر من الوصول إلى مرتبة محظيات الطبقة الوسطى. لكن شراء محظية من الطبقة العليا-رغم غلو ثمنها- كان استثمارا طيبا للرجل الطموح. كانت معرفتها بالنميمة حول رجال الدولة والأعمال عادة ما تحظى بالاهتمام، ولم يكن من المستغرب أن يشملها أحد زبائنها السابقين بالرعاية الأبوية، بل وأن تمتد تلك الرعاية إلى زوجها.

ومثل المحظيات الإغريقيات كانت المحظيات فى الصين تواقات ونهمات لتعلم الأمور التى لا يتحدث فيها الأزواج أبدا مع زوجاتهم. والتى يناقشونها عن طيب خاطر مع محظية ذكية. مثل الأدب والفلسفة والتجارة والسياسة وكل الأمور التى كانت واضحة الغياب عن تعليم وتربية الفتاة حتى نهاية الألفية الأولى. كانت الفتيات عادة ما يتعلمن من المعلمين الشبان الذين يأتون للدراسة والامتحان فى "تشانج-آن" - إحدى العاصمتين التوأمين للصين- فيجتذبهم نمط الحياة العتيق للطلاب إلى أقل المناطق رقيا فى المدينة. الحى الشمالى البوهيمى حيث تقع معظم دور البغاء.

ومع انتهاء تدريبهن كانت فتيات بيت البغاء يصبحن فى أبهى صورهن. وربما لهذا السبب كانت العيون تحاصر أنشطتهن. ولا يسمح لهن عادة بمغادرة مجمع البغاء إلا لحضور المهرجانات الدينية أو للمشاركة فى احتفالات الزواج (حيث يناط بهن توصيل العروس الجديدة إلى "الغرفة الغامضة") أو لتسلية الضيوف أثناء الولائم. وفى الواقع فقد ساعد المطبخ الصينى فى الإبقاء على الدعارة الصينية على مدار أغلب تاريخها. حيث يعجز حتى أكثر المطابخ المنزلية خبرة فى تقديم ذلك العدد الهائل من الأطباق فى وليمة تستهدف التأثير على ضيوف الرجل المهنيين أو الاجتماعيين. وتناول الطعام فى تلك المناسبات عادة بدأت منذ القدم. بل أن وجه الشبه بينها وبين التقليد الحديث فى "البيزنس" يثير الدهشة إلى حد كبير: طعام وشراب يقدمان بسخاء -دون نساء أو محظيات- وعروض مسلية من محترفين. وخدمات "وكالات المرافقة" يوفرها للطبقة العليا واحد من أفضل بيوت البغاء.

وتظهر لنا ثلاث مراتب من دور البغاء فى "هانج-تشو" -عاصمة أسرة "سونج" التى سقطت على يد قبلاى خان عام ١٢٧٦- إذ تجد فى القاع "وا-شى". وهى نوع من المؤسسات الحكومية الرخيصة المصممة لتلبية احتياجات الجنود والبحارة العاديين وأيضا لتقديم الخدمة للطبقات الفقيرة. والفتيات هنا ربما يكنّ من أسرى حرب. أو أحيانا زوجات لمجرمين ثبت جرمهم. فيعاقبن -مثلما هو الحال فى مجتمعات أخرى- على أفعال أزواجهن.

وفى المرتبة الوسطى تجد "بيوت الخمر". وتقع بعضها تحت إدارة "مجلس العوائد" وتستهدف الشخصيات الحكومية فحسب. والبعض الآخر تحت إدارة خاصة. لكنها جميعا كانت أماكن ساحرة تضم فتيات مرحات وجميلات وأنيقات. وخمور ممتازة تقدم فى كؤوس فضية. ومجموعة رائعة منتقاة من

الوجبات الخفيفة الساخنة والباردة لإغراء العميل، وجو "مملوء بالموسيقى والضحك من المساء وحتى الفجر"، وفى بعضها كان بإمكان الزبون أن يتوقع صحبة الفتاة أثناء طعامه وشرابه فحسب. وفى الآخر كانت هناك "مخادع سرية مخبأة" فى طابق علوى. "بيوت الخمر المميزة تلك تعلق على أبوابها الأمامية مصابيح بامبو من (الحرير) الأحمر، سواء فى الطقس الجاف أو المطر، تحميها أغطية من أوراق البامبو المجدولة، حيث يمكن من خلال تلك المصابيح التعرف على بيوت الخمر المميزة تلك".[٣٥] كانت هذه فى الواقع أول أحياء الأضواء الحمراء•

أما المرتبة العليا من دور البغاء والتى كان يرتادها كبار الموظفين والأثرياء من التجار والكتاب والفنانين فكانت تعرف بأسماء مختلفة مثل "بيت المطربات". أو "بيت الأغانى" أو "بيت الشاى". وكانت شديدة الغلاء. كان الضيف يدفع عدة آلاف نقدا (من عملات صغيرة مثقوبة ومربوطة سويا ليسهل حملها) فى اللحظة التى يطأ فيها عتبة الدار، بزعم أن ذلك ثمنا لـ"كوب شاى من الزهورات". وكان يُصطحب إلى الدور العلوى حيث يدفع عدة حلقات أخرى من النقدية مقابل كأس من الخمر، ثم تظهر الفتيات ويمكنه أن يختار رفيقته. وخلال الطعام والشراب والغناء والتسلية التى تتبع ذلك يجد لكل مرحلة طقوسها وسعرها. لكن بيوتا كتلك كانت تقدم الأفضل من كل شىء. ليس النساء الكيِّسات والطعام والشراب الممتاز فحسب. وإنما الديكورات العتيقة والأثاث الفاخر. والحجرات التى تدفئها المجامر فى الشتاء. وتبردها سلطانيات الثلج فى الصيف. وكان بإمكان الضيف استئجار كل ما يحتاجه تقريبا. وقد ذكر أحد المصادر قائمة غريبة إلى حد ما من المشروبات وأغطية الرأس والألحفة والأردية. جميعها نظيفة وجديدة.

كان جزء صغير من دخل دار البغاء يأتى من اصطحاب الفتيات إلى المخدع. وفى الواقع لم يكن لا المدراء ولا الفتيات متحمسون للجزء الجنسى من تلك التجارة. كانت التسلية العامة وخدمات"وكالات المرافقة" مخاطرها أقل ومنافعها أكثر بكثير. لكن بعض الزبائن كانت لهم وجهة نظر أخرى. فقيود "الين-يانج"

•تعبير "حى الأضواء الحمراء" ينسب عموما إلى أمريكا فى أواخر القرن التاسع عشر. ولكن الأصل ربما يكون صينيا. فالصينيون الذين توافدوا على كاليفورنيا أثناء فترة "حمى الذهب" وما بعدها كانوا نادرا ما يصطحبون نساء "محترمات" معهم، وهو ما كان خيرا وبركة على أصحاب دور البغاء.

العادية لم تكن تطبق على المعاشرة مع البغى التى تمتلك رحيق "ين" قوى للغاية بسبب اتصالاتها العديدة. ما يجعلها تعيد بسهولة للرجل أكثر بكثير مما قد يخسره بسبب القذف. وبالنسبة للأزواج المنهكين. كان ذلك يقدم لهم استراحة محمودة من التحكم الواجب عليهم فى فراش الزوجية.

قبل القرن السابع أو الثامن الميلادى لم يبدأ الأطباء فى إدراك أن ثمة أمراض (بينها السيلان) تنتقل عبر العلاقات الجنسية —وقد سبقهم المصريون إلى ذلك بزمن طويل. وربما أضفى تأكيد الصينيين على العلاقات الجنسية العديدة مع أطراف متعددة نوعا من الغموض على العلاقة بين السبب والنتيجة والتى كان يمكن ملاحظتها بشكل أوضح فى المجتمعات المقتصدة جنسيا. وإلا فمن الصعب تفسير تأخر الطب الصينى فى تلك المسألة وهو الذى كان متقدما فى معظم الجوانب عن معاصره فى الغرب. فى واقع الأمر لم يبدأ الأطباء جديا فى تحذير الرجال من الاتصال الجنسى بالبغايا قبل القرن السادس عشر عندما اكتشف الزهرى.

حتى فى عالم الكنفوشية الطبقى. كان للبغايا حراك اجتماعى ملحوظ. كان أغلبهن يأتى من بيوت فقيرة. وكثير منهن يُقبل فى بيوت الطبقة الوسطى أو العليا. وإذا لم تكن الحالة تلك لواجهت التعددية الصينية صعوبة حقيقية فى الاستمرار. فباستثناء فترات قصيرة للغاية —عادة ما تلى الحروب— لم يتمتع أى مجتمع بذلك الفائض من أعداد النساء الذى يتيح لقسم قليل —ولكن أساسى— من السكان الذكور أن يطالب برقم يتراوح بين ثلاث نساء وثلاثين امرأة لكل رأس. لم يكن من السهل دوما تقدير عدد الصينيين، رغم أن أرقام السكان هناك كانت أكثر توثيقا مقارنة ببلدان أخرى، ولكنها مع ذلك أرقام موحية. فى عام ٧٤٥ ميلادية لم يكن هناك أكثر من ٥٢ مليونا من السكان. وبعدها مرت ثمان سنوات من الحرب الأهلية. ثم ثلاثة أرباع قرن من السلم. لكن التعداد ظل منخفضا عند ٣٠ مليونا. ومرة ثانية فى نحو عام ١١٢٥ وصل عدد السكان إلى مائة مليون، واندلعت حرب المغول. ثم فى عام ١٢٩٠ تراجعت الأرقام إلى أقل من ستين مليون.[٣٦] قد نفترض أن معدل القتلى المرتفع بين الفلاحين من الرجال فى الحالتين عنصر مهم ومحورى، ولذلك وحيث لم يكن لدى الفقراء الباقين سوى زوجة واحدة (إن تزوجوا من الأساس). فقد كان عدد النساء على الأرجح يفوق عدد الرجال فى كل الإحصاءات السكانية.

كان من المعتاد أن تنتمى زوجة الرجل الأساسية إلى نفس طبقته الاجتماعية. والشيء نفسه ينطبق على الزوجات الثانويات اللاتى تجلبهن معها. لكن عندما يقرر التوسع فى ممتلكاته المنزلية لم تكن تحده قواعد معينة. وله أن يتنازل عن الطبقة أمام الجاذبية. والنساء غير المرتبطات اللاتى كانت فرصة مقابلتهن أكبر من غيرهن كن البغايا. وهن —بطبيعة عملهن— يمثلن أكثر أعضاء الطبقات الفقيرة جاذبية. كان نظاما اقتصاديا و-إجمالا- مرضيا لجميع الأطراف. فزيادة عدد النساء مقارنة بالرجال فى الطبقات الدنيا. وفلترة الأجمل بينهن إلى البغاء ثم إلى محظيات للطبقة الوسطى أو العليا كان يعنى أن الفتيات الأقل جمالا يواجهن منافسة أقل بكثير فى سوق الزواج فى الطبقة الدنيا. وربما كن محظوظات بأكثر من طريقة. فلم يكن عليهن مواجهة تلك الصفوف المحتشدة وغير المتعاطفة من "السيدات الأوائل" و"السيدات الثانيات" و"السيدات الثالثات" لأزواجهن الجدد عندما يدخلن إلى مؤسسة الزواج. أو إلى فراش الزوجية.

كان الجنتلمان الصينى —العملى فى كل شيء- يحرص على ألا يتسبب فى أزمات عاطفية فى أجنحة النساء عندما يقدم لهن محظية جديدة. كانت هناك طريقة "صائبة" لفعل ذلك. مثلما هو الحال مع كل شيء آخر. فى نحو عام ١٥٥٠ ترك مالك أراضى أو تاجر ثرى (مجهول الهوية) لأولاده نصيحة حكيمة حول كيفية التعامل مع ذلك الموقف. قال "الطريقة الصحيحة هى أن يتحكم الرجل فى رغبته. ولا يقترب لوقت من الوافدة الجديدة. وإنما يركز انتباهه مع الأخريات. وفى كل مرة يعاشر نساءه الأخريات جنسيا. عليه أن يجعل الوافدة الجديدة تقف منتبهة بجوار الأريكة العاجية. ثم —بعد أربع ليال أو خمس من ذلك- يمكن له أن يعاشر الوافدة الجديدة. ولكن ليس فى حضور زوجته الرئيسية والمحظيات الأخريات. هذا هو المبدأ الأساسى فى الانسجام والسعادة فى أجنحة النساء الخاصة بالرجل." [٣٧]

التوبة الصينية

ربما تكون خاتمة شيقة النظر إلى "التوبة" الصينية فى ضوء توبة الكنيسة المسيحية الأولى. ليس فيما يخص أيام الصيام والكفارات. ولكن لمقارنة تقييم الخطايا المختلفة. فى الواقع كانت النسخة الصينية تشبه إلى حد كبير الامتحان

الموجز الذى تجده فى المجلات الفاخرة، والذى يسمح للقارئ بحساب استجابته أو استجابتها لمجموعة مختلفة من المواقف الاجتماعية أو العاطفية وبالنقاط.

فى الأيام الأولى للسلالة المغولية (فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر) أصبح الصينيون حساسون تجاه سلامة رعاياهم من النساء– وهو أمر غير مستغرب وهم ملزمون بإيواء الجنود المغول فى بيوتهم. وبدأ نوع جديد من الاحتشام فى الظهور. كانت إحدى صوره "جدول الحسنات والسيئات" الذى يعدد الأفعال الصالحة فى مقابل الخطايا ويقيّم كل منها على أساس أخلاقى. كان القتل يوازى ١٠٠٠ سيئة، وإنقاذ حياة بخمسمائة حسنة. وعن طريق استشارة تلك القائمة يستطيع الصينى ذو الضمير الحى أن يعرف بنفسه ما إذا كانت أخلاقياته على جانب المدين أو الدائن فى دفتر الحسابات.

أول حسابات السعرات الحرارية الأخلاقية وأكثرها تفصيلا هو الـ "شيه–تشيه–كونج–كو–لو"، والذى ينقسم إلى عشرة أقسام.[٣٨] الثالث منها يتعامل مع الغواية، ولم تكن به سوى السيئات:

الاغتصاب: لامرأة متزوجة ٥٠٠ سيئة، وإذا كانت المرأة زوجة لخادم فمائتى سيئة فقط.
لأرملة أو عذراء ألف سيئة، إذا كانت أرملة خادم أو خادمة فخمسمائة فقط.
لراهبة: السيئات لا تعد ولا تحصى.
لبغى ٥٠ سيئة.

العاطفة المشبوبة ولبيدة اللحظة: ٢٠٠ سيئة فى حالة المرأة المتزوجة، ومائة فقط إن كانت زوجة خادم.
٥٠٠ سيئة للأرملة أو العذراء، وإذا كانت أرملة خادم أو خادمة فمائتين فقط.
١٠٠٠ للراهبة
مائة للبغى.

المعاشرة غير شرعية مع سبق الإصرار: مع امرأة متزوجة مائة سيئة، والنصف لزوجة الخادم.
مع أرملة أو عذراء الضعف فى كل حالة.
مع راهبة ٥٠٠

التفاخر بتلك الخطايا: ٥٠ سيئة إذا كان الشريك امرأة متزوجة. ومائة إذا كانت أرملة أو عذراء. ومائتين لو راهبة. وخمسة لو بغى.

التفاخر كذبا بتلك الخطايا: ٥٠ سيئة فى حالة المرأة المتزوجة. ومائتين فى حالة الأرامل والعذروات والراهبات. وعشرة فى حالة البغى.

التفرقة مثيرة. وخاصة فى حالة المرأة المتزوجة والأرملة. ففى حين تعتبر معظم المجتمعات الأخرى الجرائم ضد الزوجة أكثر خطورة من الجرائم ضد الأرملة (حتى لو كان ذلك فقط لأنها تلقى ظلال الشك حول شرعية أى من الأبناء الناتجين عن العلاقة). كانت إهانة أرملة أحد "الأسلاف" عند الصينيين تستحق قدرا أكبر من الإدانة. وبالطريقة نفسها —وإن كان تفسيره أصعب— كان الاغتصاب بدم بارد يستحق لوما أكبر من الاغتصاب بدم حار. ويبدو من غير العدل على وجه الخصوص أن يُحسب على الرجل الذى يلوث اسم زوجة رجل آخر نفس العدد من السيئات بغض النظر عن صحة كلامه.

وكان هناك العديد من البنود الأخرى على القائمة. وجميعها شارحة:

	السيئات
الاحتفاظ بعدد زائد عن الحد من الزوجات والمحظيات	٥٠
تفضيل امرأة على أخرى	١٠٠
وإذا شجعها ذلك على أن تصبح سليطة... مع الأخريات	٢٠
المقارنة بين محاسن النساء اللاتى يمتلكهن الرجل	١
إطالة التفكير فيهن	١
الأحلام الخليعة	١
إذا تسببت فى أفعال خليعة	٥
التغنى بأغانى فاحشة	٢
دراسة تلك الأغانى	٢٠
الاحتفاظ بصور إيروتيكية على الرفوف	١٠ لكل صورة

لمس يد نساء رجل آخر عفوا	١
وعمدا بدافع الرغبة	١٠
ما لم يكن ذلك من باب المساعدة فى الطوارئ	لا شىء
ولكن إذا تسببت تلك المساعدة فى إثارة الرغبة	١٠
التفكير فى أفكار خليعة عن امرأة فى الشارع	١٠
رفقة الصحاب الذين يذهبون لممارسة العهر والمقامرة	٥٠
الذهاب إلى المسرح	١
المشاركة فى مسرحية	٥٠
امتداح الرجل لفضائل نسائه	لا شىء
امتداح حكمتهن وكرمهن	٥
أن يحكى الرجل قصصا قذرة لنسائه	٢٠
ما لم تكن تُحكى لاستثارة إحساس المرأة بالخجل. فى تلك الحالة	لا شىء

فى التحليل الأخير، يبدو أن الصينيين كانت لديهم قائمة أكثر إثارة وتنوعا من الخطايا، وكانوا يتمتعون–ولو بدا ذلك غريبا– بحس أفضل من التوازن مقارنة بمعاصريهم فى الغرب المسيحى الغارق فى الآلام. فقط عندما بدأت الكنفوشيه الجديدة –فلسفة مركبة تجمع نظريات الحكمة القديمة مع أجزاء من الطاوية وندف من البوذية– فى إحكام قبضتها الحديدية على المجتمع الصينى فى منتصف العصور الوسطى، بدأت واحدة من أكثر ثقافات العالم تقدما وتحضرا فى انحدار طويل نحو الفيكتورية الأخلاقية.

٨- الهند

من كان صاحب الفكرة؟ من فكر فيها لأول مرة؟ من —إذا كان أحد قد فعلها- نقل الرسالة من ثقافة إلى ثقافة، من حضارة إلى حضارة؟

مسألة نقل الأفكار والفنون والاختراعات عبر العالم القديم تظل واحدة من أكثر الموضوعات غموضا فى العملية التاريخية: مجال لا يقاوم للتكهنات. منطقة تتضاءل فيها الحقائق ولا بد فيها من الموازنة الدقيقة للغاية بين الاحتمالية والترجيح. وكما يقول أحد المؤرخين الانجليز المحدثين "من الذى تكلم عن التروس فى حضارة باكتريا• فى القرن الأول قبل الميلاد؟ والتاجر الرومانى السورى "تشين لون" —الذى زار الصين عام ٢٢٦ ميلادية- هل حدث واهتم اهتماما حقيقيا بعلم الخرائط؟ هل يمكن أن تكون نسخة من رسالة كتبها ابن الهيثم فى علم البصريات قد وصلت إلى كانتون أو هانجشتو أثناء حياته؟".[١] فى السياق الحالى ربما يضاف سؤالان آخران يستعصيان على الإجابة بالدرجة نفسها. "هل ترك أحد القباطنة الرومان حين كان عائدا إلى وطنه حاملا شحنة من العاج والقطن والتوابل من غرب الهند- نسخته الخاصة من كتاب فن الحب لأوفيد فى باريجازا؟" و"هل ثمة احتمال أن يكون الرحالة الصينى "فا-هسين" الذى عبر معظم شبه القارة فى نهاية القرن الرابع قد حمل فى صرة ملابسه الطبعة الأخيرة من كتاب "مبادئ الجنس" الذى وضعه المعلم "جونج-شينج"؟"

ليس هناك من داع حقيقى للتشكيك فى أن كتيبات الجنس الهندية العظيمة هندية الأصل والإبداع. لكن البذور الأساسية لتلك الفكرة ربما أتت من مكان آخر. فالكتيبات الإرشادية الجنسية الصينية كانت متداولة على الأقل من القرن الثانى قبل الميلاد، وكتاب "فن الجنس" لأوفيد منذ نهاية الأول. كما أن الهند كانت تتمتع بعلاقات تجارية قديمة مع البلدين. كان كتاب الكاماسوترا (الذى ينسب إلى

•باكتريا Bactria: حضارة آسيوية قديمة ظهرت فيما أصبح بعد ذلك شمال أفغانستان (المترجم)

الحكيم فاتسيايانا) على الأرجح هو أقدم أدلة الجنس الهندية وبالتأكيد أشهرها. وفيما يبدو فقد وضع فى الفترة بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين. وهو يحمل أوجه شبه معينة بسابقيْه، إذ يصنف التقنيات الجنسية بهدوء ورصانة مثل أى معلم طاوى (وإن كان لا يلجأ إلى المجازات الشعرية لوصفها) ويعامل فن الغزل بسخرية مثل أوفيد (وإن كان لا يلجأ إلى الأبيات الشعرية المزدوجة الرثائية).

مع ذلك لا يتوقف الكاماسوترا عند هذا الحد. إذ كان نتاجا للهند فى عصره كما كان "فن الحب" نتاجا لروما الأوغسطية. وصفاته المميزة –ولعه بالتصنيف. وتسامحه. ورقته أحيانا. وترفعه. ومزجه العشوائى بين النزعة العاطفية وبين القسوة – كانت جميعا من خصائص المجتمع الهندى والوعى الذى شكله.

فى زمن الكاماسوترا كانت الهند مشبعة بأفكار الهندوسية، وهى ديانة واعية بالطبقة واللون أثرت معتقداتها الجوهرية فى شتى مناحى الحياة. كانت قائمة على السلطة المقدسة للفيدا –الكتاب المقدس للغزاة الآريين ذوى البشرة الشاحبة الذين طردوا ذوى البشرة السمراء إلى جنوب شبه الجزيرة فى الألفية الثانية قبل الميلاد– وقسمت المجتمع إلى أربع طبقات غير متساوية. كان "البراهمين" أعلى من الكشاتريا، والكشاتريا أعلى من الفيزيا، والفيزيا أعلى من السودرا، وكان جميعهم أعلى من الشعوب المدحورة، والتى لم يكن لها أى مكانة على الإطلاق.

وعززت تعاليم "الكارما" النظام الطبقى الاجتماعى–الدينى للفيدا، والكارما تعنى "التقمص"، وتقول إنه عندما يموت كائن حى –إنسان أو بهيمة أو حشرة– فإذا كان قد عاش حياته "بشكل صحيح" ستعود روحه للتجسد فى مستوى أعلى، وإن عاش "بشكل خاطئ" ستتجسد فى مستوى أدنى. حتى أقل الرجال شأنا يستطيع عن طريق ذلك تحسين "الكارما" الخاصة به –بأن يعيش حياة فاضلة عبر عدد من مرات التجسد– ومن ثم يستطيع أن يرتفع إلى أعلى المستويات ويحقق أخيرا جنة التحرر من دائرة الولادة من جديد. ولهذا السبب فإن "السلوك القويم" كان بالغ الأهمية، خاصة عند "البراهمين" الذين أصبحوا قاب قوسين من التحرر ومن ثم فإن خسارتهم ستكون فادحة بالانزلاق إلى الخلف مرة أخرى.

كانت هناك "أربعة أهداف" للحياة. وهى أهداف وثيقة الصلة بمفهوم السلوك القويم. والنجاح فى الهدف الرابع –التحرر من دائرة إعادة الميلاد– يعد نتيجة طبيعية للالتزام الأمين بالثلاثة الأوائل. ومن ثم فهو أمر لا يمكن التحكم فيه بشكل مباشر. لذلك كان الزعماء الدينيون والمدنيون يفضلون التركيز على "الدارما" –"الهدف" الأول– أى الالتزام بالواجبات الدينية والاجتماعية

والأخلاقية (مقسمة بحسب الطبقات والطوائف) والتى تحدد السلوك القويم فى كافة الميادين الأساسية للأنشطة الإنسانية وتعمل سياسيا لصالح النظام والاستقرار اللذين كانا فى مصلحة الحكام والكهنة على حد سواء.

لكن رغم أن التشديد الأكبر كان على الـ"دارما" لم يفكر أحد فى الحط من شأن "الهدفين" الآخرين. وهما الأرثا (الرفاه المادى) والكاما (المتعة والحب). وهذان الهدفان تحديدا كانا يصدمان المراقب الغربى باعتبارهما بعيدين كل البعد عن الروحية. لكن حكماء الهندوس الأوائل كانوا يعرفون كثيرا عن الطبيعة البشرية واعترفوا أن الجوع الاقتصادى والعاطفى أساس فقير للروحانية. التحفظ الوحيد الذى أبدوه فى قضيتى الأرثا والكاما هو أنه لا يجب إعطاؤهما الأولوية فى الحياة. رغم أن ثمة استثناءات —كما يوضح الكاماسوترا بمنطقية. فلأن "الكاما" كانت "حرفة النساء العوام". كان من الطبيعى أن يعتبرنها الأهم بين "أهدافهن الأربعة" (كاماسوترا: الباب الأول—الفصل الثانى).

ربما كانت الأرثا والكاما امتيازين للغرائز البشرية الأساسية، السكّر الذى يحلى حبة القداسة المرة. ولكنهما كانا يمتلكان قداسة مشابهة. كان الجنس بالنسبة للهنود الهندوسيين كما بالنسبة للصينيين الطاويين واجبا دينيا —ليس من ذلك النوع الذى يضع المرء مباشرة فى انسجام مع الأبدية. ولكنه بالتأكيد واحد من أقل طرق تحسين "الكارما" كلفة وأكثرها إمتاعا.

مشكلة الحب

أيا كان تاريخ ظهور الكاماسوترا. فقد كان عملا له بالتأكيد قيمة عظيمة للأثرياء المرفهين فى عصور "جوبتا" (القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد). فى هذا العصر الذهبى من التاريخ الهندى، كانت ثمة قوى اقتصادية قوية تعمل. وازدادت مكانة طبقة التجار —الفيزيا— وثروتهم وتقديرهم لذواتهم. كان لدى أبنائهم وبناتهم من أوقات الفراغ والمال والطموح الاجتماعى ما دفعهم لاكتساب لباقة اجتماعية. ودراسة السلوك القويم من الناحية الاجتماعية والدينية على حد سواء. وكان الكتاب المستمسكون بالتقاليد —مثلما هو الحال فى روما فى القرن الأول وفى الغرب فى القرن العشرين— يشْكون من الشكوى من انحطاط الأخلاق. ولم ينصت إليهم سوى "البراهمين". مع ذلك كانت النتيجة النهائية تقليص حرية نساء الهند —دون رجالها— بدرجة خطيرة.

فـى الـوقت نفسه –وكما أوضح الكاماسوترا– كانت بنات طبقة التجار يتمتعن بنطاق أوسع من الحرية بشكل ملحوظ يتجاوز ما تتمتع به الفتيات فى أى مجتمع معاصـر. ربمـا كن –مثلما فى كل مكان آخر– خاضعات للعائلين الثلاثة –الأب ثم الـزوج ثـم الابـن– إلا أن أى مكان آخر لم يشهد نصائح للأبوين المحترمين بتزيين ابنـتهما التـى بلغـت سـن الزواج أبهى زينة وإرسالها "حيث يمكن للجميع رؤيتها بسـهولة" حتـى "تظهر محاسنها للمجتمع. لأنها نوع من السلع" (الباب الثالث– الفصل الأول). ورغم سوء التبرير فإن كثيرا من البنات فى فترة "جوبتا" كن يقضين وقـتا مـرحا. بل وكان هناك نوع من الزواج يسمح لهن باختيار أزواجهن. ربما كان صـحيحا القـول أنـه –فـيما كانـت حضـارات أخرى تعترف على وجه العموم فقط بـنوعين مـن النسـاء همـا المحترمـة وغـير المحترمـة. كانت الهند فى ذلك الوقت تتقبل بتسامح درجات الطيف بينهما.

أحد الأسباب فى ذلك أن الهندوسية الأولى –على عكس المسيحية على سبيل المـثال– لم تكـن لـديها أخلاقـيات مطلقة. ولم تكن مقتنعة كثيرا بأن هناك صواب وخطـأ دون شـروط فـيما يخـص العلاقـات الإنسـانية. كانـت "أهـداف" الـ"دارما" والـ"أرثـا" والـ"كامـا" منصبة على تحسين الـ"كارما" الخاصة بكل فرد على حدة وبشـكل شخصـى. وكان التفاعل بين سلوك فرد وآخر مرتبط بماضيهما ومستقبلهما بقـدر ارتـباطه بحاضـرهما. فـإذا تسببت أفعال شخص فى معاناة آخر، كان يمكن تفسير ذلك بأنه حُكمٌ على الشخص الذى يعانى لأنه فشل فى اتباع السلوك القويم فـى حلقـة سـابقة مـن حلقات التجسد. أما الشخص الذى تسبب فى المعاناة على الجانب الآخر فقد يكون عليه دفع الثمن فى تجسد "مستقبلى".

ذلـك الـنوع مـن الجـبرية المعقـدة –الغريبة للغاية عن أنماط التفكير الغربية– تجعـل بعـض فقـرات الكاماسـوترا تبدو قاسية للغاية هذه الأيام. إذا أراد رجل أن يتـزوج مـن فـتاة ترفضـه أو لم تقـرر مـوقفها تجاهـه. كـان الحـل أن يُسكرها. أو يخطفهـا "ويتمتع بها" ثم "يأمر بجلب النار" من بيت كاهن ويبدأ احتفال الزواج، "لأن رأى المـؤلفين القدامـى هـو أن القـران إذا عُقـد وفـق الشروط فى وجود النار لا يمكـن تجاهلـه." (الباب الثالث–الفصل الخامس). أو إذا وجدت محظية "أن ميل حبيبها تجاهها يتغير، عليها أن تستولى على أفضل أشيائه قبل أن يدرك نواياها، وتسـمح لـدائن مفتَـرض أن يأخـذها بالقـوة مـنها بعد أن تدعى أن ذلك لسداد دين علـيها.... بعـد ذلـك.... بعد أن يصبح فقيرا ومعدما عليها أن تتخلص منه كما لو كانت لم تصاحبه يوما." (الباب السادس–الفصل الثالث)

مع ذلك فإن تلك الواقعية القاسية كان يوازنها شيء تجاهله أوفيد وكتيبات الجنس الصينية لحد كبير. ألا وهو الاعتراف بأن الجنس يمكن أن يتعلق بأشياء كثيرة بخلاف ميكانيكية الغزل والجماع.

كانت هناك أدبيات للحب منذ بداية التاريخ المدون. وهى أحيانا رومانسية شاحبة مثلما فى مصر القديمة. وأحيانا أخرى فاجرة عابثة مثلما فى اليونان. ولكن رغم أن الجنس يُصوَّر عادة فى أشعار الحب. فقليلا جدا ما كان يصور فى أدبيات الجنس قبل الكاماسوترا. أما فى الكاماسوترا فكان تيمة متكررة.

لم يقصد الكاماسوترا بكلمة "الحب" التنهدات والأشواق الصناعية. أو الدلال. أو العاطفة المزيفة. أو الحيل المحسوبة لتجارة الحب والتى كانت خاصية واضحة لمفهوم أوفيد عن الحب. وإنما كان يقصد أكثر من ذلك بكثير. إن الحكيم "فاتسيايانا" (أو أيا من كان مسؤولا عن تجميع الكتاب) لم يعترف بتلك الكتلة من المشاعر الغريبة فحسب. بل تعاطف معها: ذلك التفاعل الكيميائى بين الرجل والمرأة —المألوف دوما والمتفرد دوما— الذى ربما يسيطر تماما على عقل العاشق وأعصابه. بل أن الحكيم يقاطع نفسه أكثر من مرة فى منتصف الحديث عن التكتيكات الجنسية ليذكّر قراءه أن تلك القواعد لا تنطبق على العشاق الحقيقيين. أو لينبه إلى أن أيا كان ما سيقوله عن المميزات التى يجب البحث عن المرأة على أساسها. فعلى الرجل أن يتزوج "محبوبته فحسب وليس سواها." (الباب الثالث— الفصل الأول)

مع ذلك فرغم نصحه للعاشق بمقاومة التصنيفات. كان الكاماسوترا عاجزا عن مقاومة غواية تصنيف الحب نفسه— وإن لم يكن ذلك بشكل مُرض تماما. إذ عرَف أربعة أنواع من الحب: حب الجماع البسيط —وهو نوع من الاعتياد أو الإدمان لا يختلف عن حب المقامر للقمار. وحب آخر يعتمد على إدمان منفصل لجوانب معينة فى العملية الجنسية مثل التقبيل أو العناق أو الجنس الفموى. ثم هناك حب قائم على انجذاب متبادل بين شخصين بشكل غريزى وتلقائى وامتلاكى. وأخيرا هناك الحب من طرف واحد الذى ينبع عادة من إعجاب العاشق بجمال المعشوق. (الباب الثانى— الفصل الأول)

وإرضاء النوعين الأولين من الحب يعتمد على الكفاءة الجسدية أكثر من التناغم بين الشريكين. ويمكن إنجاز ذلك على أكمل وجه بالالتزام التام بالقواعد والتقنيات التى طورها الحكماء عبر القرون. أما العشاق الحقيقيون فلا يحتاجون

لقواعد تحكمهم، ولا لمعلّم سوى غريزتهم. إنهم بصورة ما فوق القواعد وأسمى منها.

على سبيل المثال لم يكن المجتمع الهندوسى أكثر تقبلا من المجتمعات الأخرى لفكرة أن يغوى رجل امرأة رجل آخر. لكن الكاماسوترا يشدد على الظروف التى تبرر مثل ذلك الفعل. إذا استطاعت المرأة السيطرة على زوجها لصالح العشيق فلا بأس. كذلك لا بأس إذا كانت المرأة يمكن الاعتماد عليها فى مساعدة العاشق على قتل الزوج حتى يتمكنا من وراثة أمواله. وهكذا (الباب الأول–الفصل الخامس) لكن الرغبات الشهوانية البحتة لم تكن دافعا كافيا لمثل تلك الأفعال. حيث أن ذلك لا يصب فى مصلحة الـ"أرثا". كان مسموحا بغواية زوجة رجل آخر فى حالة واحدة: إذا كان حب العاشق قويا بدرجة تقوده إلى الهلاك. ويقدم الكاماسوترا عددا من الإشارات الإرشادية التى تمكن العاشق من التحرك قبل أن يخطو فى طريق اللاعودة. والإشارات بالترتيب هى: "حب العين. ارتباط العقل. انشغال البال الدائم". ثم يأتى غياب النوم. فقدان الوزن. رفض المتع المألوفة. الوقاحة. الجنون. الإغماء. وأخيرا الموت (الباب الخامس–الفصل الأول).

النظر إلى الحب بوصفه على مستوى آخر غير مستوى الجنس يمنح الكاماسوترا خاصية بشرية مميزة، إلا أنه فى الوقت نفسه ينزع عنه الرقة. فالفصل بين الحب والجنس دفعه إلى أن يصبح دليلا عن الجنس فقط. دليل واقعى للغاية. فلا توجد أى أشعار فى الكاماسوترا. أو استخدام رقيق للغة الرومانسية الروحية التى شجعت العشاق عبر العصور على الإيمان أن مشاعرهم تختلف تماما عن الرغبات الجسدية الفظة للآخرين. وفى ذلك يبدو على النقيض من الناحية التعليمية مع كتيبات الجنس الصينية التى لم تعترف بفروق حقيقية بين الحب والجنس. ومن ثم تعاملت مع الأمر برقة حيادية وفقت بين الاثنين.

ممارسة الجنس

كانت الكتيبات الصينية مهتمة أساسا بما يحدث فى الفراش، وأوفيد بكيفية الوصول إليه. أما الكاماسوترا فكان يتمتع بأفق أكثر اتساعا. وأحيانا ما يبدو أشبه بكتيبات "رفيق السيدة فى المنزل" التى ظهرت فى القرن التاسع عشر. إذ يُعدد ما تحتاج كل مديرة منزل لمعرفته: الغناء والحياكة وإعداد الفراش. واللعب على آلة

موسيقية، ولضم العقود، والرقص، وصناعة الزهور الصناعية.... لكن أوجه الشبه تنتهي فجأة. إذ كان على الهندوسية الشابة التي تريد إسعاد زوجها أن تدرس أيضا السحر والعرافة، ومصارعة الديوك، ومصارعة السمانى، ومصارعة الكباش، وأن تعرف الأنواع المختلفة للقمار، وأن تكون ماهرة فى استخدام "السيف والهراوة، والنبوت، والقوس والسهم" (الباب الثالث-الفصل الأول). فى المجتمع الهندوسى -كما فى كل المجتمعات الأخرى- كانت القاعدة الأولى التى يجب على الزوجة اتباعها كى تصل للسلوك القويم هى إسعاد زوجها.

ورغم أن دارسى الجنس الجادين وجدوا -دون شك- أن بعض محتويات الكاماسوترا مبتذلة، فإن كثيرا منها له صبغة تنويرية. ربما من الناحية النفسية أكثر من الجسدية. فكما يحدد الكتاب أربعة أنواع من الحب، يحدد سبعة أنواع من "الجماع". ثلاثة منها بين العشاق الحقيقيين. فهناك "جماع الأحباب" بين حبيبين افترقا لزمن طويل، و"جماع الحب الآتى" بين شخصين مازال حبهما فى مراحله المبكرة، و"الجماع التلقائى" بين عاشقين معتادين على بعضهما البعض. والنوعان التاليان يصفان المعاشرة بين شخصين كل منهما يحب شخصا آخر. وبين رجل وامرأة حيث يبدل الرجل -فى خياله- شريكته بالمرأة التى يرغب فيها. أما النوعان الأخيران فيغطيان العلاقات بين سيد وخادمة من الطبقة الدنيا (بهدف وظيفى بحت وهو تلبية حاجة الرجل الجنسية). وما أسماه الكتاب "جماع الخدعة" حيث تتعرض فلاحة ساذجة أو قروية لغواية محظية أو زير نساء من المدينة ذات الأضواء المبهرة (الباب الثانى-الفصل العاشر).

طوال صفحات الكاماسوترا هناك إلحاح متكرر على التسمية والتصنيف. بالطبع ذلك يساعد على التذكر، ولكنه فى الوقت نفسه أمر مربك. إذ يُشبه درج ملفات به عدد قليل من الفواصل. يستنفذ إبداع المؤلف وصبر القارئ على حد سواء. هناك أربعة أنواع من المعانقات الخفيفة. وأربعة أكثر شهوانية. وثمانية أنواع من عضات الحب، وثمانية مراحل من الجماع الفموى، وتسعة طرق لتحريك العضو الذكرى داخل المهبل، وأربعة أجزاء من الجسد يمكن معانقة كل منها على حدة، وثلاثة طرق لتقبيل عذراء بريئة، وأربعة زوايا يمكن من خلالها القيام بذلك. هناك القبلات المتوسطة، والقبلات الموجزة، والقبلات القوية. والقبلات الناعمة. وهناك أيضا قبلة المعانقة حيث يأخذ أحد العاشقين "شفتى الآخر بين شفتيه أو شفتيها". ويقول فاتسيايانا إن على الرجل أن يتحاشى ذلك النوع إذا كان له

شوارب (الباب الثانى–الفصل الثالث). وأنه لا يجب تقبيل نساء "أفانتى" مطلقا لأنهن يكرهن تلك العادة. (الباب الثانى–الفصل الخامس).

وعلى عكس الكتب السابقة التى مرت على الأمر مرور الكرام. أبدى الكاماسوترا اهتماما واضحا بقضية أبعاد الأعضاء الجنسية. فالرجل يمكن أن يكون أرنبا وحشيا. أو ثورا. أو حصانا. بحسب حجم عضوه. والمرأة غزال. أو فرس. أو أنثى فيل. وفقا لسعة عضوها. يقول فاتسيايانا بوقار إن اجتماع الأقران هو الأفضل. الأرنب الوحشى والغزال. الثور والفرس. والحصان وأنثى الفيل –ولكن إن تعذر ذلك يفضل الالتقاء المحكم عن الالتقاء الفضفاض (الباب الثانى–الفصل الأول).

• إذا كان الرجل صغير العضو وعليه أن يرضى امرأة كبيرة الفرج. فهناك خطوات معينة يمكن أن يتخذها لتكييف الأوضاع. يستطيع أن يغمد عضوه من القاع إلى القمة (أو ما بعدها) فى "أسورة" أو اثنتين أو ثلاثة مصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس أو العاج أو قرن الجاموس الوحشى أو مواد مشابهة. ولا يذكر الكاماسوترا كيفية تثبيت تلك الأساور. ربما كانت تنزلق فى مواضعها قبل اكتمال الانتصاب حتى يمسكها التمدد النهائى ويثبتها. أو بإمكانه أن يلف سلكا رفيعا من المعدن حول قضيبه. أو يستخدم الـ"جالاكا" –"أنبوبة مفتوحة من الجانبين. ومفرغة. خشنة من الخارج ومزودة بعقيدات ومصنوعة لتلائم حجم فرج المرأة. ومشدودة إلى الوسط". نوع من القضيب الصناعى المفرغ يمكن ارتداؤه حول العضو.

كذلك يمكن تكبير القضيب دون استخدام أدوات ميكانيكية، ولو أن ذلك يعنى إحداث تورم دائم بوسائل لابد وأنها كانت مؤلمة نسبيا –حك العضو على فترات منتظمة بـ"الشعر الخشن لنوع معين من حشرات الأشجار" على سبيل المثال. وإذا لم يحبذ الرجل أيا من تلك المقترحات فالبديل هو أن تتخذ المرأة أوضاع تضييق الفرج عند الجماع، أو أن تدهن مرهما مصنوعا من ثمرة الـ"استيراكانثا لونجيفوليا" وهو ما يضمن انقباض الفرج لليلة كاملة. (الباب السابع–الفصل الثانى).

بنوع من الصرامة وبصيغة إبراء الذمة يذكر فاتسيايانا أن "الناس فى البلدان الجنوبية" يفضلون إدخال أداة توسيع "داخل" القضيب. وصفه للطريقة لم يكن واضحا تماما. وبدا كما لو كان سمع بتلك الممارسة ولم يرها. مع ذلك فقد كانت تتم فى الأساس بثقب القضيب وإدخال واحدة من بين عدد من الأشياء ذات الأسماء الغريبة داخل الفتحة أو تحت الجلد (النص مثير للارتباك). ومن بين تلك

الأسماء "الهاونات الخشبية" و"تقاطعات الطرق الأربعة" و"مجموعة الكرات الثمانية". ولما كانت معظم الثقافة التالية لجنوب شرق آسيا مشتقة من جنوبى الهند. فربما كانت تلك نسخة مبكرة من "الكرات الرنانة" التى عُرفت فى بورما وسيام والصين قرب نهاية العصور الوسطى (انظر ص١٧١).

وفى موضوع أوضاع المعاشرة. كان بإمكان فاتسيايانا أن يتعلم أكثر من المعلم "تونج هسوان". لقد نجح حقا فى تجاوز أوضاع المعلم الثلاثين. ولكن ذلك لأنه كان يحسب الجماع على طريقة الماشية. والكلاب. والماعز. والغزلان. والحمير. والقطط. والنمور. والأفيال. والخنازير البرية. والأحصنة على أنها عشرة أنواع "مختلفة". وإجمالا كانت اقتراحات الكاماسوترا تفتقر للخيال. ولكنها أكروباتية. وهو ما يتضح فى المقتطفات المنقولة عن حكيم يدعى سوفارنانابها. والذى كان حصيفا فنصح بممارسة تلك الأوضاع فى حوض السباحة أولا. وهو ما لم يتقبله فاتسيايانا كثيرا. إذ كان يعتقد أن "الجماع فى الماء غير لائق. لأن الشريعة الدينية تحرمه" (الباب الثانى–الفصل السادس).

الأوضاع من قبيل "دق المسمار" –وفيها تمد المرأة أحد ساقيها وتضع الأخرى حول رأسها– كانت دون شك منتشرة بين العشاق الذين يحترفون الألعاب البهلوانية. كما كان هناك نوع هندى مميز من كلام الحب يتطلب منهم أن يكونوا علماء طيور أيضا. يقول الكاماسوترا إن العاطفة لا تختلف كثيرا عن الشجار. ومن المعتاد أن يضرب كل عاشق الآخر أثناء القيام بذلك، مطلقين أصواتا مختلفة طوال الوقت –فيهدرون ويهدلون ويبكون للآخرين "طالبين التوقف. أو عدم الاكتفاء. أو معربين عن الرغبة فى التحرر. أو الألم. أو مادحين. وإليها يمكن أن تضاف أصوات مثل تلك التى تطلقها الحمامة. والوقواق. والحمامة الخضراء. والببغاء. والعصفور. والبشروش. والبط. والسمانى" (الباب الثانى–الفصل السابع). كما يضربون بعضهم "على الظهر، والأكتاف. والرأس. أو بين النهدين". وكان إحداث الكدمات والخربشات من آداب المعاشرة. وحدد فاتسيايانا ثمانية أنواع من علامات الأظافر، وبينما كان يستطرد للنوع الأخير وصف كيف يجب أن يبدو مظهر الإظفر المعتنى به والمطلى بجودة. (الباب الثانى–الفصل الرابع).

من الواضح أن مجتمع "جوبتا"، على الأقل على مستوى الوجهاء. لم يكن يحس بحاجة للتكتم سواء فى حبه أو فى علامات الحب. كان ثمة نوع من الثقافة الجنسية الراسخة فى الحضارة الهندية تتناقض بشدة مع حالة الجنس فى البلدان الأخرى. حتى فى الصين حيث كان الجنس له نفس المكانة. كان يعتبر أمرا من

أمور حجرة النوم أو بيت البغاء، شيئا خاص وشخصيا فى أساسه. لكن فى الهند كان جزء كبير من الحياة يمارس فى العلن. ربما كانت الخصوصية تظهر أحيانا فى الجسد. ولكنها نادرا ما تظهر فى العقل أو العواطف. فى كثير من الجوانب كان الجنس طبيعيا، ممتعا، وسعيا فاضلا نحو "الهدف الثالث". فلماذا يجب إخفاؤه؟ الأمر الذى لم يكن متطابقا تماما مع النظرية التى أصبحت موضة فى بعض الدوائر الغربية هذه الأيام: الجنس طبيعى، وممتع. وجميل. فلماذا لا تخبر به العالم؟

الحياة العائلية

أنهى فاتسيايانا كتابه بعدد من الوصفات المفيدة. مجموعة متنوعة تضم المنشطات الجنسية والمثبطات الجنسية وتركيبات لتحويل الشعر إلى اللون الأسود (أو الأبيض). ولجعل الماء يبدو كاللبن. وحتى لتحويل الشفاه الحمراء إلى شاحبة بوضع مرهم مصنوع من اللاك (راتينج أحمر قاتم) المنقوع فى عَرَق خصيتى حصان أبيض. مع ذلك فلم يشمل ذلك الكتاب المتخصص فى فقه الصيدلة أى وصفات لموانع الحمل أو وسائل الإجهاض.

كان هناك عدد من الأسباب لذلك. ربما أهمها أن الكاماسوترا كتاب أرثوذوكسى فى آرائه. فاليوم لم يعد من المناسب وصف فعل منع الحمل والإجهاض بأنه "ضد الطبيعة". لكن ذلك الوصف كان هو ما استخدمه الهندوس الأوائل –إنه تدخل فى نموذج "الكارما" يؤدى لتخريبه. وتشويه لتوازن "التقمص" المعقد.

أحيانا ما يكون "للأهداف الأربعة" تأثير تعديلى على "الكارما". فعلى سبيل المثال كان يبدو أنه من حق المحظية ممارسة تحديد النسل، حيث أن مسؤوليتها الأولى –وهى توفير الحب والمتعة– جعلت من الحمل أمرا غير مرغوب. وبالطبع كان الهنود الأوائل يعرفون عدة طرق. بعضها (مثل ورق النخل المسحوق والحجر الجيرى الأحمر الذى يتم تناوله فى اليوم الرابع من الدورة) كان مشكوكا فى كفاءته. ولكن كانت هناك صلات قربى بالأفكار الأرسطية فى التوصيات لدهن المهبل بالعسل والـ"غى" (الزبد المصفى) وحبوب شجرة الـ"بالاسا" (بوتيا فروندوزا أو لهب الغابة). وبقدر ما يمكننا الحكم يبدو أن الهنود كانوا أول من عرف أن الملح مادة ممتازة لتثبيط الحمل (له تأثير قاتل للحيوانات المنوية). وكانت

المحظيات يُنصحن بإدخال "قطعة من المنح الصخرى مغموسة فى الزيت" قبل الجماع.[٢]

ورغم نواياه الموسوعية لم يكن فى الواقع هناك سبب واضح يجعل الكاماسوترا يشمل معلومات تتعلمها كل محظية فى بداية حياتها المهنية، كما كان هناك ما يكفى من الأسباب لاستبعاد المعلومات التى من الأفضل للنساء المتزوجات المحترمات عدم معرفتها —وسائل منع الحمل التى يمكن أن تُستخدم دون علم زوجها. فى الهند —كما فى كل مكان— كان الرجل رب البيت شاءت المرأة أم أبت، مع ذلك فقد كانت ثمة اختلافات من حالة لأخرى.

فكرة "العائلة الممتدة" أو "العائلة المترابطة" لم تكن جديدة على التاريخ بأى حال من الأحوال. ففى طول الدنيا وعرضها، ولقرون عديدة، كان الأبناء المتزوجون يجلبون زوجاتهم للعيش فى منزل الأبوين. والذى يتم توسيعه ليصلح لإقامتهن. كان نظاما خبا مع نمو المدن وازدحامها، ولكنه ظل سمة مميزة للطبقة العليا فى الصين. حتى لو بدأت عائلات الطبقة الوسطى والدنيا فى التشتت فى منازل منفصلة. مع ذلك فلم ينتشر ذلك النظام فى أى مكان أكثر من الهند. كان الأبناء والبنات والعمات والخالات والأعمام والأخوال وأبناء العم والخال ينتقلون مرة واثنتين وثلاثة ليتجمعوا جميعا تحت سقف واحد أو مجموعة من الأسقف. عادة مع الخدم المقيمين الذين يأتون بعائلاتهم الممتدة هم الآخرين. من الناحية الاقتصادية والعاطفية كان ذلك نظاما يرعى الأعضاء الأضعف فى القبيلة. ويحميهم من متاعب الاستقلال الصعبة ومغبة اتخاذ القرار. يعزلهم عن الواقعية الباردة للفقر والتى —فى مجتمعات أخرى— تدفع العائلات عادة إلى تحديد حجمها. قبل نحو ألفى عام من اكتشاف العالم الغربى لها عرفت الهند مفهوم الأمان الاجتماعى.

ومن الواضح أن أحد الأخطار التى تهدد العائلة الممتدة هو تزايدها إلى حد لا يمكن السيطرة عليه. ولكن ذلك كان يتم التغلب عليه بقانون مقدس يعمل متناغما مع أنماط تصنيف الهند الأخرى. فكما كان هناك أربع طبقات فى المجتمع الهندوسى وأربعة أهداف يسعى إليها الرجل الفاضل. كانت هناك أربع مراحل فى حياة الفرد —وهو تقسيم نموذجى حتى وإن كان صناعى إلى شباب وفتوة وكهولة وشيخوخة. فى نهاية الطفولة كان "البراهمين" والكشاتريا والفياسياس

يُمنحون الخيط المقدس*. وتعاد ولادتهم فى المجتمع*. ومن تلك اللحظة وحتى سن العشرين يكون الصبى فى سن الدراسة. ويُتوقع منه الطاعة لمدرسه. والتقشف والزهد الجنسى. وفى المرحلة التالية يأتى الزواج والأبوة. وفى الثالثة التى تبدأ فى آخر أواسط العمر عندما يصبح أبناؤه آباء. يُتطلب منه أن يترك منزله ويصبح ناسكا. وأن يبدأ عملية تحرير روحه من الأشياء المادية. وتكتمل العملية فى السن المتأخرة عندما يقطع كل صلة له بالعالم ويصبح متشردا جوالا.

بالطبع لم يتبع ذلك النظام المتقشف للنهاية وبضمير سوى عدد محدود من الرجال. رغم أن "السانياسين" —الشحاذ الطوعى— ظل دائما مظهرا معتادا من مظاهر الحياة فى الهند. بيد أن الإحساس بما يجب أن يكون كان يتردد مثل ظل سحابة عبر المشهد الطبيعى للسلطة الأبوية. وأيا كانت سطوة الرجل فى المرحلة الثانية من حياته ستتآمر كل الظروف لتقليص سلطته بعد ذلك. معظم ممتلكات العائلة كانت مشاعية وعندما يموت الأب أحيانا ما تقسم ثروته بين أبنائه الذين —وفقا للقانون المقدس— يحق لهم أن يأخذوا نصيبهم ويرحلوا لتكوين عائلاتهم الممتدة الخاصة. مع ذلك، فقبل وفاة الأب بوقت طويل يفترض منه أن يتخلى عن مكانته فى مجلس العائلة وعن سيطرته الإدارية على شؤون العائلة ليصبح ناسكا بالوضع إن لم يكن بالحقيقة.

كان لذلك النظام تأثيران صادمان وربما لا يمكن التنبؤ بهما. فى المقام الأول ولأن أبناء الرجل كان لديهم الوازع الدينى الضمنى ليخففوا عنه أعباء منصبه عندما يصل إلى المرحلة الثالثة من الحياة، كان من الصعب حتى على الشخصية المسيطرة أن تفرض دكتاتورية على عائلتها. كان نادرا أن تجد المعادل الهندى لرب الأسرة العبرانى. وفى المقام الثانى ورغم التأكيد على ذكورية المجتمع الهندى وبغض النظر عن القمع القانونى والاجتماعى، كان يمكن للزوجة والأم الهندية أن تصبح شخصا مدهش القوة والنفوذ. فالمرأة الهندية الصامتة الخاضعة لم تكن سوى أسطورة روج لها المراقبون من الخارج والذين أولوا فائق الانتباه للقوانين ولم ينتبهوا

---

*الخيط المقدس: احتفال طقسى للولادة الثانية. مبنى على الاعتقاد بأن الطفل يولد مرة عند خروجه من بطن أمه. وأخرى عند تلقيه تعاليم المانترا. وفيه يضع الطفل خيطا حول جسده من أعلى الكتف الأيسر إلى أسفل الذراع الأيمن (المترجم)

*فى العصور الأحدث. كان البراهمة فقط فى المعتاد هم الذين يعرون بذلك الاحتفال الخيطى "ليولدوا مرتين"

بما يكفى للبشر. ففيما ينسحب زوج المرأة عن مسؤولياته ينتقل الاحترام والطاعة -اللذان يحظى بهما رب البيت فى المجتمعات الأخرى - بكامله تقريبا إلى الزوجة. ورغم الخنوع الذى تظهر به أمام الغرباء فإنها كانت عادةً الحاكم المطلق للعائلة.

ربما كانت تلك الأيام البعيدة أسعد أيام الزواج التى شهدتها المرأة الهندية. أثناء الفترة المبكرة من التاريخ الهندى. كان من المعتاد -فيما يبدو- أن تبلغ الفتاة تماما قبل الزواج. ولكن مع بداية ذلك العصر شددت النصوص الدينية على فضل إتمام الزواج قبيل البلوغ. وبحلول العصور الوسطى أصبح زواج الأطفال عادة شائعة. لم يكن هناك سبب واحد لذلك. لكن البنات غير المتزوجات كن عبئا. ولما كان الهنود (مثل معظم الشعوب الأخرى) ينظرون للفتيات باعتبارهن شهوانيات بالطبيعة وسيفقدن عذريتهن بالتأكيد عند أول همسة وفى أول فرصة. بدا أنه من المرغوب تقييدهن برباط الزوجية قبل أن تقع كارثة من هذا النوع. العامل الآخر فى شيوع الزواج المبكر ربما كان تناقص عدد النساء. ورغم أن الهند عانت أثناء الألفية الأولى الميلادية من الغزوات فى الشمال والحروب المحلية الصغيرة فى الجنوب، لم يظهر تفاوت حاد فى تعداد السكان.[٣] مما يرجح أن أعداد ضحايا الحروب لم تكن مرتفعة بما يكفى ليصبح لها نفس تأثير نظيراتها فى الصين. مع ذلك كانت المجاعات خطرا متكررا فى الهند. ورغم أنها لم تتسبب فى انخفاض كبير فى عدد السكان، فقد أبقت معدل النمو السكانى عند مستوى منخفض. وكان ضحايا تلك المجاعات عادة من النساء الحوامل. والأطفال حديثى الولادة. والأطفال الإناث اللاتى يُحرمن من الغذاء حتى يمكن لإخوتهن أن يأكلوا. أما الشكل المباشر فكان لجوء الفقراء إلى قتل الإناث من الأطفال. وهى العادة التى ستستمر مع الراجبوتيين (أعضاء الطبقة العسكرية المالكة) حتى القرن التاسع عشر. وبعيدا عن المجاعات، فلا بد وأن تراجع سن الزواج أسهم فى تزايد معدل وفيات الفتيات اللاتى كن يتزوجن فى سن مبكرة للغاية.

فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين كان الزواج يُعد مثاليا حين يكون عمر العروس ثلث عمر العريس. وكُتب القانون التى تنسب إلى "مانو" تقترح ٨ و٢٤ كعمرين مناسبين.[٤] ولكن سواء تماشت النظرية مع التطبيق بهذه الدقة أم لا فإن العروس ابنة الثمانية أعوام لن تنتقل للعيش مع زوجها حتى تصل إلى البلوغ فى حوالى الثانية عشرة. وحتى عند ذلك يجرى إدخالها إلى المرحلة الجنسية من الزواج بكثير من الحيطة. فكما قال فاتسيايان بوضوح "إذا أُجبرت امرأة على

الخضوع لعاملة خشنة من رجل تعرفه بالكاد. فقد تكره المعاشرة الجنسية. بل وقد تكره جنس الذكور بأسره...." (الباب الثالث-الفصل الثانى). لم يكن يُنصح أن يقبّل الرجل زوجته قبل عشرة أيام من المعاشرة العفيفة. وبعدها تبدأ مراحل تتوالى عبر ثلاثة أيام حتى يشعر أنها أصبحت أخيرا مستعدة للجماع.

كانت العروس الهندية الطفلة فى العادة بعيدة -على الأقل- عن بعض المشكلات التى تواجه نظيراتها فى مجتمعات أخرى. فزوجها -فى معظم الأحيان- كان ينتمى لنفس طبقتها (وفى أوقات لاحقة لنفس طائفتها). ما يعنى أن مظهرهما وطريقة تربيتهما متشابهتان. كذلك كان من الأرجح أن تكون زوجته الوحيدة. فرغم أن تعدد الزوجات لم يكن أمرا غريبا على الهند بأى حال. فهو لم يكن شائعا على الإطلاق. إلا بين العائلة المالكة والأثرياء. بل أن تعدد الأزواج كان معروفا فى بعض المناطق مثل ساحل "مالابار" والتلال الواقعة عند سفح جبال الهيمالايا. ما يعنى أنه كان مسموحا للمرأة بأكثر من زوج. والأبطال الخمسة فى ملحمة الماهابهارتا العظيمة أشقاء تزوجوا جميعا من الزوجة نفسها. ما قد يعد صدى لعادة قديمة ولكنها ورطت المشرعين فى شروحات وتبريرات معقدة. وبحلول الألفية الأولى كان حتى تعدد الزوجات مقبولا نظريا فى حالة وحيدة هى عقم الزوجة الأولى. وفى معظم الأنحاء كان تعدد الأزواج (الذكور) يُمارس فقط فى سياق خاص. حيث يمكن للزوج العقيم أن يفعل مثلما فعل رجال اسبرطة من قبل. فـ"ينقل حقوقه الزوجية مؤقتا إلى رجل أقوى جنسيا. كى يأتى له بأطفال يتمتعون بالجمال والصحة. دون أن يضطر لفصم عرى الزواج".[٥]

لكن التأثيرات النفسية حتى للزواج الأحادى كانت شيقة. إذ ترجح الأدلة أن الأزواج الهنود -كقاعدة- كانوا يعاملون الزوجات الصغيرات بنفس الرعاية والرقة التى يصبغونها على أطفالهم. والنتيجة هى أنهم بدلا من إجبارهن على النضج المبكر (باستثناء المعنى الجنسى) فهم يعملون على تأخيره. فالزوجة المراهقة فى ذلك الوقت كانت تعتمد على زوجها الذى يكبرها بكثير عقليا وعاطفيا وجسديا. وتنظر إليه -كما تأمرها التعاليم الدينية- باعتباره كائنا أعلى. الفرق بين ١٢ و٢٨ شاسع. ولكنه أبدا ليس كذلك بين ٢٠ و٣٦. فقط عندما كانت تصل الزوجة الهندية إلى سن العشرينات ربما، كانت تبدأ فى اكتشاف شخصيتها الخاصة وقدراتها الخاصة. وعندما يكبر أبناؤها ويتزوجون. ويفكر زوجها فى التقاعد تكون هى مازالت فى الثلاثينات. لديها القدرة والرغبة على أن تجعل حضورها ملموسا.

يصعب أن نحدد كم كان ذلك الموقف السعيد يدوم. حيث أننا لا نعرف كثيرا عن متوسط الأعمار فى الهند القديمة. كُتب القانون لابد وأنها كانت تتنبأ للرجل أن يعيش نحو خمسين عاما. لكن إذا كان يتزوج فى سن الرابعة والعشرين ولا يدخل المرحلة الثالثة من الحياة حتى يولد أحفاده (أى بعد ٢٥ عاما على الأقل). فإن حتى سن الخمسين يعد تقديرا بخسا ما لم تنحشر مرحلتا التقاعد والزهد فى فترة زمنية قصيرة للغاية. والاحتمال الأكبر هو أن الأغنياء وحدهم كانوا يعيشون لفترة أطول. وأن متوسط عمر المرأة كان يقل عن الرجل بأربعة أو خمسة أعوام. وكقاعدة يمكن للمرأة أن تتوقع أن تعيش بعد زوجها بعشرة أعوام. وهى عشرة أعوام مروعة خاصة فى عائلات الطبقة العليا الأرثوذوكسية.

كان الزواج ثانية ممنوعا. وبحلول العصور الوسطى انسحب ذلك على الأرامل اللاتى لازلن فى سن الطفولة ولم يدخلن بأزواجهن. وكذا حُرمن من كل راحة جسدية. كانت الأرملة تنام على الأرض، ولا تتناول سوى وجبة واحدة يوميا (دون عسل أو لحم أو خمر أو ملح). وكانت تُمنع من ارتداء الملابس الملونة. ووضع الزينة أو العطور. وفى العصور الوسطى كان يُنتظر منها أن تحلق رأسها. كانت أيامها مكرسة للصلاة وأداء الطقوس الدينية التى كان الهدف منها ضمان أن تتزوج من زوجها ثانية فى حياة "التقمص" التالية. وكان حضورها لعنة على الجميع باستثناء أطفالها. من الناحية الاجتماعية كانت الأرملة بمثابة الشبح فى الحفلة. تذكرة دائمة بزوجها الفقيد.

عموم القول لم يكن من المدهش أن تختار بعض النساء الموت بعد وفاة أزواجهن. فالتاريخ القديم فى أنحاء عدة من العالم —بلاد الرافدين ومصر وآسيا الوسطى والصين— ملىء بجثامين تمت التضحية بها بعد وفاة الرجل. بداية من زوجاته، وخُدامه، وخيوله المفضلة، وكلابه الوفية. وليس ثمة طريقة لمعرفة كم منهم لقى حتفه طوعا. عن حب أو إخلاص للراحل. مع ذلك ففى الهند كانت عادة "السوتيه"• أو —لنكن أكثر دقة— "الساتى" (الكلمة تعنى "المرأة الفاضلة") طوعية دائما. أو على الأقل كان ذلك ما يبدو. إذ كانت الضغوط الاجتماعية والعائلية التى تدفع باتجاه السلوك القويم أحيانا قوية بما فيه الكفاية. وخاصة فى العصور الوسطى، لدفع المطلقة إلى محرقة زوجها سواء أرادت ذلك أم لم ترد.

•السوتيه: انتحار الأرملة حرقا فى محرقة زوجها المتوفى (المترجم)

وهناك تلميحات فى الـ"فيدا" أن العادة ربما كانت عتيقة. ولكنها لم تسجل فى القرن الرابع وبدت نادرة حتى العصور الوسطى•. بعض الجهات كانت تدينها تماما. ولكن البعض الآخر كانت تعلن أن المطلقة التى تصبح "ساتى" تمحو كافة خطاياها هى وزوجها عن طريق تضحيتها. وأن الزوجين المحظوظين من ثم سوف يتمتعان بخمسة وثلاثين مليون عاما من الرحمة (معا) فيما كان أقرب المعادلات الهندوسية للجنة.

الكاماسوترا فى بؤرة الضوء

وفقا للأسطورة كانت أول "ساتى" هى زوجة الإله العظيم "شيفا" فى دوره المبكر الشبيه بدور رودرا•. لقد احتاج الأمر كثيرا من الجراحات التجميلية لإضفاء مسحة تناسق على الديانة الهندوسية، التى ظهرت فى وقت ما بعد عام ٥٠٠ ق.م كنوع من التحالف التوحيدى بين الطوائف التى اجتمعت فقط على إيمانها بالـ"فيدا". ولكن بحلول القرن الثالث الميلادى تقريبا كانت الأرباب والآلهة المحلية العديدة المعبودة فى العصور السابقة قد تنازلت عن بعض من صفاتها الشخصية ومعظم قدراتها لثالوث جديد يتكون من "براهما" الإله الحكيم والخالق. و"فيشنو" رب الخير والحماية. و"شيفا" الذى جمع بين الأب المرهوب الجانب. وإله الخصوبة. والذى كان أيضا رب الأشباح والجن. وملك الرقص الذى يتمتع بقدرات تدميرية غير منطقية تجعله أشبه بمخرب كونى.

فى الوقت نفسه تقريبا بدأ ظهور الربات فى المشهد الدينى بعد طول تجاهل. كان العوام —خاصة فى جنوب الهند حيث فشلت السيادة الذكورية للغزاة الآريين فى التغلب على الأوضاع الزراعية القديمة للسكان الأصليين– يعبدون دائما ربات الخصب. وجنيات النهر. وحوريات الأشجار. بيد أن المثقفين الهندوس الذين كانوا مخلصين لمعتقدات أسلافهم الرعويين الرحّل، ظلوا مشغولين لقرون بتوضيح

•لم يكن تقليد الـ"ساتى" مقتصرا على الهند. ولكنه كان مميزا لعدد من الشعوب الهندو–أوروبية. فقد أوردت التسجيلات أن سلافيى الدانوب مارسوه فى القرن السادس. وسلافيى الغرب فى القرن الثامن. والصرب فى القرن العاشر.[٧]

•رودرا: إله الصيد والعواصف والرياح والطبيعة والموت (المترجم)

(إذا كانت تلك هى الكلمة الصائبة) مخطط هيكل الآلهة الموحد الذى كان ذكوريا بحتا وبالغ التعقيد لدرجة لم تسمح لهم أن يولوا أدنى اهتمام بالنساء. الآلهة مثل الرجال لديهم زوجات–هذا هو كل شىء.

ولكن عندما بدأت الزوجات السماويات فى الحصول على مكانة أعلى. كان ذلك بشكل ليس له مثيل. معظم مناحى الحياة اليومية لآلهة الهند –مثلما هو الحال فى البلدان الأخرى– كانت تشبه بشكل ملحوظ الحياة اليومية لشعب الهند. ولكن فيما يتعلق بترسيم الحدود بين الزوج والزوجة كان هناك انعكاس غير متوقع. إذ كان الإله يتراجع، هادئا ومتعاليا. بينما تقوم الزوجة بالعمل. كانت هى الـ"ساكتى". الوجه النشط للإله السلبى. كان هو "الكيان" وهى "الفعل". كأننا أمام النظرية الصينية حول الين واليانج بعد أن قُلبت رأسا على عقب.

من الشخصيات التى كانت مبهمة فى السابق وخرجت إلى النشاط الدنيوى كانت "بارفاتى" زوجة "شيفا". "شيفا" فى حياة "تقمصيّة" سابقة كان هو الإله الفيدى "رودرا"، و"بارفاتى" كانت زوجته "ساتى" (الفاضلة) التى أحرقت نفسها فى النيران التى حرقت جثمان زوجها. والآن بعد أن أصبحت الـ"ساكتى" الخاصة به بات لها الكثير من خواصه. فمثل الإلهة الأم "جورى" كانت النظير الفعال لـ"شيفا" فى دوره كإله للخصب، ومثل "كالى" (السوداء) كانت نظير شيفا فى دوره كإله للدمار. فعليا ثمة مسحة من الجنوسة فى كل أوجه "شيفا" و"بارفاتى". جنوسة بناءة أو هدامة. ولكنها أحيانا تومض كلهب من الرفض. إحدى صور "شيفا" كانت "الزاهد العظيم". وإحدى صور "بارفاتى" كانت "التى لا ينالها أحد".

بالطبع كان لدى فن النحت الهندى القديم رموزه المتعلقة بالخصوبة، سواء كانت جنسية صريحة تشبه القضيب أو إيروتيكية لطيفة. كانت تماثيل "مايثونا" –تشكيلات لتمثالين أو أكثر فى وضع جماع– شائعة للغاية فى مجتمع ينظر للجنس كوظيفة طبيعية وإنجابية. الفارق الوحيد أن الأمر استغرق وقتا طويلا فى الهند مقارنة بالحضارات الأخرى قبل إحالة تلك التماثيل إلى عالم الآثام الأخلاقى، مع ذلك، فبين عامى ٥٠٠ و٩٠٠ ميلادية ومع زيادة التكلّف وزيادة الاتصال بالثقافات الأخرى الأكثر دنيوية والأكثر تصلبا فى الرأى. أصبحت تماثيل "مايثونا" الهندية أكثر غواية وإثارة. وأكثر وعيا بذاتها بشكل بالغ. كما بدأت تظهر عليها نزعة للتراجع إلى الزوايا المظلمة.

هـذا الموقـف انعكـس فجـأة لأسـباب بعضـها سياسـى. فـبعد أن بـات للـ"بـراهمين"- أعلـى الطبقات التقليدية- وحدهم حق ممارسة طقوس الهندوسية الأرثوذكسية. اتخـذ الـدين أبعادا طبقية. وفى الوقت المناسب كان من المحتم أن تحـدث ردة. لا أحـد يعـرف متى بدأت العبادات الجديدة فى الظهور. لكن الملمح الأساسـى للعديـد مـنها كـان العلاقـة الشخصـية والمباشرة بين الرجل والإله. دون وسـاطة الكـاهن. لقـد ركـز البراهمين على الأضحيات والطقوس. أما تلك العبادات الجديـدة فقـد تطـرقت إلى شـىء أسـهل فـى الفهـم وأكثر جاذبية بالنسبة للهندى العـادى، ألا وهو الحب. إن النظرة الهندوسية للـ"كاما" والتكامل الجنسى بين كل مـن "شـيفا" و"بارفاتى" خصوصا –رغم أن "فينشو" لم يكن بأى حال أقل فى هذا الشـأن (بل يجب الاعتراف أنه كان على العكس أكثر إمتاعا فى علاقاته الغرامية) جعـل من الطبيعى جدا التفكير فى الحب من خلال علاقته بالآلهة. وبمصطلحات بشرية بعيدة عن الغموض.

العبادات تركـزت أساسـا علـى "شـيفا"، واكتسـبت شعبيتها عبر قرون عدة حتـى وجد حكام الهند أنه من الضرورى سياسيا ليس الاعتراف بها فحسب وإنما إعلان ذلك على الملأ. لم يكن كافيا إصدار مراسيم بالتسامح مع تلك العبادات على شعب أميّ. لذا فبين القرنين التاسع والثالث عشر تقريبا تم إنشاء معابد فى أنحاء متفـرقة شملـت معظـم أرجـاء شـبه الجزيـرة الهندية امتلأت بالصور الحسية لدين تجسـيدى، وقـد كانـت بمـثابة بـيانات مـن الحجـر تحمـل رسـالة واضـحة مـثل الملصـقات الانتخابـية فـى القرن العشرين تقول بوضوح إن الحزب الحاكم يقف إلى جانب الشعب.

لقـد سـال مـداد أجيال من المؤرخين –هنودا وغربيين- بملايين الكلمات التى تدافـع عـن أعمـال الـنحت الفاضـحة فـى المعابد الهندية كونها نوعا من التصوف الدينـى. جـاعلين مـن حَـبّة تحـرّجهم الشخصـى قُـبّة نخـبوية. بـلا شـك طورت الهندوسية فى أوائل العصور الوسطى عنصرا من التصوف الجنسى. لكن من العدل أن نقـول أن الهـند حتـى لو كانت "روحانية" كما يزعم المفسرون دوما. فإن الفهم الصـوفى ظـل امتـيازا لقلـة محـدودة وحسـب. فأعمال النحت الإيروتيكية فى تلك المعابـد مـثل "كايلاسـاناث" فـى "إيلورا"، و"كونارك" و"خوجاراو"، ربما أُنجزت بتكلـيف مـن المتصـوفة بـل وصنعت بأيديهم. بيد أن الجموع الذين كانوا يتعبدون هـناك كانـوا يتمـتعون بهـا علـى مستوى مختلف تماما. بل أن أحد الآراء الحديثة يقـول إن التماثـيل الإيـروتيكية فـى معـبد "كـونارك" –والتـى وُضعت فى مستوى

العين وتمثل الطبقة العاملة الخشنة أكثر من التماثيل الدينية الأساسية- ربما كان القصد من ورائها اجتذاب الزبائن للـ"ديفاداسيس" أو بغايا المعبد. واللاتى كانت أرباحهن تمثل إسهاما أساسيا فى تمويل المعبد[٨١] (كان هناك على سبيل المثال أكثر من ٤٠٠ امرأة على جدول رواتب معبد "راجاراجيسفارا" فى "تانجورى" فى القرن الحادى عشر). وحيث أن معبد "كونارك" -وهو الآن جزيرة من الأطلال فى بحر من الرمال- كان يوما مرفأ مزدحم ومدرّ للربح. فإن تلك النظرية تبدو محتملة إلى حد كبير.

لكن ذلك التفسير لا يصلح لكل المعابد. ففى "خوجاراو" على سبيل المثال تجد إفريزا بعد إفريز من التماثيل التى تبدأ من مستوى الأرض وترتفع كثيرا عن النظرة المحدودة للبحارة العدميين (أو البراهميين المتشددين). وكل تمثال منها نُحت بجمال ورشاقة وحيوية. وربما كانت تلك هى أروع سلسلة من المنحوتات الإيروتيكية شهدها العالم. وبحلول العام الألف حين كان ثمة ٨٣ معبدا إما مبنيا أو فى مرحلة البناء (لم يبق الآن سوى أطلال عشرين منها). كان المعبد الهندى قد أصبح نسخة معمارية من "ميرو" -بيت الآلهة- وهو جبل مقدس بديع. يقع فى أعماقه حَرم مظلم يمثل القلب والرحم فى ذات الوقت. لقد كانت عادة عند البشر أن يتخيلوا آلهة السماء باعتبارهم نسخا أعظم وأكثر تألقا من الأمراء فى الأرض. محاطين بالخدم والمرافقين. بالموسيقيين والراقصات. بالمحظيات والأعوان. بل وأحيانا بصور كاريكاتورية لأشخاص ذوى هيئة أو ملبس غريب. وهؤلاء كانوا هدفا دائما لنكات العامة. لم تكن الهند استثناءً. كانت منازل الآلهة فى المعبد تحكى لكل عابر عن دين كان -سطحيا على الأقل- ودودا ومتفهما وشعبيا بالمعنى الواسع. كانت الرسالة جلية يمكن للجميع رؤيتها. حتى أولئك الذين لم يكن يسمح بدخولهم إلى حجرات المعبد الداخلية المقدسة -الطبقة الدنيا من العمال (السودرا). والمنبوذون من الطائفة. و(فى شمال الهند) النساء- حيث تظهر معظم التماثيل الإيروتيكية (أو جميعها) على الجدران الخارجية للمعابد. كما هو الحال فى معظم المعابد ("كولاس" و"شانديلا راجبوتس" و"كيسارى" و"جنجا" وهى معابد عامة عظيمة). هناك على الجدران -وليس بالداخل- كان الأمراء والمحظيات ينظرون فى عيون بعضهم البعض فى غرام. هناك كان أفراد الحاشية والراقصات يجربون بمرح بعضا من أشهر أوضاع الكاماسوترا وهم مجمدون فى قطعة من الحجر. وهناك كانت الزهاد المختالون والمنحرفون عن المجتمع

معروضين بخبث لتسلية مشاهدى "الدرجة الثالثة" فى أوضاع جنسية متنافرة ومضحكة.

هكذا كان عالم الآلهة الخارجى. نشيطا وصاخبا ومفعما بالحيوية. وعلى النقيض التام فى عمق المعبد داخل الـ"جاربهاجريها" أو "بيت الرحم" -حيث يولد المتعبد من جديد- كانت الآلهة نفسها تجلس ساكنة. مجسدة بشكل تمثيلى أحيانا أو كرموز فى أحيان أخرى. كانت الآلهة العظيمة تتبدى فى أشكال عدة. لكن أحد تلك الأشكال كان سمة مميزة لـ"شيفا". رمزا أينما ظهر أحال دون لبس إلى إله الخصب والتناسل. ذاك الرمز هو القضيب أو العضو الذكرى. مصحوبا أحيانا برفيقته "بارفاتى" فى صورة فرج المرأة. بعدها بكثير سيشعر البريطانيون الذين حكموا الهند لما يقرب من قرنين بتقزز فى أعماق روحهم الفيكتورية. نعم ربما كانوا يفضلون عدم التدخل فى دين رعاياهم الجدد. ولكن لا يسعهم سوى الشعور بالاحتقار تجاه شعب يعبد قضيبا كما لو كان إلها. وعندما اكتشفوا أن العكس هو الصحيح. لم يشكل ذلك لديهم أدنى فرق.

لم تكن استجابة البريطانيين للهندوسية أقل العناصر التى ساهمت فى تلك الصورة التى عانت منها الثقافة الهندية بين عامى ١٧٥٧ و١٩٤٧. وبشكل ما مازالت التأثيرات مستمرة حتى اليوم بالنسبة لعدد قليل من البريطانيين "غرقوا فى نهر الجانج" (انبهروا بالهند وحملوا على عاتقهم التبشير بها فى الغرب) والذين وجدوا أنفسهم مجبرين على تغليف التماثيل الإيروتيكية داخل شراشف "الروحانية" النظيفة. بل وتغليف أشياء أخرى. وأحد الموضوعات التى لم تنجح بعد فى فك تلك الأغلفة هو عقيدة "التانترا" الجنسية الصوفية.

الجوهرة فى اللوتس

اللغات السرية قديمة قدم الإنسان. والغرض منها هو قصر المعلومات على جماعة واحدة. وإجمالا فإن كلمة السر التى كانت تقال للحارس فى العصور القديمة. واستخدام الكيميائى لتعبيرات مثل "الذئب الرمادى" بمعنى الأنتيمون أو "اخت التنين" بمعنى الزئبق، ربما كانت أسهل فى الاختراق من لغة المتخصصين اليومية هذه الأيام. والتى يمكن أن تحوى تركيبا علميا كاملا فى عبارة واحدة. أو تغرق مفهوما بسيطا فى وابل من الكلمات متعددة المقاطع. عندما يجتمع القديم مع الجديد تكون النتيجة مستوى عال ومدهش من الغموض.

هذا ما حدث مع الـ"تانترا". والتى لم يكن لها طرائقها اللغوية الخاصة فحسب. وإنما—وفقا لأحد أتباعها المحدثين- تصر على أن تُكتب تعاليمها الأكثر تقدما فى الكتب الموضوعة بغرض النشر العام "بطريقة لا يمكن معها أن تستقى منها أى فائدة عملية.... إذ تُحذف أساسيات معينة عمدا وأحيانا تُخلط الفقرات فلا يمكن فك ارتباكها دون عون من المؤهلين. وأكثر من ذلك فإن اللغة الصوفية التى طُرِّزت بها لا تفصح عن معانيها الكاملة إلا لؤلئك الذين تلقوا تعليما "يُهمس به فى الأذن". والواضح أن الغرض من ذلك هو خداع "عديمى الأخلاق" الذين اكتشفوا أن التعليمات "يمكن أن تُحرّف لخدمة أغراض دنيوية" فتمنح "قوة نفسية" وتعاويذ سحرية فعالة يمكن أن "تستخدم فى الشر".[٩]

بالنتيجة. تمثل نصوص التانترا حقلا خصبا للتأويل. فعندما يتطلب طقس ما فض بكارة عذراء شابة. هل يعنى حقا عذراء من لحم ودم. أم أن ذلك (كما تدعى المدرسة الروحانية) مرادف للقوة النفسية التى تكمن فى أسفل العمود الفقرى للإنسان ويجب أن تُثار كى تصعد إلى قمة رأسه؟ وعندما يحتوى مشروب سحرى بين مكوناته على دم يؤخذ من جثة. أو مريض بالجذام. أو طفل سفاح. أو دورة المرأة الشهرية. فهل علينا أن نفهم ذلك حرفيا أم مجازيا؟ الإجابة —فى الأغلب الأعم- لا تعتمد على قوة عقل الدارس بقدر اعتمادها على قوة معدته. ربما راودته الشكوك فى بعض الأوقات. ولكن منذ أواخر القرن العشرين يتوقع دارس التانترا أن تربكه اللغة التى تمثل دائما طريقا مفتوحا للهروب باستخدام كلمات فلسفية طنانة. وعبارات دينية مقعرة. لقد التبست المعانى فى تعقيدات الكلمات. وبات للقارئ أن يفهم التانترا على أنها عبادة مقززة. أو رؤيا روحية. أو عقيدة غير مفهومة. كل حسب نظرته.

ليست التانترا بسيطة بالتأكيد. ولكن لا يجب أن نتكلم عنها كذلك بمصطلحات مثل "النشوء الكونى" أو "رمزية التناقض" أو "الاتحاد بين الظاهرى والجوهرى". لا أحد يعلم على وجه اليقين كيف كانت فى بداية ظهورها فى القرون الميلادية الأولى. والأعمال الحديثة لا تهتم بالأساسات بقدر اهتمامها بالقلعة المعقدة والغريبة التى بناها المفكرون المتأخرون على تلك الأساسات. مع ذلك فلا بد وأن تلك الديانة التى جذبت كثيرا من الأتباع كانت تمتلك نوعا من الجاذبية الواضحة نسبيا. كما أن علاقتها بالعبادات الدينية الأخرى ربما تشرح ذلك.

بداية. فالفلسفة الهندية إجمالا فلسفة رفض. ففى الهندوسية نجد الفرد الذى يعيش بشكل صحيح فى حيواته المختلفة يكافأ بتحرره أخيرا من العالم

وآلامه. وهو لا يتحرر متجها إلى جنة مغرية وإنما إلى الغياب التام. نعيم العدم. والهدف من البوذية ثانية أعظم ديانات الهند هو نفسه. فالنيرفانا ليست الجنة. وإنما الانطفاء.

وفى الواقع فإن الفرق بين العقائد والطوائف الأساسية فى الهند يكمن فى الرحلة وليس فى المصير. كان هدف كل طائفة جديدة هو الوصول إلى ذلك المصير بأسرع وقت. فطائفة الـ"هينايانا" البوذية (وتعنى العربة الأصغر) تتطلب خواص الاعتماد على الذات وحدها. والكفاح الشخصى. وهى مثل طائرة بدائية ذات سطحين. والـ"ماهايانا" (أو العربة الأكبر) فهى أقل مشقة وأكثر أمانا. مثل طائرة بمروحة دفع يقودها طاقم من الـ"بوذيساتفا" المتعاونين. أما الأسرع على الإطلاق فهى "فاجرايانا" (عربة الصواعق) الأسرع من الصوت. والتى تمتلك قدرة سحرية على كسر الحاجز الروحى الذى يفصل بين المؤمن والنيرفانا. والهندوسية —مثل البوذية– لها أيضا نظمها. ومن بينها الـ"نيايا" التى تعلى من شأن التفكير الحر والمنطق باعتباره الطريق الأكثر مباشرة. والـ"يوجا" بتعاليمها النفسية والـ"فيدانتا" التى تقول إن التأمل يمكن أن يدمج روح الفرد فى فراغ "روح العالم".

تلك النظم جميعها ترفض العالم. بوجه خاص ترفض كافة ملذات العالم لمن يسعون بجد إلى التحرر من دائرة إعادة الميلاد. أما إذا عجز الفرد عن رفض كافة الملذات فعليه أن يصل لحل وسط (كما تسمح له "الأهداف الأربعة") بأن يعيش بأفضل ما يمكنه، مؤمنا بقدره. وعلى أمل أن يتحرر يوما ما.

أما ما قدمته التانترا فقد كان شيئا مختلفا. كان نظام عمل وليس نظام دراسة. يعد بالنعيم والتحرر فى حياة واحدة لأولئك الذين يستغرقون فى اللذة والتجلى والنشوة. وليس لمن يتجنبونها. وكان المنطق هو أنه إذا كان العالم آية من آيات القداسة فإن كل ما به مقدس، جدير بالعبادة وليس بالاعتزال. كانت عقيدة قائمة على اللذة. ولا بد وأن جاذبيتها كانت هائلة.

بعض المراجع تعتقد أن التانترا —مثل كثير من العقائد الثورية الأخرى فى تاريخ العالم– كانت تعبيرا دينيا عن تمرد سياسى. تصويتا احتجاجيا ضد الواقع الاجتماعى، ولا شك أن كثيرا من ممارساتها كانت تتعمد كسر النظام الطبقى/الطائفى. فيما هزأ بعضها من الأعراف بصورة أقل عن طريق استخدام المخدرات والسحر واللقاءات الجنسية كجزء من الطقوس الدينية. وعلى المستوى الأكثر سطحية كانت التانترا تتمتع بذلك النوع من التساهل والاستهزاء الذى سيجذب الكثير من الأتباع إلى "المجتمع البديل" فى ستينيات القرن العشرين.

كان لدى كلا من الهندوسية والبوذية مدارسهما "التانترية". وكانت الفروقات عميقة بينها. مع ذلك فجميع أتباع الـ"تانترا" يسعون للوصول إلى العدم الذى يُنظر إليه –على النمط الهندى السائد– باعتباره الحقيقة المطلقة. حيث العالم الحسى الذى يعيشون فيه لا يعدو مجرد وهم. الحقيقة المقدسة هى الكون اللامادى بأكمله. وعالم الأحياء مجرد انعكاس شاحب له. والمطلوب هو تعديل البؤرة حتى يمكن للسراب الشفاف –وهو الروح البشرية– أن تتطابق مع –وتندمج فى المادة الخالدة الحقيقية لـ"روح العالم".

بالطبع كان تعديل البؤرة هو المشكلة، حيث يتطلب إعادة توجيه تيارات الطاقة الإبداعية فى عقل وجسد الإنسان الراغب فى التحرر كى تميل باتجاه نفس التيارات فى "روح العالم". كان النطاق شاسعا، فكل ما يتضمن طاقة إبداعية بشرية (فى الواقع أى نشاط إيجابى) يمكن أن ينظر إليه فى ضوء "التانترا". لكن لحسن الحظ لم يكن من الضرورى معالجة تيارات الطاقة كل على حدة. فالسحر والجنس –إذا أحسن استخدامهما– يمكن أن ييسرا من المهمة بشكل ملحوظ.

كانت الـ"مانترا" نوعا من التركيبات الصوتية السحرية، مقطعا أو عددا من المقاطع المتتابعة التى –إذا نطقت بشكل صحيح– تعمل كعدسة لتركيز وتوجيه الطاقة. أما الـ"يانترا" فكانت مقابلها البصرى. ويؤمن أتباع التانترا أن تلك التركيبات يمكن أن تستخدم لإجبار الآلهة أن يمنحوا المتعبد قوة. ومن ثم تزيد من سرعته فى طريقه نحو العدم الذى يتوق إليه. ولكن ليست كل أصوات المانترا تهدف إلى إجبار الآلهة. فأعظمها وأكثرها شيوعا –وكان لها وظيفة تشبه التضرع بإحناء الركبة فى بداية الصلاة داخل الكنيسة– هى "أوم مانى بادمى هوم". والتى تنشر ذبذباتها اللطيفة فى الفضاء كما تفعل فى الحلق. كان لها (ولا يزال) العديد من مستويات التفسير، ولكنها عادة تترجم بالمعنى الجنسى الصريح وهو "الجوهرة فى اللوتس". طريقة أخرى لقول: "القضيب فى الفرج".

ولم تتوقف التشبيهات الجنسية عند الـ"مانترا". ففى الهند (وإن كان ذلك لا يحدث فى التبت) لا يسهل تمييز التانترا البوذية عن الـ"فاجريانا" البوذية (عربة الصواعق). فذلك التشبيه الكهربى يمتد –وإن كان دون عمد– فى الدرب الجنسى الموصل نحو العدم. إذ تُعامل الربات باعتبارهن موصلات للبرق الذى يحول تيارات الطاقة البشرية مباشرة إلى "روح العالم". وبالتعريف فإن "روح العالم" لا يعرَف. وإن كان أتباع التانترا يميلون إلى النظر إليه باعتباره شكل من أشكال "شيفا" فهو صاحب الجلال والعظمة، الجبار المتعالى، الساكن بطبيعته. وكما فى

حالة "شيفا" تكمن طاقته فى "ساكتى" الخاصة به. نظيرته وقرينته الأنثوية. زوجته التى ارتبط معها فى عناق أبدى لا ينفك برغم كونها نشيطة فى الوقت نفسه فى العالم- نشيطة جنسيا بالطبع. كانت تلك هى الصورة الوحيدة التى تجسد الطاقة الإبداعية الأنثوية. لذا فإن المؤمن بالتانترا حين يمارس الجنس مع "الإلهة" لا يقلد العناق المقدس فحسب، وإنما يصبح جزءا منه. عن طريق التوحد مع "ساكتى"، يمكنه أن يتوحد مع "روح العالم" نفسه.

بالنسبة للمتعبد العادى فإن طقوس التانترا الهندوسية الأساسية كانت تتطلب وجود عدة أزواج مع معلمهم الروحى (الجورو) ودوره هو ضمان ألا ينحدر الجنس الطقسى إلى انغماس فى الشهوة. وأن يتم الطقس بصورة مناسبة. مع ذلك فربما كان المؤمن غير المتدين ينظر للاحتفال الطقسى باعتباره سهرة ممتعة: مقبلات قوية. ثم عشاء طيب. وأخيرا لقاء فى الفراش. فى البداية كانت هناك المخدرات التى يتم تناولها فى شكلها الصلب أو كمشروب أو عن طريق التدخين. ثم تأتى "المتع الخمسة" والتى كانت تهدف -بحسب مراجع حديثة- إلى توجيه صفعة للمتدينين المحافظين. وإن كان ذلك التفسير ليس واضحا. فأى من تلك المتع لم يكن محرما فى المجتمع العادى فى أوائل ظهور عبادات التانترا. بل على العكس. كانت جميعا من الرفاهيات البسيطة. فالمتع الثلاثة الأولى - السمك واللحم (الخنزير تحديدا فى بعض الأحيان) والخمر- كانت كلها منظرا مألوفا على موائد الأغنياء من القرن الثامن وحتى القرن الحادى عشر تقريبا. والمتعة الرابعة وهى الحبوب -نوعها غير محدد- كانت جزءا من الوجبة الغذائية العادية.[١٠] أما المتعة الخامسة -اللقاء الجنسى- فربما كانت أيضا من وسائل الترف. إذ أن الإجماع العام (بعد كثير من الجدل) كان أن التوحد الذى يصل إليه عن زوجان من العشاق أحيانا حين ينسجما انسجاما كاملا- وهو لمحة خاطفة لما يحدث إذا تحقق التوحد بين الفرد و"روح العالم"- لا يمكن أن ينتج عن اجتماع رجل وزوجته. لذا كان من الشائع أن يتبادل المشاركون فى الطقس شركاءهم. أو أن يتم اجتلاب الـ"ديفاداسيس" (غانيات المعبد اللاتى يتمتعن بقداسة رمزية خاصة) لهذا الغرض. علينا أن نتذكر أن جاذبية التانترا الأساسية كانت فى الانغماس فى اللذة وليس اعتزالها كوسيلة للتحرر. وليس هناك سبب منطقى للاعتقاد أن تلك المتع الخمسة كانت تُفسر بشكل مختلف عما بدت عليه. حتى وإن كان المنظّرون فيما بعد حولوها إلى رموز. وسيتذكر المسيحيون أن الأمر استغرق نحو ١٢٠٠ سنة قبل أن يصبح الخبز والخمر فى "العشاء الأخير" رمزا لجسد المخلص ودمه.

يمكن أن نفترض أن الأغلبية الساحقة من المؤمنين بالتانترا لم يتجاوزوا تلك المرحلة الأساسية من العبادة، والتى شملت الملذات التى وعدت بها العقيدة نفسها. كما شملت نوعا من تحدى المجتمع (حيث تخترق الحواجز الطائفية والطبقية عن عمد أثناء اختيار الشريك الجنسى). ونوعا من الإثارة الروحية. شعور بالقوة ينتج عن نطق التعاويذ السحرية ورسم المخططات السحرية.

لكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة للبعض. أولئك الذين التزموا بشكل كامل بتحقيق ما وعدت به النصوص الدينية: النعيم فى حياة واحدة. لم يكن هناك كتاب قواعد. بل كان يُرسم لكل مستجِد طريقه الخاص. ولذلك تبدو المعلومات متفرقة ومتناقضة عادة. مع ذلك يبدو أن المستجدين الواعدين كانوا يمرون باحتفال خاص مع شريك يكون قد تحول إلى "وعاء للطاقة المقدسة" عن طريق مضاجعة مستجِد ذى مستوى روحى عال. وهؤلاء الشركاء —عادة من النساء— كانوا يعرفون بين البوذيين باسم "داكينى". وربما كان حق إدخال المستجدين فى الأصل مقصورا على أعضاء طائفة محددة.

بمجرد دخوله. يتبع المستجد (السادهاكا) برنامجا طقسيا مكثفا يتضمن قضاء أوقات طويلة من التأمل الصوفى أثناء الجماع. هذا التأمل يشمل طقوسا دينية. وتلاوة "مانترا". ورؤى عقلية. وأوضاع يوجا. وما ورد له وصف جذاب فى أحد المراجع بأنه "التحكم الدقيق فى الطاقات الموحدة للذكر والأنثى".[١١] ولا يُشترط أن يكون شريك الـ"سادهاكا" من لحم ودم إلا فى البدايات. ففى مراحل أكثر تقدما يكفى "الإدراك الداخلى". بعد ذلك، وبعد أن يشعر المستجدون بالإثارة الجنسية ويدركوا وجود الطاقة المقدسة. يدخلون فى تعبد طقسى لقضبانهم المنتصبة —كان ذلك قبل وقت طويل من وله الذكور وتفاخرهم بفحولتهم فى العصر الحديث — فيما يتمكن آخرون —أكثر تقدما— من التوحد مع كل من الإله و"ساكتى" ومن ثم يدخلون فى جماع سرمدى كل مع ذاته، محققين منتهى السعادة.

ورغم أن ذلك يبدو غير مقبول من الناحية التشريحية. فقد كان معقولا جدا على مستوى ثانوى من نظرية التانترا يتكلم عن "الجسد المرهف". تلك الفكرة التى كانت شائعة لدى مجتمعات ما قبل عصر العلم. والتى تقول إن داخل كل جسد مادى تكمن نسخة أثيرية تتكون من الأعصاب والمشاعر وقنوات الطاقة والفكر ومادة الروح— وكل ما عجزت المعرفة المعاصرة عن تفسيره، وإن كان الهنود والصينيون وحدهم رسموا خرائط توضيحية معقدة لذلك الجسد الأثيرى. وكان أتباع التانترا —مثلهم مثل الطاويين— يعتقدون أن ثمة عنصر ذكورى فى كل امرأة.

وعنصر أنثوى فى كل رجل. وقد تصوروا أن الجسد المرهف يحتوى على قناتى أعصاب. الأولى (تسمى لالانا فى الأدبيات البوذية) أنثوية تجرى على يسار العمود الفقرى. والثانية (رازانا) ذكورية تجرى على اليمين. كذلك كان هناك عدد من مراكز الأعصاب داخل الجسد- عرف الهندوس ستة أساسية منها. وعرف البوذيون أربعة- وقد تخيلوها كميداليات على شكل زهور اللوتس مصفوفة عبر خط رأسى يمتد من أسفل العمود الفقرى وحتى قمة الرأس. وكانت تسمى "كاكرا". وعندما يتم الجماع الطقسى وخاصة فى واحد من الأوضاع المعقدة التى كان يُعتقد أنها تثير الجهاز العصبى، كانت طاقة الأنثى تتفاعل تفاعلا معقدا مع مركز الأعصاب حول سرة الرجل. وتساعد على تحويل منيه المنشط —والذى لم يتحرر بعد- إلى رحيق سحرى (بيندو) يقتحم قناتى الـ"لالانا" والـ"رازانا". ويفتح قناة جديدة ينطلق عبرها إلى قمة الرأس حيث الـ"كاركا". "زهرة اللوتس ذات البتلات الألف" والتى تفتح على الفراغ، نعيم العدم الأبدى. ومن ثم يستطيع التانترا الخبير فعليا أن يتوحد مع "روح العالم" مزدوج الجنس.

ثمة شبه مثير على وجه الخصوص هنا مع الاعتقاد الصينى أن تأخير القذف أو منع القذف يمكّن رحيق المنى أو "اليانج" أن يصعد ويغذى المخ. إذ رغم غياب المعلومات الواضحة —كالعادة- عن نصوص التانترا. فيبدو أن التانترا البوذيين — على الأقل- كانوا يمارسون التحكم فى التنفس بطرق لا تختلف كثيرا عن تلك التى أوصى بها المعلم "تونج-سوان". فيما مارست إحدى طوائف التانترا الهندوسية فى العصور الحديثة وسيلة الضغط على المثانة الوارد ذكرها فى "شئون مهمة لحجرة اليشم" (انظر صفحة١٦٤). مع ذلك فبقدر علمنا لم يعتبر التانترا الهندوس ذلك جزئا أساسيا من الطقس، على عكس البوذيين. والسبب فى ذلك (إذا كان ثمة سبب) ربما يكمن فى أصول تلك الممارسة. إذ يزعم الدكتور روبرت فان جوليك. وهو واحد من العلماء المحدثين القلائل الذين تعمقوا فى الموضوع. أن التانترا الهندية التقطت فكرة تأخير ومنع القذف من الطاوية الصينية فى القرن الخامس أو السادس الميلادى. والاحتمال الأرجح أن من التقط الفكرة هم المبشرون البوذيون (وليس الهندوس) الذين رحلوا إلى الصين. وفيما بعد -عندما تطورت التانترا- أرسلت بدورها إرساليات إلى الصين، وبدأت الصين فى استيعاب بعض نظريات التانترا الهندوسية. بعدها وفى بداية القرن الرابع عشر -عندما كانت الصين تحت حكم المغول- تم تصدير شكل جديد من أشكال التانترا هناك، تلك

المرة شكلا متطرفا آتيا من التبت اعتنقه المغول أنفسهم. وفيه لم يعد بإمكان الصينيين تتبع أى من عناصر الطاوية الأصلية.

مع ذلك -وكما فى حالة كتيبات الجنس- لن يتمكن أحد من الإجابة على الأسئلة الرئيسية حول التأثيرات المتبادلة: من كان صاحب الفكرة؟ من فكر فيها لأول مرة؟ من -إذا كان أحد قد فعلها- نقل الرسالة من ثقافة إلى ثقافة، من حضارة إلى حضارة؟ إن تشابه الأفكار لا يعنى بالضرورة أن أحدا سرقها من الآخر.

إن التانترا إذا جُردت من صورها الدينية، وتعاويذها، وآليات التنويم المغناطيسى بها، ومن صلواتها (التى اختلفت كثيرا من البوذية إلى الهندوسية) تظل مثل الكتاب المقدس إذا جرد من أشعاره ورؤاه. إن قلة من الأديان تبدو جذابة وهى عارية. مع ذلك، وكما يلاحظ أحد العلماء الأوروبيين المحدثين، فإن التانترا بها الكثير بخلاف الجنس والسحر، إذ يقول إن النقاد الهندوس والبوذيين "طالما ألمحوا إلى أن التانترا تستخدم الدين كستار للرغبة الجنسية والغواية. ويرد أتباع التانترا أن المنهج شديد الصعوبة والتعقيد والملىء بالتفاصيل الذى يسلكه أتباع التانترا ليس ضروريا لإشباع الرغبة الجنسية، والتى يمكن أن تتحقق بطريقة أسهل بكثير دون الحاجة لأى من تلك التعقيدات القاسية". وهو أمر لا شك فى صحته.[١٢]

٩- الإسلام

من عجائب القدر التى لا ينتبه إليها الكثيرون أن تتراكم حكمة أكثر من ثلاثة آلاف عام من الحضارات المتباينة -فى سومر ومصر. اليونان وروما. سوريا وفارس. الصين والهند- لتصب جميعا خلال قرون قليلة مثمرة وتنصهر فى بوتقة العاصمة الجديدة المتألقة. بلاد ألف ليلة وليلة. مركز الخلافة الإسلامية. إذ شُيدت بغداد عام ٧٦٣ ميلادية. تقريبا فى الموقع الذى كانت تحتله "كيش" التى ينظر إليها باعتبارها أول عاصمة لأول حضارة فى العالم. حضارة سومر. وكما اكتشف كتبة سومر كيفية نقل المعلومات المستقاة بشق الأنفس من عالمهم الصغير والمحدود عن طريق نقشها على ألواح الطين الرطبة، بالمثل اكتشف عرب القرن الثامن كيفية تجميع كل ما تعلمته أوروبا وآسيا عبر الألفيات المتعاقبة ثم نشره. عن طريق كتابة تلك المعلومات ليس على ألواح الصلصال الهشة أو أوراق البردى المكلفة أو الرقاقات الجلدية أو أوراق النخيل الرقيقة. وإنما على ورق قوى الاحتمال صنعوه من ألياف الكتان. لقد اجتمع العقل العربى التواق للعلم مع تقنية صينية عمرها قرون ليحدثا ثورة معرفية تغلغلت فيما بعد فى نسيج الحياة الغربية بأكملها. ثورة لم يتوقعها أحد وقتها. واعترف بها القليلون فيما بعد.

على مدار السنوات الخمسمائة الأخيرة التى سبقت ميلاد المسيح. تعلم البدو سكان شبه الجزيرة القاحلة المحصورة بين البحر الأحمر والخليج الفارسى أن يكسبوا لقمة العيش من الوساطة فى التجارة الرائجة بين الشرق والغرب. لكن تلك المصالح المشتركة لم تؤد إلى وحدتهم حتى بدأ النبى محمد -بعد الهجرة فى عام ٦٢٢ ميلادية- دعوته التى كانت خليطا من المعتقدات العربية واليهودية والمسيحية والتى عرفت فيما بعد باسم "الإسلام". ومعناه الاستسلام (للدين).

وسرعان ما اكتشف غير المسلمين فى العالم القروسطى أن عليهم هم الآخرين الاستسلام -لأصحاب الدين إن لم يكن للدين نفسه. لذا. فخلال القرن الذى

تلك هى وجهة نظر المؤلفة وقد نقلناها كما هى (المترجم)

أعقب وفاة النبى كانت كل من سوريا وبلاد الرافدين، وكافة المستعمرات الفارسية فى الشرق، وساحل البحر المتوسط الأفريقى بأكمله، وفعليا كافة الأراضى الأسبانية، قد استسلمت لأتباع محمد.

قال النبى "اطلبوا العلم ولو فى الصين". لكن خلفاءه لم يكن عليهم بذل مثل هذا الجهد. إذ فعلت السيادة أفاعيلها. فظهر مجال جذب مغناطيسى سحب العلماء والفلاسفة والحرفيين والمهندسين والفنانين. فى فارس لم يرث العرب التقاليد الفارسية الرفيعة وحدها، وإنما —عن طريق العلماء الذين اتهموا بالهرطقة ففروا من بيزنطة إلى جنديشابور (التى كانت عاصمة العلم فى آسيا الوسطى وقتها)- ورثوا أيضا الأفكار العلمية الإغريقية بعد أن عركها وأنضجها الاتصال بالأنماط الفكرية السورية والفارسية وحتى الهندوسية. أما فى الشرق فسرعان ما اتصل الفاتحون المسلمون بالصين التى كانت منفتحة على العالم الخارجى فى عهد أسرة تانج•، وفى الجنوب اتصلوا بالثقافتين الهندوسية والبوذية فى الهند.

ومن خلال الحضارة الإسلامية، استطاع الغرب واحدة واحدة ودون أن يشعر امتصاص أفكار وأنماط نشأت ليس فى العالم الكلاسيكى وحده. ولكن فى أبعد أصقاع آسيا. فى الواقع يصعب أن نبالغ فى أهمية المساهمة الإسلامية فى العلم والتكنولوجيا والفنون فى الغرب. فبين القرنين الثامن والثانى عشر كان الإسلام يقبض بيديه على كافة المعارف التى نالها العالم المعروف. وقد مرر تلك المعارف من جنديشابور إلى بغداد إلى القاهرة إلى صقلية وأسبانيا: الطب الإغريقى الذى ضاع فى غياهب النسيان أثناء العصور الوسطى فى الغرب. الأرقام الهندية (والتى عرفت فيما بعد بالأرقام العربية). النظام العشرى (الأرقام التسعة والصفر) الذى حل محل النظام الرومانى العتيق فأحدث ثورة فى علم الرياضيات. التجارب العلمية، والحياة اليومية: صناعة الورق الصينية التى غيرت وجه العلم. وقوس البندق• الذى كان له الأثر نفسه فى الحرب. وقائمة طويلة وفاخرة من أسباب الحياة الكريمة: الحرائر المزركشة. الزجاج الملون. المعادن المرصعة. المخادع ذات الأستار. السجاد. الأصباغ الجديدة. الأقواس ذات النحت البارز التى ميزت فن

• أسرة تانج: حكمت من سنة ٦١٨ إلى ٩٠٧ ميلادية (المترجم)

• قوس البندق: نوع متطور من أقواس السهام المزودة بزناد (المترجم)

العمارة. والحروف السوداء القوطية فى الكتابة. المرايا الزجاجية. الحمامات العامة. المستشفيات الحديثة؛ العود، الطبلة النقّارة. حكايات التلاهى الغريبة التى سوف تلهم بعد ذلك بوكاشيو وتشوسر. فون اشينباخ ولا فونتان[1].

لكن لأن الرتب المتراصة فى الكنيسة والدولة كانت تعارض "التلويث الفكرى" بكل قوة. فقد ظل معظم ما قَبله الغرب من الإسلام يقع فى دنيا الأفكار العملية والاختراعات وليس فى دنيا العقل. يقع فى الاكتشافات النافعة التى بدت وأنها مستقلة عن النظم الفكرية التى خرجت منها. فالأرقام "العربية" ليس لها علاقة بالدين. والشعارات العسكرية التركية —مثل النسر ذى الرأسين الذى اتخذه أباطرة الرومان المقدسون شعارا لهم دون وجه حق• – لم تكن سوى طريقة للتمييز بين نوعين من الدروع التى تتقاتل فى غمار المعركة.

بيد أن بعض أساليب وأنماط الفكر تسللت إلى الغرب، دون أن يلاحظها أحد أو تشغل بال أحد. فساعدت على تغيير عقل العالم المسيحى كما استطاعت الطموحات المادية أن تغير وجهه. كانت النتائج مثيرة. فمن بواعث الدهشة أن أغانى الحب العربية —وهى نتاج مجتمع ظل حتى الآن آخر معاقل الخضوع النسوى– سوف توفر الحافز الذى يغير صورة الغرب عن المرأة. ولكن حتى قبل ذلك. تعلم الذكر المسيحى الأحادى فى علاقاته الجنسية مباهج التعددية والحريم. وطور نظامه الخاص بعد أن سلك دروبا أقل تقييدا. إن العصور الوسطى لم تقدم للتاريخ الغربى "السيدة" Lady كما فى الصورة المثالية للفروسية فحسب. بل عرّفت الغرب كذلك بمباهج رفقة المحظيات خارج العلاقات الزوجية. وقبل ذلك أيضا فإن أهمية الخصيان فى الشرق الأدنى –وبصورة أكثر عملية فى الكنيسة البيزنطية– ساعدت على إقناع كنيسة روما أن العزوبية "الطوعية" التى تطلبها من كهنتها لهى أرحم وأكثر تحضرا. وقد كانت كذلك بالفعل.

تطور الحريم

كانت الحياة فى بغداد شديدة الاختلاف عن الحياة فى الصحراء، حتى لو لم تكن تلك الصحراء هى ذلك المكان البهيج ذى السماء المرصعة بالنجوم الذى

• النسر ذو الرأسين: ينظر أحدهما للغرب والآخر للشرق كدلالة على فرض السيادة على العالم أجمع. كما يمثل السلطتين الدينية والدنيوية (المترجم)

تخيله الشباب الأثرياء• الجدد وشعروا بالحنين إليه. هؤلاء الشباب ربما كانوا أبرياء ورومانسيين فى نظرتهم لأرض آبائهم مثل كل من يعيشون فى المنفى. مع ذلك فقد تعاملوا مع مشكلات الحب والجنس بطريقة عملية. لقد عرف المجتمع الراقى نوعين من النساء فحسب: الجارية —وكانت فى العادة مغنية أجنبية تتمتع بالفطنة والجمال والموهبة والمزاج المتقلب. والسيدة المحترمة المسجونة فى عالم من المحرمات. الربة التى لا يمكن الوصول إليها. ولا سبيل إلا لأن تعشقها من بعيد.

كان الأمر كذلك دائما. قبل أيام النبى. ورغم ما وُصفت به المرأة من أوجه نقص كثيرة ومتعددة من الناحية القانونية (بحسب القبيلة التى تنتمى إليها). كانت تتمتع بقدر من الحرية الشخصية. لم يكن الفصل بين الجنسين ممكنا تماما. كما لم يكن ضرورة عملية فى الصحراء العربية. كذلك لم تُجبر النساء —فيما يبدو— على إخفاء وجوههن وراء حجاب. بيد أن كل ذلك تغير مع الفتوحات الإسلامية للعالم الأرحب. فرغم أن النبى نفسه حاول تحسين قَدَر النساء. وقفت متطلبات الحياة فى المدينة والعادات الراسخة للشرق الأدنى المتحضر عقبة فى سبيل ذلك. فالوافدون العرب لم يستغلوا رعاياهم الجدد فحسب. وإنما تطلعوا إلى خارج الحدود. وأصبحت بيزنطة —موضع حقدهم وإعجابهم فى آن— القدوة الاجتماعية الأولى لهم. ما كان له نتائج لا تحمد عقباها.

كان ميراث بيزنطه نفسه شديد الاختلاط. فعبر القرون أصبحت تركيبتها السكانية مزيجا من الأرمن والسوريين والإغريق واليهود والمقدونيين والإيطاليين. كانت قوانينها إغريقية رومانية. وديانتها مسيحية. وأنماطها الاجتماعية بحرمتوسطية. وبتلك الخلفية كان من المحتوم ألا تنظر للمرأة بكثير من الاحترام. كانت واجباتهن الأساسية —باستثناء وحيد هو سيدات العائلة الامبراطورية— أن يبقين بعيدا عن الأنظار ويلدن الأطفال. الفتيات غير المتزوجات كن يُحفظن فى عزلة تامة فلا يقع نظر أحد عليهن حتى الخدم. وكان ثمة بند فى حفل العرس يسمح للثنائى السعيد بالاختلاء لدقائق حتى يتمكن العريس من إزاحة حجاب العروس ورؤية وجهها للمرة الأولى. وقد ذكر أحد الدارسين —بكثير من التبجيل والتوقير— أن الزواج البيزنطى لم يكن دائما يتم بـ"الدخلة". إذ لم يكن من المستغرب على زوج جديد أن يخبر زوجته —بمجرد اختلائه بها— أنه تقدم للزواج

• الشباب الأثرياء: Jeunnes doreé بالفرنسية فى الأصل (المترجم)

منها من أجل روحها. كي يعيشا معا كأخ وأخته. أو حتى أنه قرر الاعتكاف فى دير وينصحها أن تفعل مثله.[٢]

لم تكن بيزنطة هى المسؤول الوحيد عن تبنى النساء العربيات للحجاب. فالنبى أمر نساءه أن يحتجبن كعلامة على الاحترام. وكان ذلك كافيا ليقنع نساء الطبقة العليا اللائى دخلن الإسلام أن يغطين وجوههن. وهو نوع من الحماية اكتسبت منطقيتها من حياة المدينة التى يسودها الصخب والعربدة. مع ذلك فإن "التعددية" التى مارسها المسلمون تفاعلت مع "العزل" الذى مارسه البيزنطيون بطريقة تَبيّن أنها مدمرة للنساء.

فيما يبدو فإن التعددية لم تكن منتشرة على نطاق واسع بين القبائل العربية فى عصور ما قبل الإسلام. كانت تلك الممارسة تنتشر بالأساس حين تتكاثر الحروب. وتتسع الفجوة بين الطبقات، ويزداد تدفق العبيد. وتتكاثر الثروات الوافدة. بيد أن محمدا اختار أن يشجع التعددية بين أتباعه، ويُعتقد أنه كان يرمى من وراء ذلك إلى زيادة عدد المؤمنين. لكن ثمة سبب آخر هو توفير الأمن الاجتماعى للمطلقات والأيتام الذين وجدوا أنفسهم بلا عائل بعد مقتل ذويهم فى موقعة أحد. لقد عُرف القرآن بأنه كتاب صعب التفسير. والآيات التى تتكلم عن تعدد الزوجات عرضة لمختلف التأويلات. لكن أتباعه فهموا أنهم أحرار فى أن يتزوجوا حتى أربع نساء، طالما وجدوا فى أنفسهم القدرة على العدل بينهن. أما من لم يفعل فكان يُنصح بالالتزام بزوجة واحدة فقط مع عدد غير محدود من السرايا [٣]. هكذا وجد معظم المسلمين العاديين من الأوفر عليهم التكيف على امرأة واحدة يغيرونها بانتظام، إذ ظل الطلاق عملية سهلة كما كان دائما.

أحد أهم المفكرين الإسلاميين -الإمام الغزالى (١٠٥٨-١١١١)- لخص المسألة فى كتابه "نصيحة الملوك"، إذ ذكر أن كافة الآلام التى أصابت المرأة جاءت نتيجة لخطيئة حواء فى جنة عدن (وهى أسطورة مهمة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء). وتوضح القائمة بجلاء وضع المرأة فى الإسلام وتُظهر أيضا أن المشكلات التى كانت بسبب "عادات" اجتماعية بالأساس. كانت فى حقيقة الأمر عقوبة دينية.

يستعرض الغزالى أن حواء لما عصت ربها وتناولت الفاكهة المحرمة فى الجنة عاقبها بثمانى عشرة عقوبة هى:

"(١) الحيض (٢) والولادة (٣) وفراق أمها وأبيها (٤) وحصولها مع أجنبى يتزوجها (٥) والنفاس والتلطيخ به (٦) وأنها لاتملك أمر نفسها (٧) ونقصان

ميراثها (٨) وكون الطلاق فى يد غيرها (٩) وما حلل للزوج أن يتزوج بأربع ومالها أن تتزوج إلا بواحد (١٠) ومالها أن تخرج من بيتها إلا مع ذى محرم (١١) وشهادة امرأتين بشهادة رجل (١٢) وتغطية رأسها (١٣) وأن الرجال يصلون الجمعة والعيدين والجنازة ويجاهدون فى سبيل الله وما للنساء ذلك (١٤) وأنه لا يصلح أن يكون فيهن إمارة ولا قضاء ولا علم (١٥) وأن النساء الفواجر يعذبن بنصف عذاب جميع الأمة يوم القيامة (١٦) وأن المرأة تعتدّ لموت زوجها أربعة أشهر وعشراً (١٧) وأنها إن طلقها زوجها اعتدّت بثلاثة أشهر أو ثلاث حيضات (١٧) وأن الثواب والأجر ألف قسم. قسم واحد للنساء والباقى للرجال.•" (٤)

ورغم أن تلك القواعد السلوكية كانت يجب أن تطاع على الملأ. فإن أجنحة النساء فى بيوت مسلمى الطبقة الدنيا لم تكن مفصولة عن الرجال سوى ظاهريا. فالفقراء لا يسعهم أن يتحملوا نفقات حبس زوجاتهم وبناتهم. لكن الأمر بالنسبة للميسورين كان مختلفا. إذ أن تحريم النبى للتفرقة بين الزوجات دفعهم لتخصيص حجرات منفصلة أو شقق منفصلة —أو حتى بيوت منفصلة— لكل زوجة. وهذا —بالإضافة إلى شغله حيزا كبيرا من الأرض— جعل من السهل على النساء أن يستجبن لأى إغراء يقابلهن. لم يكن الأزواج المسلمون يُجلّون أخلاق المرأة أكثر من أقرانهم الصينيين أو الهنود أو الإغريق أو الرومان —يقول الغزالى "وعلى الحقيقة كل ما ينال الرجل من البلاء والهلاك والمحن فبسببهن"(٥)— ومن ثم فقد ساروا على خطى البيزنطيين ووضعوا نساءهم فى سجون فعلية. بذلك لم يعد مما يثير الدهشة —بعد تطور أغانى الحب العربية إلى جنس أدبى مميز— أن يناجى كثير من الشعراء سيدة بعيدة المنال لا يمكن الاقتراب منها أو الوصول إليها. كذلك لم يكن مستغربا أن يستغل الشعراء تلك الفرصة لتشكيل تلك السيدة حتى يجعلوا منها ذلك الكائن المثالى الموجود فى مخيلاتهم.

•الغزالى: اعتمدنا هنا على تحقيق "محمد دمج" لكتاب "التبر المسبوك فى نصيحة الملوك" الصادر عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. وقد اعتمدت المؤلفة على ترجمة انجليزية لكتاب الغزالى تحمل بعض الاختلافات. إذ تضع تلك الترجمة على المرأة عقوبة "أن تغطى رأسها داخل منزلها". كما تتجاهل عقوبة ذكرها الغزالى وهى أن الله حرم المرأة من العلم والجهاد. (المترجم)

عندما غزا المسلمون الأوائل بلاد فارس وجدوا أمامهم مصدرا قويا للإلهام، ليس الثقافى فحسب وإنما العاطفى أيضا. وجدوا أنفسهم خاضعين لتأثير عوامل مختلفة. ليست العوامل الكبرى وحدها. بل وتلك التى تبدو صغيرة أيضا. ولكن فى الظاهر فقط. إحدى القنوات التى انتقلت تلك الخبرات من خلالها كانت — للمفاجأة- "الحكواتى" المحترف الذى ذاع صيته فى مدن الشرق الأدنى. كان يقص حكاياته على الجميع، بداية من المارة عند زوايا الشوارع. وحتى الخليفة فى بلاطه. كانت مجموعة الحكايات التى قصها هؤلاء الرجال. وخاصة الفرس منهم. متنوعة إلى حد مدهش. كانت تنهل من الكتاب المقدس ومن نصوص الفيدا. تحكى بطولات الأبطال الإغريق والمحاربين الرومان والملكات المصريات. وتورد أخبار الملائكة والجن. الجياد المجنحة والبسط السحرية. الكنوز على الأرض والراقصات فى الجنة. كانت لصورهم المرسومة بالكلمات بريقا بريا وغريبا سيطر تماما على المخيلة العربية.

العرب الذين تكيفوا مؤخرا على الخيال الرومانسى وجدوه مجسدا (لحما ودما) فى الجوارى المثيرات اللاتى كن من بين الغنائم. كانت تلك الجوارى يتمتعن بالرزانة والأناقة، ومثقفات ومدربات على أعلى مستوى، ما أهلهن إلى أن يتحولن إلى "نخبة" عصرية باتت تفرض تأثيرا حضاريا امتد نطاقه من فارس إلى أسبانيا[٦]. كانت لهجاتهن الأجنبية الساحرة تعجز عن التكيف مع المفردات الفصيحة فى الأغانى العربية التقليدية. لكن تلك الحقيقة لم تغير من الأمر كثيرا، إذ لم يكن لتلك المفردات النابعة من حياة الصحراء القاسية وإيقاعات خطو الإبل مكان فى المدينة. وسرعان ما استولت أغانى الحب البسيطة المفضلة لدى أولئك الجوارى على الآذان العربية كما استولت حكايات الحكائين على مخيلتهم.

لقد ساعدت أغانى الحب الجديدة على بلورة صورة حسية للمرأة —وليس للجوارى فحسب واللاتى كن فى النهاية قليلات نسبيا ورفاهية لا تقدر عليها سوى الطبقة العليا. أما السيدة المسلمة المستمسكة بالتقاليد سجينة الحريم فقد اكتسبت سحرا جديدا وغامضا. وبذلك ظهر نوعان من أغانى الحب ونوعان من الحب نفسه.

كانت الجارية المستعدة للعب دور المحظية هى الهدف الأول لمدرسة الحب القائم على الرغبة. والتى كان أتباعها من الخبراء. عشاق البهجة والمنغمسين فى

الملذات. كان دور المرأة أن تخلب لب الرجل بذكائها وجمالها، بينما يتودد هو إليها بأناقة الأسلوب، ويجد متعته فى عملية الصيد نفسها. كما يجد نفسه حرا تماما. وبمجرد أن يتحقق له الهدف، أن يبحث عن فريسة جديدة. ربما كانت الجارية هى الأخرى تستمتع بتلك المطاردة فى حد ذاتها. ولكن يبدو أنها كانت معنية أكثر بتنفيذ نصيحة فاتسيايانا (حتى وإن لم تعرف ذلك) بشأن الربح. لقد شكا الجاحظ من أن "أكثر أمرها قلّة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة فى استنطاف ما يحويه المربوط (أى الاستيلاء على مال العشيق) والانتقال عنه"•.[٧] كان المال هو شغلها الشاغل، فإذا استطاعت جمع ما يكفى كانت الشريعة الإسلامية تسمح لها بشراء حريتها.

فى لعبة الحب والرغبة، كان الخصم الوحيد الذى ينافس الجارية هو الغلام ابن الثامنة عشرة والذى حرص العرب على التودد إليه كما حرص سابقيهم من الفرس والإغريق. كان كلاهما هدفا للحب الشهوانى العابر الذى لم يكن ظاهرة جديدة فى العالم المتحضر. فى الواقع كان الحب القائم على الرغبة –حتى فى صورته المتطرفة– بعيدا عن كونه سمة مميزة للعرب دون غيرهم.

لكن "الحب العذرى" كان شيئا مختلفا تماما، لعبة ذكورية تهدف إلى إشباع المشاعر الذكورية المتثاقفة. كانت الجارية –على الأقل– شخصا من لحم ودم. مهما كان جشعها للمال. بينما لم تكن بطلة قصائد "الحب العذرى" شخصا من الأساس، وإنما بؤرة للتركيز ليس إلا. فبفضل الحجاب والحرملك ظلت ملامح السيدة وجسدها وسحرها وذكاؤها أمورا مجهولة للشاعر العاشق. بل يبدو –على الأرجح– أن كثيرا من بطلات تلك الأشعار لم يعرفن شيئا عن القصائد التى كنّ مصدر إلهامها. كنّ مجرد أشكال مغطاة يمكن رؤيتها أحيانا عن بعد. وربما لم يعرف عشاقهن عنهن شيئا إلا من خلال وصف أزواجهن أو إخوتهن وهم يتفاخرون بهن.

كان الحب من العقل، والجنس من الجسد، ولم يجد العرب سببا للخلط بين الاثنين. لقد قلبت مدرسة "الحب العذرى" تأثير عزل النساء رأسا على عقب. فبدلا من أن يمنع الحب صار مصدرا له. أما العفة، القاعدة الأولى للعبة، فقد أصبحت مهمة لدرجة بات معها إشباع العاشق لرغبته (فى عشيقته) –لو استطاع

• رسائل الجاحظ. الرسالة الرابعة عشرة. كتاب القيان (المترجم)

ذلك- ضربا من الخيانة. أما القاعدة الثانية. الإخلاص. فكانت قاعدة ملزمة. بينما القاعدة الثالثة تتطلب الخضوع الكامل من العاشق لمعشوقته، حتى لو دفع ذلك به إلى حافة الموت. قتيلا "بكى من حب قاتله" كما قال الشاعر "جميل"•.[٨] فى البداية كان الشعراء مستعدون تماما للإفصاح عن اسم معشوقاتهم. ولكن بحلول القرن الثامن أصبح ذلك أمرا غير مقبول. ولم يجد خلفاء "جميل" ملاذا من عذاباتهم فى الحب والغيرة إلا فى الشعر والفن. لذلك. كان يُنظر إلى "الحب العذرى" على أنه "حب نبيل". مصدر إبداعى وروحى من مصادر الإلهام.[٩]

الشكل النهائى من "الحب العذرى" هو الذى سيدخل أوروبا حاملا معه تأثيرات اجتماعية غير معهودة. ولكن قبل أن يحدث ذلك بدأ الحجاج المسيحيون وجنود الحملات الصليبية يفكرون فى زيجاتهم الأحادية الخالية من الحب—والتى كانت مجرد صفقات لا تلتفت كثيرا للكيمياء بين الزوجين- ويقارنوها بمباهج الحريم المثيرة.

أكانت مباهج بالفعل أم بدت كذلك فقط للغريب الجاهل؟ المؤكد أن أهل البلاد أنفسهم كانت لهم تحفظاتهم.

الحريم الأكبر

المشكلات الإدارية الشديدة التى عانى منها ذلك المجتمع الذى يتبنى التعددية على أعلى مستوياته كانت تبلغ ذروة تعقيدها فى القصور الملكية. لقد عرفت الصين تلك المشكلات ووضعت لها الحلول قبل ذلك بألف عام. هناك كان ينتظر من الملك أن يتخذ ملكة واحدة، وثلاث رفيقات. وتسع زوجات من الدرجة الثانية. و٢٧ زوجة من الدرجة الثالثة و٨١ محظية (تلك الأرقام التى تم التوصل لها عبر نظام عتيق رأى فى الأرقام قوة سحرية). وقد أصبح من الضرورى تعيين عدد من سيدات البلاط فى وظيفة "سكرتيرات جنسيات". كانت مهمتهن ضمان أن يجامع الملك الرفيقة الصحيحة فى اليوم الصحيح وبالتكرار الصحيح: الدرجات الأدنى فى البداية. صعودا بالترتيب إلى الملكة. والتى كانت تستمتع بصحبته

• تشير الكاتبة هنا إلى قول جميل بثينة: خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى؟ (المترجم)

الملكية مرة فى الشهر عندما يكون رحيقه الحيوى قد اكتسب قوة من "الين" الخاص بالنساء الأقل منها مرتبة. كانت السكرتيرات يواظبن على كتابة اليوميات مستخدمات فرشات خاصة حمراء. وأصبح مصطلح "السجلات المكتوبة بالريشة الحمراء" يعنى "أسرار حجرة النوم الملكية". كانت كل مجامعة تسجل باليوم والساعة. وللتذكرة كانت كل رفيقة ملكية تُمنح خاتما فضيا لتضعه فى يدها اليمنى قبل أن تُصطحب إلى الملك. ثم يُنقل الخاتم إلى اليد اليسرى بعد المجامعة. وإذا حملت الفتاة تُمنح خاتما ذهبيا بدلا منه.

بحلول عصر أسرة تانج (٦١٨–٩٠٧ ميلادية) عندما كان مسلمو بغداد مايزالون يتفكرون فى حل للمشكلة. كان الحريم الملكى الصينى يبلغ عدده المئات. وكانت السكرتيرات الملكيات فى حاجة إلى موهبة محاسبية حقيقية لتنظيم الجدول وتتبُع مواعيد كل لقاء بالساعة واليوم. مع الوضع فى الحسبان مواعيد الدورات الشهرية. وأعراض الحمل. والبيانات المصاحبة. ولأسباب سحرية وأمنية على السواء كان احتمال استبدال فتاة بأخرى صداعا لا ينقطع. فى بداية القرن الثامن كانت الفتيات اللاتى ينمن مع الامبراطور يُختمن بعد ذلك. ويقول الختم "الريح والقمر (العلاقات الجنسية) متجددان على الدوام" وكانت تلك الأختام تدهن بدهان من القرفة يجعلها لا تُمحى.[١٠]

والظاهر أنه لا الحكام الهنود ولا الخلفاء المسلمين قد بلغوا ذلك المبلغ من التطرف. بل أن الحكام الهندوس –وفقا للكاماسوترا– نجحوا فى الاحتفاظ بحق اختيار من يذهبن للفراش معهم. كذلك فقد مر فاتسيايانا مرور الكرام على الموضوع وهو يعطى نصائح تمكن الشباب من الذهاب إلى الفراش مع النساء الملكيات. شريطة أن ينجحوا فى المرور من الحراس والدخول إلى الـ"زينانه". لقد اعترف إنها ليست مغامرة سهلة. لكن إذا كان الرجل مصمما عليها سيكون عليه أولا "أن يفكر فيما إذا كانت ثمة طريقة سهلة للخروج...".[١١]

لم يكن للأوروبيين سوى اتصال محدود بالبلاط الصينى أو الهندى حتى نهاية العصور الوسطى. الأمر الذى جعل تعدد زوجات أباطرة الصين ومهراجات الهند لا يبهر المخيلة الغربية كثيرا. لكن الاتصال بالعالم الإسلامى أثناء الحملات الصليبية منح شعوب أوروبا صورة شديدة الغرابة فى الواقع عن الحياة الخاصة لخلفاء بغداد. ورغم أن كتاب ألف ليلة وليلة الزاخر بقصص العشق والحريم لم يترجم إلى أى لغة أوروبية حتى بداية القرن الثامن عشر. فالحكايات التى يضمها بين دفتيه –والمستوحاة من مصادر فارسية وهندية وإغريقية وعبرية ومصرية–

كانت قد أصبحت بالفعل عملة رائجة "للحكواتيه" فى زمن الحملات الصليبية. مع ذلك لم تصل أسطورة الحريم إلى كامل بهائها قبل أيام الأتراك العثمانيين الذين دحروا فى عام ١٤٥٣ البقية الباقية -بضعة آلاف فحسب- من المدافعين عن الامبراطورية البيزنطية التى كانت عظيمة فى يوم من الأيام. واجتاحوا القسطنطينية نفسها. المعقل الأخير للامبراطورية الرومانية الشرقية.

لسنا فى محل الكلام عن الملاحم البطولية للعثمانيين. ونحن بحاجة إلى الكثير من أبحاث التحليل النفسى والاجتماع الحيوى قبل أن نتمكن من التوصل إلى تقدير سليم للدور الذى لعبته أصول السلاطين وحياتهم الجنسية. والعزوبية الطويلة للنخبة العسكرية (الانكشارية). وانتشار الطواشية (الخصيان) بين كبار موظفى الامبراطورية، وتأثير ذلك ليس على الشرق الأدنى فحسب، وإنما على التاريخ الغربى بأكمله. مع ذلك فثمة حقيقة واضحة: لا يوجد مجتمع آخر لعبت فيه الرغبة الجنسية من ناحية وكبتها من ناحية أخرى مثل ذلك الدور على مستوى القرارات السياسية والدبلوماسية.

يبدو أن العثمانيين -الذين كانوا فى الأصل قبائل بدوية ذوى قرابة مع المغول - لم يتمتعوا بمباهج الحريم حتى فتح القسطنطينية. ولكن عندما فعلوا وجدوا لزاما عليهم الحفاظ على حالة الفصل التام التى مال إليها العرب من قبل. وحتى عام ١٩٠٩ -عندما خُلع عبد الحميد الثانى أخيرا وجرى ترحيله وبرفقته ثلاث زوجات وأربع محظيات فقط- لم تكن هناك أى حقيقة ثابتة معروفة للعالم الخارجى عن حرملك "سلطان السلاطين" السرى والمدجج بالحراسة •. قبل ذلك كان حرملك "سلطان السلاطين" -مثل حرملك الخليفة- مستودعا للأسرار. يقدم للغرباء "جراب الحاوى" المتلئ بالأخيلة الإيروتيكية. وكما قال بينزر N.M. Penzer فى أول دراسة متكاملة عن الموضوع فإن الغرب لأكثر من ٤٠٠ عاما كان ينظر إلى الحرملك باعتباره المكان الذى يقضى فيه السلطان وقته "محاطا بمئات من النساء أشباه عرايا، فى جو من العطور الفواحة. والفسقيات الباردة. والموسيقى الناعمة. والإفراط فى ممارسة كل ما يمكن تخيله من الرذائل التى

• الحرملك هو "أجنحة النساء". وكانت أجنحة الرجال هى السلاملك. أما الكلمة الإيطالية Seraglio وهى مشتقة من الفارسية فربما لا تشير إلى الحرملك وحسب ولكن للعبانى فى البلاط الملكى بما فى ذلك "السلاملك". بينما تناظر كلمة "زيناته" الهندية كلمة حرملك

يستطيع العقل الجمعي للنساء الغيورات والنهمات جنسيا ابتكارها من أجل إمتاع سيدهم." [١٢] لكن الأمر لم يكن كذلك بالضبط.

كان الحرملك يضم بين ٣٠٠ و١٢٠٠ جارية مع مرافقيهن وحراسهن. مسؤولة الثياب. القيمات على الحمامات والمجوهرات والمخازن. قارئ القرآن. مديرة شئون المائدة. ما يعني أن الحرملك لم يكن مكانا خاملا حتى لو كان الجو العاطفي ساخنا معظم الوقت. أغلب الفتيات كُن يُجلبن من أسواق العبيد في منطقتي البحر المتوسط والبحر الأسود، أو يقدمهن سادتهن هدية للسلطان •. ولكل منهن مكانها الخاص وفقا لعمرها ووضعها وسرعة تعلمها لمهارات الحريم. الجارية الجديدة توضع تحت إشراف إحدى القيمات على الأقسام لتتعلم التطريز. صناعة القهوة. الموسيقى. أو المحاسبة. وإذا لم تلفت أنظار السلطان كانت يُكتب عليها أن تظل مطرزة أو صانعة قهوة أو عازفة أو محاسبة حتى تُحال إلى التقاعد وترسل لتعيش مع الحريم السابقات للسلطان السابق في "الإسكي سراي" (السراي القديم). لكن لو حدث ونظر السلطان إليها نظرة رضا. فإنها تُعزل على الفور وتُخصص لها حجرات منفصلة ومرافقات منفصلات. وعندما يأتيها الاستدعاء (إذا حدث وجاءها) تهرع إلى حمامات الحرملك لتغتسل وتُدلك وتُعطر وتُنزع عن جسدها كل شعرة. ثم تُطلى أظافرها ويُغسل شعرها وتُوضع في أبهى حللها. وبعد أن ترتدي الملابس وتضع الجواهر المناسبة تُصطحب إلى مخدع السلطان بعد أن يذيع سرها في كافة أنحاء الحريم. كانت تلك هي الخطوة الأولى —وأحيانا الأخيرة— في سلم السلطة الحقيقية. السلم الذي سيوصلها إلى منصب "الوالده سلطان" أو والدة السلطان (القادم). وهو مصير تُحسد عليه رغم أنه لا يستحق الحسد.

إن الزوجة أو المحظية يمكن أن تفقد الإعجاب أو تتعرض للهجران. لكن والدة السلطان تحتل مرتبة عالية الشرف. كانت هي. وليس "سلطان السلاطين" نفسه أو نساء مخدعه المفضلات. التي تتحكم في مؤسسة الحرملك بأكملها. وكانت سلطتها تمتد أكثر من ذلك حتى تصل إلى حدود الامبراطورية إذا كانت

• كان المغول أكثر تنظيما من الأتراك في مسألة جمع الحريم. فوفقا لماركو بولو. كان قبلاي خان يرسل سنويا لجلب أربعمائة أو خمسمائة فتاة من مقاطعة بعينها مشهورة بجمال نسائها. ويأمر بمنحهن درجات لتقييمهن (٢١ هي الدرجة الأعلى) حتى يتقلص العدد إلى ٣٠ أو ٤٠ يقاسمنه فراشه بصورة دورية على مدار العام التالي اما بقية المرشحات فكن يمنحن للنبلاء. [١٣]

تتسم بالقوة ويتسم ابنها بالضعف. كان وضعا تصبو إليه وتخطط له كل جميلة من جميلات الحريم. ولم يكن من الممكن تحقيقه إلا بعد أن يموت السلطان الذى منحها وليدها.

المسلمون يختلفون كثيرا عن الأوروبيين والبيزنطيين. وأحد أهم تلك الاختلافات فى مسألة الخلافة والميراث. لقد تأسس المجتمع المسيحى على الشرعية وحق الأخ الأكبر فى الميراث. كذلك فإن انشغال هذا المجتمع بالتراتبية والاستقرار السياسى دفع العائلات المالكة بوجه عام إلى الزواج من داخل الدائرة الضيقة للعائلات الملكية الأخرى. كما دفع عائلات النبلاء أن تتزوج من النبلاء. نعم. يمكن أن نفترض -فى بعض الفترات- أن عدد الأبناء غير الشرعيين كان يفوق عدد الورثة الشرعيين، ولكن فى النهاية كانت الحقوق تؤول للورثة الشرعيين سواء كانوا جديرين بها أم لا.

أما فى قصور المسلمين -حيث كان الحرملك الكبير رمزا من رموز السلطة مثل التاج وجوهرة التاج والصولجان فى الغرب- فكان تحديد التناسل داخل تلك الدوائر الضيقة ضربا من المستحيل. كانت معظم المحظيات من الجوارى. ومن بين ٣٨ خليفة عباسى حكم العالم الإسلامى فى بداية العصور الوسطى. كان ٣٥ من أبناء الجوارى الأجنبيات.[١٤] إن مسألة الشرعية التى شغلت بال المسيحيين لم تكن أمرا شديد الأهمية فى العالم الإسلامى.

لم تكن التقاليد العربية تتبع خط التوريث إلى الابن الأكبر فى نقل السلطة. وإنما خط الأقدمية القبلية، والنتيجة أنه إذا كان أنشط أعضاء العائلة هو الابن الأصغر. فسيصبح عليه -عندما يخلو العرش- أن يفكر فى اغتيال ليس اخوته الأكبر فحسب. وإنما أعمامه أيضا. أما الأتراك فقرروا أن الخلافة تورث إلى أحد الأبناء، ولكن ظل السؤال معلقا: أى ابن؟

كان ثمة نظام للأقدمية فى الحريم يقوم على التقليد القرآنى للزوجات الأربع. رغم أنه كان من غير المعتاد على سلطان عثمانى أن يذهب بعيدا لدرجة الزواج. المحظية التى تحمل ابنا كانت ترفع تلقائيا إلى مرتبة "قادن"، ما يمنحها مميزات عديدة، خاصة إذا كانت محظوظة بما فيه الكفاية أن تصبح صاحبة الابن الأول للسلطان الجديد. لم يكن منصب "القادن" ثابتا على حاله. فالقادن الثانية الماكرة والطموحة يمكن أن تطيح بالأولى إذا لعبت جيدا بما فى يديها من أوراق. كما يمكنها أن تحظى بمكانة فى الحرملك لا يعلوها سوى الوالدة سلطان -والتى ستجد نفسها فى حالة دائمة من الحرب معها. ولكن إذا كانت ماهرة يمكنها

تحقيق المزيد. يمكنها أن تضمن أن يصبح ابنها هو قرة عين السلطان. وهى خطوة أساسية باتجاه التوريث. خطوة لا غنى عنها إذا كانت تمتلك أدنى مشاعر أمومية. فحتى القرن السابع عشر كان البديل للتوريث هو الموت.

كان غياب أى نوع من قوانين توريث السلطة يعنى أن التوريث يُحسم عادة بحمّام دم. فى الواقع أصبح ذلك الأمر "إجباريا" فى القسم الأخير من القرن الخامس عشر عندما أصدر محمد الثانى "قانون قتل الأخوة" والذى يأمر كل ابن يخلف أبيه على العرش أن يقتل كافة إخوته على الفور—ما لم يكن قد فعل ذلك لكى يصل إلى العرش أصلا. كان الهدف من ذلك هو القضاء على أى احتمال للفتنة أو الحركات الانفصالية فى المستقبل بالقضاء على الأمراء التعساء أنفسهم. قد يكون ذلك قانونا قاسيا. ولكنه ليس أحمق. فإذا قرر إخوة محمد الثالث، وعددهم ١٩، الاتحاد ضده على سبيل المثال، لازداد ضحايا تلك الفتنة كثيرا عن ١٩. مع ذلك فقد رفض أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) —خليفة محمد الثالث- تلك الممارسة واستبدلها بأخرى كان لها —رغم حسن النية- تبعات أسوأ كثيرا على كافة الأصعدة. الآن بات على المطالبين بالعرش أن يقبعوا فى مبنى صغير مغلق يعرف باسم "القفص" حتى يأتى دورهم، ولا يسمح لهم سوى بصحبة عدد محدود من النساء والمرافقين•. وقد حُبس السلطان ابراهيم منذ كان فى الثانية حتى جاء دوره لارتقاء العرش وهو فى الرابعة والعشرين، وحُبس سليمان الثانى لمدة ٣٩ عاما. وعثمان الثالث (فى القرن الثامن عشر) لخمسين عاما. لم يكن القفص "موتا بالحياة" فحسب. وإنما ضمانا أن أى سلطان سيخرج منه سيكون ضعيفا. فاقد الاتصال بالإنسانية، والامبراطورية، والعالم.

لذلك، وبأى طريقة ممكنة، كانت القادن تحاول جادة أن تضمن رضا السلطان عن ابنها. وإذا كانت ذكية وبعيدة النظر بما فيه الكفاية كانت تعزز جهودها فى هذا الاتجاه عن طريق شراء دعم الوزراء والانكشارية وكبار الطواشية

• كانت تجرى للنساء عمليات تعقيم عادة باستئصال المبايض. وأحيانا كان أطباء الحريم يزودونهن بدلا من ذلك بأدوات موضعية لمنع الحمل توضع بشكل روتينى فى نهاية كل دورة شهرية. ورغم أن عقاقير منع الحمل العربية كانت متقدمة نسبيا – كانت الموسوعة الطبية التى وضعها ابن سينا هى المرجع الأساسى منذ وفاته عام ١٠٣٧ ولمدة ٦٠٠ عام بعد ذلك- فقدا بدا أنه كان من المعتاد ترك تلك الأدوات الموضعية فى أماكنها لأيام أو حتى أسابيع فى كل مرة.[١٥] وإذا وقع خطأ كان أى طفل يولد فى "القفص" يتم اغراقه دون حس أو خبر.

والمفتى الأكبر. إن كثيرا من أباطرة العثمانيين يدينون بعروشهم واستمرارهم عليها ليس لقدراتهم وجهودهم الشخصية، وإنما لقدرات وجهود أمهاتهم.

بعض "القوادن" كنّ ليتركن بصماتهن فى أى فترة من فترات التاريخ. ربما كانت أشهرهن روكسلانه سلطان•، والتى أقنعت سليمان القانونى• بالزواج منها. ليكون بذلك أول سلطان يتزوج زواجا شرعيا منذ أكثر من قرن•. وكانت النتيجة المثيرة هى أن سلطان السلاطين الذى اشتهر بالانحلال الأخلاقى عاش فيما بعد حياة عائلية أكثر احتراما بكثير مقارنة بمعاصريه المسيحيين: هنرى الثامن ملك انجلترا بسلسلة زوجاته، وهنرى الثانى ملك فرنسا بسلسلة محظياته. كانت روكسلانه —الروسية الأصل– تتمتع بحنكة سياسية ملحوظة. وقد لعبت دروا مؤثرا فى المناورات المعقدة التى قام بها سليمان ضد عدوه المفضل: الامبراطور الرومانى المقدس تشارلز الخامس ملك أسبانيا. بعده باثنين من السلاطين ظهرت صفية، ابنة البندقية ذات الأصل النبيل التى أسرها القراصنة الأتراك. وقامت بنفسها بتوجيه حركة الأساطيل والجيوش العثمانية بينما كان سيدها السلطان مشغول بقوادنه ومحظياته الأخريات. وقد حققت نهائيا لقب "سلطان والدة" ولكن بعد أن تدهورت شعبيتها حتى انتهى الأمر بقتلها فى فراشها.

نجحت بعض القوادن فى الهرب ليس من الحريم فحسب ولكن من سلطة القصر نفسه. كان السلطان الجديد إذا اتسم بالتسامح، بعد أن يقتل كافة إخوته يزوج أمهاتهم لوجهاء محليين. واحدة منهن حازت لقبا يترجم بالإنجليزية إلى ما لا يقبل التأويل: "السلطانة القذرة". لم يكن الوصف يشير إلى قواعد الصحة العامة

• روكسلانه: تعرف أحيانا باسم روكسانا أيضا (المترجم)

• سليمان القانونى (١٥٢٠–١٥٦٦) أحد أعظم السلاطين العثمانيين. اشتهر بوضع نظام قانونى للامبراطورية. واتسعت فى عهده رقعة الامبراطورية لتمتد إلى بلجراد ورودس والمجر ومعظم الشرق الأوسط وشمال افريقيا. كما عرف برعايته للفنانين والأدباء. (المترجم)

• تجنب سلاطين العثمانيين الزواج الشرعى بعد إهانة لا تنسى وجهها تيمورلنك للسلطان بايزيد بعد انتصاره. إذ تذكر إحدى الروايات أن تيمورلنك أرغم زوجة بايزيد على الخدمة عارية أثناء الاحتفال بانتصاره. لتصبح تلك الحادثة عقدة لدى خلفائه من السلاطين: ليس الخوف من الهزيمة. وإنما الرعب من الزواج! (المترجم)

التى تتبعها. إنما إلى حقيقة أنها عندما توفى زوجها قررت ألا تضيع مهاراتها ومواهبها. ومن ثم بدأت تجارتها واحتكرت القوادة فى القسطنطينية تقريبا. صارت تختار الجوارى، وتقوم بتعليمهن وتدريبهن. ثم تؤجرهن للوجهاء من زبائنها. وقد قررت ألا يكون من بين زبائنها السلطان محمد الرابع. إذ طلب منها أحد الجوارى فرفضت.

للأسف لا نعرف سوى القليل عن تفاصيل تدريب الحريم للأمور الأكثر حميمية. يُفترض أن تدريب الجوارى يتأسس على الذوق الشخصى لأسيادهم. كان لبعض السلاطين شهية لا تنضب للعذراوات فلا يستدعون فتاة واحدة مرتين أبدا. وبعضهم استخدم الجوارى للحفاظ على النسل بينما كانوا يفضلون الغلمان عندما يتعلق الأمر بالاستمتاع. وبعضهم، مثل السلطان ابراهيم المأسوف عليه، كان مهووسا بالجنس الجماعى، وإن كانت تلك العادة غير مؤذية نسبيا بقدر ما يمكننا الحكم -باستثناء المرة التى شحن فيها كافة محظياته الـ٢٨٠ إلى البسفور داخل أجولة مغلقة. كان يحب المرايا فى غرف النوم. ويفرط فى تناول المثيرات الجنسية، ويحب اللعبة التى يقلد فيها فحل الحصان بينما تتظاهر الجوارى أنهن فرسات. تلك كانت أقصى شطحات وصلتنا عنه.

الأمر الوحيد المهم المسجل بصورة جيدة نسبيا هو طريقة إدخال المحظية إلى المخدع الامبراطورى. عندما تُجلب إلى المخدع يكون السلطان تحت الأغطية. لكن البروتوكول يجب الالتزام به حتى فى تلك الأوقات. لم تكن الفتاة تنسل ببساطة لتتمدد جانبه، بل كان عليها أن تزحف أسفل الأغطية عند قدميه كدلالة على الخضوع، ثم تتلوى متخذة طريقها نحو رأسه. حتى تجد نفسها على مستواه. لم يكن ذلك نظاما تفرّد به العثمانيون -وهم ليسوا أثرياء جدد يصرون على الاختلاف فى كل شى-ففى الحرم الصينى كانت تطبق القواعد نفسها حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر.[١٦] من المحتمل أن تكون الفكرة قد ظهرت بشكل مستقل فى كلا البلدين. وربما انتقلت من مكان إلى آخر عن طريق المغول الذين سيطروا فى القرن الرابع عشر على قطاع كبير من الأراضى شمل الصين بأكملها وامتد إلى أجزاء من الشرق الأدنى.

فوق ذلك يمكن استنتاج أن التقنيات الجنسية فى الحريم العثمانى لم تختلف كثيرا عن تلك المستخدمة عادة فى العالم الإسلامى. كان لدى الشرق الأدنى ما يعادل "الكتيبات الإرشادية لحجرة اليشم". وكان له "الكاماسوترا" و"الأنانجا

رانجا"• الخاصة به. بعضها يحمل عناوين تبدو مربكة قليلا لدى ترجمتها مثل "الإيضاح فى علم النكاح" و"الوشاح فى فوائد النكاح"، وبعضها يحمل عناوين شديدة الشعرية مثل "الروض العاطر فى نزهة الخاطر" وهو عمل عربى يعزى تاريخه إلى القرن السادس عشر أو بداية القرن الخامس عشر. وهو كتاب يتميز بالعملية الشديدة وبالطرافة أحيانا. صيغ بمصطلحات شديدة الصراحة.

فى حقيقة الأمر لا يختلف "الروض العاطر" كثيرا عن "الكاماسوترا" وإن كان أطول- بسبب القصص الداعرة المنتشرة فى صفحاته لتوضيح المشكلات المعقدة للسيكولوجية الجنسية، وهو موضوع خصيصا بهدف "حل المعقود" (مساعدة من يعانى مشكلات فى الانتصاب). [١٧] المؤلف الشيخ النفزاوى• الذى كتبه بتحريض وزير "البای" حاكم تونس. لم يكن جاهلا بكتيبات الجنس الهندية. وقد ذكر ذلك صراحة. بعد أن عدد أوضاع الجماع المستخدمة فى الشرق الأوسط ووجدها ١١ وضعا فقط، قال إن الهنود "تقدموا أكثر منا فى فن الجماع" ثم ذهب ليعدد نحو ٢٥ وضعا إضافيا. بالطبع لا أحد يعرف إن كان فاتسيايانا سيعترف بتلك الأوضاع أم لا. كذلك فإن بعضها بدا وأنه جاء من مصادر صينية وليست هندية.

وقد أنهى النفزاوى مناقشته للأوضاع بوصف وضع شديد الغرابة أسماه "الانهاك الأكبر" والذى زعم أنه يوجد فى الهند "تلقى المرأة على ظهرها ثم يجلس الرجل على صدرها بحيث يكون ظهره لوجهها. فيدير ركبتيه إلى الأمام ويتكئ على أطراف أصابعه، ثم يرفع فخذيها ويقوس ظهرها حتى يجعل فرجها حذو إبره فيولجه فيها. ثم يقضى وطره منها." ويضيف الشيخ "لكن هذا الجماع كما ترى يورث الوهن ويصعب تحقيقه." ثم يضيف بصورة قاطعة "بل وأتصور أنه جماع لا يوجد إلا فى الكلمات." [١٨] وربما كان محقا•.

محقا أم مخطئا. لم يكن لمثل ذلك الوضع أن يتحقق فى مخدع "سلطان السلاطين". فبخلاف أنه يتطلب امرأة تتمتع بصدر صلب كالحديد وعمود فقرى

• الأنانجا رانجا: أحد الكتب الهندية فى فن الحب. وضع فى القرن الثامن عشر الميلادى (المترجم)

• النفزاوى: هو الشيخ محمد بن محمد النفزاوى. وسيرته مجهولة وإن كان يعتقد أنه ولد فى نفازة بتونس وعاش فى منتصف القرن الخامس عشر وكان يعمل قاضيا (المترجم)

• لم يرد وضع بهذا الاسم فى الطبعات العربية المختلفة من الكتاب. من بينها طبعة دار رياض الريس بتحقيق "جمال جمعة". ولكنه ورد فى النص الانجليزى وترجمناه إلى العربية (المترجم)

مرن كالمطاط. كان من المستحيل ممارسته دون كثير مران. والمران مع رجل – بخلاف السلطان نفسه– كان الأمر الوحيد الذى لا تتضمنه المناهج التعليمية للحريم. كل جارية فى الحرملك كانت ملكا للسلطان وحده. ووحده يمكن أن يزودها بالأمر الوحيد الناقص فى المناهج التعليمية المعتمدة على التدريب.

الطواشية

حتى مع توافر أطيب النوايا –وهو أمر نادر الحدوث مع السلاطين– يصعب أن ننتظر منهم مجامعة كل واحدة من محظياتهم أكثر من مرة أو مرتين فى العام. فنسبة ألف إلى واحد نسبة لا يمكن التعامل معها حتى بالمعايير الطاوية. كان ذلك يعنى أن الحريم يعانين من الملل والإحباط ومن ثم يصبحن عصيات على السيطرة والحراسة. وكما هو معتاد منذ زمن طويل سبق أيام الأتراك العثمانيين. فقد أوكلت مهمة الحراسة إلى أولئك الذين يُعتقد (وهو اعتقاد غير دقيق تماما) أنهم أكثر ملاءمة لها: الرجال الذين جُردوا من ذكورتهم والمعروفين باسم "الطواشية" Eunuchs•.

كانت الفكرة شديدة البساطة. فالرجل الذى جُرد من بعض أو كل أعضائه الجنسية الخارجية يكون قد جُرد أيضا من قدرته على استغلال الفرص التى تتيحها له خدمة الحريم. لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد. فمنذ أيام سايرس الأكبر الذى أضفى المنطق على الأمر فى القرن السادس قبل الميلاد. كانت الفكرة السائدة أن العبيد الخصيان. الذين انفصلوا عن عائلاتهم وباتوا عاجزين بطبيعة الأمور عن تكوين أى عائلات جديدة، سوف يمنحون إخلاصهم بسخاء "لأولئك الذين بأيديهم منحهم الثراء والوقوف بجانبهم إذا أخطأوا. وتعيينهم فى كبرى المناصب." وهم رغم عجزهم "ليسوا أقل كفاءة بأى حال فى ركوب الخيل ولا أقل مهارة فى استخدام الرمح. ولا أقل طموحا" وكذلك "لا يوجد من هو أكثر إخلاصا لسيده فى أوقات الشدة من الطواشية... ومع وضع تلك الحقائق فى الحسبان. فقد اختار سايرس الطواشية لكل وظيفة تتعلق بخدمته الشخصية. بداية من حراسة البوابات فما فوقها." (١٩)

• Eunuchs: كلمة ذات أصول يونانية تعنى "المسؤولين عن الفراش"

ورغم مديح زينوفون. فإن سايرس لم يكن أول حاكم شرق أوسطى يوظف الخصيان. بل ربما تطورت تلك العادة من القوانين الغابرة- والحديثة فى بعض المناطق* - التى كانت تحكم بالإخصاء على الرجال الذين يدانون بالاغتصاب أو الزنا. وفقا للشرائع الأشورية التى ترجع إلى ما بين ١٤٥٠ و١٢٥٠ ق.م. كان يحق الرجل الذى يضبط زوجته مع رجل آخر أن يقتلهما معا. أو أن يكتفى بجدع أنف زوجته وإخصاء الرجل.[٢١] وما يجعلنا نعتقد أن ذلك العقاب كان يطبق بصورة متكررة هو وجود عدد من الطواشية بين الموظفين الملكيين الأشوريين. فيما عُيّن آخرون فى الحرملك لحراسة زوجات الملك الأربع ومحظياته الأربعين وبقية النساء المعزولات. واللاتى كان ممنوعا الاقتراب منهن أكثر من سبع خطوات. أو الحديث معهن إلا فى ملابسهن الكاملة.[٢٢]

ويبدو أن الفرس الذين خلفوا الامبراطورية الأشورية كانوا أول من أخصى السجناء بدم بارد بدلا من الدم الساخن. رغم أن هيرودوت يذكر أنهم كانوا يختارون "أجمل الشباب" فحسب.[٢٣] ما يرجح أن إعداد هؤلاء -على الأقل- لم يكن للحرملك التقليدى. بل أن داريوس فرض على بابل وبقية المدن الأشورية أن ترسل إليه جزية قدرها ألف طالن من الفضة و٥٠٠ من الغلمان الخصيان. كما بدا وأن عادة استيراد الطواشية بدأت من هنا.

ربما انتقلت فكرة توظيف "الطواشية" فى الخدمة الملكية من فارس إلى الصين. ما لم تكن قد تطورت بصورة منفصلة فى الأخيرة. ويقول كل من التاريخ الصينى والتقاليد الصينية إن الكوى والجدع والإعدام كانت هى العقوبات الجنائية التى استخدمت فى العصور الأولى. وإن من طبقت عليه عقوبة الإخصاء (وكانت تسمى "عقوبة القصر") كان يُجبر على الخدمة فى العائلات الأميرية. وعندما كان عدد المجرمين المخصيين يقل فلا يفى بالطلب. كان يُجلب عدد من الخصيان وتتم "حلاقتهم" من أجل الخدمة. لكن الصينيين حددوا استخدام الخصيان فى نطاق العائلة الامبراطورية. حيث يتم تعيينهم فى الحرملك. وأحيانا فى تنفيذ أحكام الإعدام.[٢٤]

* فى سان دييجو بولاية كاليفورنيا الامريكية بين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٥ اختار ٣٩٧ من المدانين فى جرائم جنسية الإخصاء كعقاب بديل عن قضاء فترات طويلة فى السجن. وفى الدنمارك بين عامى ١٩٢٩ و١٩٥٩ اتخذ ٣٠٠ سجين ومعتقل الخيار ذاته. وفى بريطانيا كان استخدام المثبطات الجنسية الكيميائية أمرا محمودا. ومنظمة الصحة العالمية تدين الفكرة برمتها إلى أبعد الحدود.[٢٠]

فى بلاد الإغريق، والتى كانت منفتحة هى الأخرى على التأثيرات الفارسية. كان للإخصاء أهداف تجارية. كان أحد رجال "كيوس"• واسمه بانيونيوس "يكسب قوته من تجارة البطن، إذ يخصى أى صبى وسيم تقع عليه يداه. ثم يصحبهم إلى سرديس أو إفيسوس، حيث يبيعهم بأسعار عالية." [٢٥] كذلك كان لدى روما "حلاّقوها". فهناك لم يكن الإخصاء فعلا مستحبا لدى كهنة الدين الجديد وحدهم، وإنما -كما يقول الكتاب الساخرون- لدى عشاق بعض النساء المغامرات. وقد حرم الامبراطور دوميتيان• أخيرا تلك الممارسة. وفى الوقت نفسه فرض إجراءات ذكية للتحكم فى أسعار أولئك الخصيان الذين ظلوا بين يدى تجار العبيد. [٢٦]

فى بيزنطة المسيحية كان الطواشية يفعلونها بمحض إرادتهم. إذ أن السجل العنيف للخلافة الامبراطورية دفع الحكام إلى اختيار وزراء -بل وبطاركة للكنيسة- من بين أولئك الذين يُعتقد أنهم تحرروا من الطموحات العائلية بعد عجزهم عن إنجاب الأطفال، وكانت ثمانية من المناصب العليا فى الامبراطورية محجوزة لهم. كانت النتيجة أن الآباء الذين لديهم كثير من الأبناء بدءوا فى إخصاء واحد أو اثنين كى يصبحوا مسؤولين عن اخوتهم غير المخصيين. وكان ذلك هو ما يحدث بالفعل. والقضية الأكثر شهرة هى قضية "جون عائل الأيتام" John the Orphanotrophus. إذ قال عنه مايكل بسيلوس[٢٧] "إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى بالرجل الفطين. فقد كان هو هذا الرجل." بالتأكيد كان يتمتع بالفطنة بما يكفى أن يخطط وينجح فى رفع أحد إخوته - ثم أحد أبناء إخوته- إلى العرش الامبراطورى نفسه. لكن للأسف رغم أن "مايكل الرابع" أبدى له الامتنان. فإن "مايكل الخامس" لم يفعل. بل نفاه وأخصى كل الذكور فى عائلته بقسوة خليقة به. [٢٨]

لم تتبنَ المسيحية الغربية أبدا عادة توظيف الخصيان. باستثناء فى الكورس الباباوى فى كنيسة سيستين (حتى أوقفها ليو الثانى عشر عام ١٨٧٨) وعلى مسارح الأوبرا الإيطالية. كانت الأسباب معقدة. فعلى الصعيد السياسى كانت الدول العظمى وحدها تحتاج تفويض المسؤوليات إلى مدراء غير قابلين للفساد

• كيوس Chios: إحدى الجزر الإغريقية الكبيرة فى بحر إيجه (المترجم)

• دوميتيان Domitian: صعد إلى العرش عام ٨١ وتوفى عام ٩٦ ميلادية (المترجم)

(نظريا). أما الحكام فى الغرب المتشظى فكانوا أقرب إلى أراضيهم وشعبهم. ومن ثم لم تكن هناك حاجة للطواشية على مستويات السلطة. كما لم تكن هناك حاجة إليهم لحراسة النساء فى مجتمعات كانت النساء يتمتعن فيها بقدر من الحرية. والأكثر من ذلك أن الكنيسة الغربية كانت تتذكر دائما (وهو ما نسيته الكنيسة الشرقية) الآية فى سفر التثنية التى تقول "لا يدخل مخصىّ بالرض أو مجبوب فى جماعة الرب.•" (إصحاح ١٠٢٣). وتلك النظرة الرعوية النموذجية. الموروثة عن العبرانيين القدماء. عززها المزيد من التحيزات الرعوية للقبائل البربرية التى لعبت دورا رئيسا فى تطور الغرب فى العصر الحديث. يبدو أن موقف العبرانيين الأصليين قد سافر إلى الهند مع الغزاة الآريين. حيث تنظر معتقدات الفيدا والهندوسية إلى الخصيان باعتبارهم شديدى النجاسة. وهى نظرة تراجعت مع مجىء المسلمين المتأخرين (المغول) الذين حكموا الهند من ١٥٢٦ إلى ١٨٠٦. وكان القائمون على حراسة "الزينانا" من الرجال العجائز والنساء المسلحات. بينما كان الطواشية قليلى العدد وبعيدين عن هذه المهنة.[٢٩]

كان المسلمون عامة لا يفرقون بين الناس على أساس اللون. ولكن ليس عندما يتعلق الأمر بالخصيان. فى الحرملك، كان الطواشية السود (بين ستمائة وثمانمائة طواشى) هم المسؤولون عن الحريم. بينما كان البيض يخدمون فى السلاملك. لكن تقسيم العمل هذا كانت له أسباب عملية بحتة. إذ لم يكن أحد ليتأكد أن الطواشية البيض عاجزين جنسيا بالفعل. كان الطواشية السود المجلوبون من أفريقيا "تُحلق لهم" كافة أعضائهم الجنسية الخارجية (كان عليهم أن يتبولوا باستخدام أنبوبة من ريشة طائر) فيما كان الطواشية البيض فى القرن الخامس عشر يأتون أساسا من المجر والأراضى السلافية وألمانيا وفيما بعد من أرمينيا وجورجيا وقرغيزيا. وكانوا عادة يفقدون خصياتهم فقط. وقد كان معروفا منذ العصور الإغريقية. وربما قبل ذلك. أن الإخصاء لا يمحى الرغبة الجنسية وأن الخصىّ الذى احتفظ بعضوه الذكرى كان- تحت ظروف معينة- قادرا على الوصول إلى انتصاب لفترة محدودة. وهذا يتوقف على حالة قلبه ودورته الدموية وغدة البروستاتا لديه. وقد ذكر ريتشارد بورتون. الرحالة من العصر الفيكتورى.

• مخصى بالرض أو مجبوب: مخصى باستخدام الحجر أو مقطوع العضو الذكرى (المترجم)

أن زوجة أحد الخصيان قالت له إن زوجها قادر حتى على القذف (ما يُفترض أنه سائل من البروستاتا) بعد فترة طويلة من الإثارة الإيروتيكية.[٣٠]

كان الإغريق يعرفون ذلك، والرومان يعرفون ذلك. وفى هجومه على عادات النساء الرومانيات قال جوفينال:

ثمة فتيات يعشقن الخصيان فاقدى الذكورة.
كم هم ناعمون. وجوههم الحليقة حلوة عند التقبيل.
ولا خوف معهم من الحمل!

لكن النشوة الكبرى لا تتحقق إلا مع الناضجين منهم.
الذكر المتهيج ذى العضو الأسود، قبل أن يعمل الجراحون على آلته.
دع الخصيتين تنضجان وتسقطان. تمتلئان حتى تصبحا مثل ثقلين معلقين.
وبعدها فإن ما سيقطعه الجراح لن يضر أحدا سوى الحلاق![•]

(غلمان تجار العبيد مختلفون: فهم ضعفاء بشكل مثير للشفقة.
خجلون من كيسهم الفارغ. حبتى الحمص الصغيرتين الضائعتين.)
انظروا إلى هذا النوع- يمكن أن تعرفوه من على بعد ميل.
الجميع يعرفونه- وهو يعرض مواهب جسده فى الحمّامات.
إن باريابوس[•] نفسه ليغار منه.
مع ذلك فهو خصىّ. لقد رتّبت محظيته ذلك.
لذا فدعهما ينامان معا.[٣١]

لكن لم يكن أحد واثقا تماما ما إذا كان من الممكن للأعضاء المجدوعة أن تنمو ثانية. إذ يبدو أن أطباء الحرملك فى الشرق الأدنى كانوا ينظرون إلى الطواشية بعين قلقة. فى الصين كانت ثمة حالة من الطمأنينة. حتى أخطأ أحد طواشية القرن الثامن عشر واجترأ على موظف امبراطورى كبير. وانتقم منه هذا السيد بأن

[•] إحدى آثار الإخصاء هى توقف شعر الجسم عن النمو

[•] باريابوس: إله الفحولة عند الرومان (المترجم)

أبلغ الامبراطور: "رغم أن الطواشية قد نُزعت خصياتهم، فالأعضاء المجدوعة لابد وأنها —فى حالات كثيرة— قد نبتت بما يكفى ليجعل من إعادة الإخصاء ضرورة. لقد سمع أن مثل هذا الأمر حدث فى أسرة منج (ليس هناك سجل لتلك الحادثة). وكانت النتيجة أن عم الفسوق وسادت الفوضى فى أنحاء القصر بين الطواشية والسيدات... ولمنع تكرار مثل تلك الفضيحة فقد توسل أن يتم فحص كافة الطواشية على الفور. على أن يتم "تنظيف" من يتبين أن أعضاءهم نمت جزئيا." وقد وافق تشين لونج على الاقتراح. وكانت النتيجة أن أُجبر عدد كبير من الطواشية على إجراء جراحة جديدة. ولقى الكثيرون حتفهم أثناء ذلك.[٣٢] كان طواشية الصينيين مثلهم مثل الأفارقة "محلوقين" تماما. والاحتمال الأكبر أن الجثَّاثين—جرَّاحى الإخصاء— قد أزالوا فى تلك المرة القطع اللحمية المتروكة من عمليات سابقة، وليست التى نمت من جديد.

كانت هناك أربع طرق للإخصاء. إذ يمكن أن يُنزع كلا من عضوه وخصيتيه. أو تزال الخصيتان فقط. فى بعض الأحيان، إذا كان الصبى صغيرا جدا. كانت الخصيتان تُسحقان ببساطة، أو تُقعصان، أو تُفعصان. ما يسبب إصابة دائمة للغدد المنوية. وأحيانا كان القضيب وحده يُزال. تاركين الخصيتين ومعهما قوة التناسل دون وسيلة لتحقيقها (حتى أيام الجراحات التجميلية). وقد كانت ثمة اختلافات واسعة فى العمليات الجراحية وقواعد الصحة العامة المتبعة فيها، كما تباينت معدلات الوفيات. فى القرن السابع عشر فى أعالى النيل، حيث المصدر الأساسى لتوفير الطواشية "المحلوقين تماما" للغرب. كان يُفترض أن يعيش واحد فقط من بين كل أربعة.[٣٣]

كانت روما تعرف النقيضين. كان الكهنة المستجدون فى معبد الإلهة سيبيل يخصون أنفسهم فى غمرة الانفعال أثناء احتفالات "يوم الدم" Diessanguinis. المصادر اللاتينية ليست واضحة حول هذا الاحتفال الطقسى. ولكن يبدو أنه كان يتبع القواعد المعروفة فى سوريا. حيث يقوم الكهنة وتلاميذهم بجلد أنفسهم وتجريح أجسادهم أمام المعبد على أنغام الموسيقى والغناء. ثم عندما تصل النشوة الدينية إلى سعرة هياجها. يمزق الكاهن المستجد ثيابه. ويقبض على السيف. وبضربة واحدة يخصى نفسه.[٣٤] بعد ذلك ببضعة قرون طور الرومان أنفسهم طريقة أكثر دقة. إذ استخدموا ملزمة خاصة. كان العضو يُسحب إلى داخل حلقة بيضاوية حتى يظل بعيدا عن الخطر. فيما يُشد الصفن والخصيتين بين ذراعى الملزمة. وعندما يتم تثبيت كل شىء فى موضعه تقبض حواف الملزمة

المسننة على الثنيات الجلدية التى تربط الصفن بالجسم. ثم لا يحتاج الأمر إلا إلى ضربة واحدة من السكين لقطع الصفن والخصيتين. وبعدها تُجرى عملية خياطة أو كىّ للحواف المقطوعة.[٣٥] مؤكد أن تلك الطريقة قللت من معدل الوفيات بشكل ملحوظ. بل أنها —والحق يقال— لا تبدو أخطر كثيرا من عملية استئصال الوعاء المنوى Vasectomy هذه الأيام. حتى لو كانت تفوقها ألما بكثير. كانت معظم الوفيات تحدث بسبب إزالة العضو. إذ يلزم سد القناة البولية لثلاثة أيام أثناء تكون نسيج الجروح Scar tissue.[٣٦] وعادة ما كان الطواشية "المجردون من كل شىء" يعانون من ضعف فى المثانة البولية يستمر مدى الحياة.

ما كان الطواشى يفعله بأعضائه العزيزة —أو بـ"النفائس" كما يطلق عليها الصينيون— يلقى ضوءا مثيرا على النفس الإنسانية. قال بول فاليرى• ذات مرة إن مؤرخين للثورة الفرنسية كانوا يقضون أوقاتهم وهم يرمون بعضهم البعض بالرؤوس المقطوعة. لكن عبدة "سيبيل" السوريين فعلوا شيئا أفضل. كانوا يمسكون بأعضائهم الجنسية فى أيديهم ويجرون فى الشوارع حتى تنقطع أنفاسهم. ثم يلقون بها عبر نافذة أقرب منزل.[٣٧] لم يسجل التاريخ ما إذا كان المواطنين الرومان قد تذمروا من تلك العادة. ولكن من الواضح أن كهنة سيبيل فى روما كانوا أكثر رصانة. إذ كانوا يدفنون "نفائسهم". فى الأرض مصحوبة بما يشبه طقوس الخصوبة. على العكس كان طواشى الصين كارها للانفصال عما فقده. وكان يعامل نفائسه تماما كما يعامل الأطفال أسنانهم التى تسقط. فهو يحتفظ بها فى "برطمانات عادية سعة "واحد بنت" مغلقة بإحكام. ويضعها على رف عال". كى تدفن مع صاحبها فى كفنه عندما يحين أوانه. كذلك كانت له دوافع أخرى. فحتى فى أواخر القرن التاسع عشر كان عليه أن يوضح مؤهلاته إن كان يرغب فى الترقى. وذلك عن طريق عرض "نفائسه" المخللة للطواشى الأكبر كى يفحصها. فإذا كان قد تركها دون اهتمام مع "الجثَّاثين". كان عليه أن يدفع كثيرا لكى يستعيدها. بل كان —فى بعض الأحيان— يستعير أو يؤجر "نفائس" أحد أصدقائه.[٣٨]

إن الطواشى فى المخيلة العامة شخص مقزز وخبيث غالبا. صوته عال ولحمه مترهل. يعشق الحلوى والألوان الصارخة والإيقاعات القوية. ويتميز بالجشع

• بول فاليرى Paul Valery: شاعر وفيلسوف فرنسى (١٨٧١–١٩٤٥) (المترجم)

والقسوة والرغبة فى الانتقام. ربما كان الإخصاء يشجع ذلك النوع من الصفات عندما تكون النزعة موجودة بالفعل، ولكن -إذا حكمنا وفقا للنماذج البيزنطية- يبدو أن تلك الصفات لا تنطبق كثيرا على الرجال الذين خصوا أنفسهم طوعا- أو على الأقل ليس جبرا. أما الطواشى الناقم الذى كان ضحية دون رغبته لنظام شوهه أولا ثم احتقره لما يعانيه من تشوه، فقد كان له حق الشعور بالحقد. وربما طور تلك الصفات كنوع من التعويض الطبيعى عن العلاقات الاجتماعية العادية التى باتت تقريبا مستحيلة التحقيق.

طواشية الحريم لم يتركوا لنا أى مذكرات. ولكن أصداء الألم الذى يعانى منه رجل ناضج انتُزعت خصيتاه بعنف مازالت تتردد فى كتابات اثنين من أشهر الخصيان فى التاريخ. سسو-ما تشين (١٤٥- ٩٠ ق.م) كبير مؤرخى بلاط أسرة هان الامبراطورية، وعالم المنطق والمدرس الفرنسى بيتر أبيلارد (١٠٧٩- ١١٤٢م).

لقد أُرسل سسو-ما تشين "إلى بيت دود القز" لأنه ارتكب جرم محاولة تضليل الامبراطور، وبعد تلك الحادثة بثمانية أعوام استطاع أن يكتب: "أجلس فى حيرة من أمرى. ضائعا فى المنفى. لا أعلم أين أذهب. كلما أفكر فى العار يُغرق العرق ملابسى عند الظَهر. لا أصلح الآن إلا عبدا يحرس مساكن الحريم. من الأفضل لى أن أختفى فى أقصى أعماق الجبال. بدلا من ذلك فأنا أواصل الحياة على قدر الاستطاعة، فأقبل أى دواء يعطه لى، وبذلك أكمل انحطاطى إلى أسفل السافلين." [٣٩]

أما أبيلارد الذى تعرض لإخصاء وحشى على يد عم حبيبته هلواز. فقد سجل: فى البداية "شعرت ببؤس تشوُهى أكثر من العار والإهانة." مع ذلك ففى النهاية بات قادرا على التسامى فوق الإعاقة. وقد كتب إلى هلواز بعدها باثنى عشر عاما، سائلا إياها أن تتذكر "رحمة الله بنا... الحكمة التى يستغل بها الشر نفسه فيجنبنا بكل رحمةٍ فسوقَنا. فمن جرح أستحقه تماما فى جزء واحد من جسدى ربما يشفى روحين... لذا أقول إن رحمته المقدسة طهرتنى -لا حرمتنى - من تلك الأعضاء الشريرة التى من مدى ممارستها لأكبر الفواحش تسمى "أجزاء العار" وليس لها اسم فى ذاتها. فماذا فَعلت (رحمته) بى أكثر من أنها أزالت قصورا شريرا كى تحفظ النقاء التام؟... تعالى معا نصلى شاكرين، أنت يا من كنت شريكتى فى الخطيئة والنعمة." [٤٠]

كان كلا الرجلين مثقفين، وكلاهما -بعد صدمة الألم والاشمئزاز الأولى- هربا بصورة ما كلٌ إلى ملاذه العقلى. لكن طواشية الحرملك كانوا قد سقطوا فى شبكة التواصل الاجتماعى التى لا هروب منها. وأيا كان ما شعروا به تجاه زملائهم فى المعاناة. فقد كانوا فائقى الحساسية تجاه الآخرين-أحيانا شديدى الحب وغالبا انسحابيين وعدوانيين.

ليست ثمة وسيلة لتخيل ما كان يمكن أن يحدث إذا ظل الطواشية رجالا "كاملين". ربما اختلف مصير حراس حرملك "سلطان السلاطين" وانتهى بهم الأمر حراسا لماشية القبيلة. أولئك الذين كانوا مدراء متنفذين ربما أصبحوا عُمدا على بعض القرى. الأمر الوحيد المؤكد تقريبا هو أن إخصاء هؤلاء الطواشية هو السبب الرئيسى الذى نصّب من هم أكثر مكرا ودهاء بينهم موظفين كبارا. أكبر كثيرا مما كانوا سيصبحون عليه، بعدما انتزعت حالة الإخصاء عندهم كل رحمة تجاه من يتعاملون معهم. فبدون ذلك الطمع البارد والمحسوب الذى كان آليته الدفاعية تجاه العالم لم يكن كبير الطواشية السود (والمعروف باسم كسلار أغا) ليصبح أكثر موظف مرهوب الجانب وأكبر مرتش فى الامبراطورية العثمانية بأكملها. وعضوا فى مجلس الدولة. والشخص الوحيد المسموح له بالاقتراب من السلطان فى أى ساعة فى النهار أو الليل، ومفتش الأوقاف الدينية للجوامع الإمبراطورية، وآمر البلطجية (حاملى البلطة)، وباشا فى أعلى المراتب. وبالطبع، الرقيب الأعلى على الحريم. لقد كان غنيا، وكان مكروها. وعندما توافيه المنية كان يشعر بآخر مراراته. الحقيقة التى تذكره للمرة الأخيرة بعجزه الجنسى: كانت كل أملاكه تؤول تلقائيا إلى السلطان.

استمر حكم الطواشية باستمرار حكم سادتهم. حتى العقود الأولى من القرن العشرين. ورغم أن عدد الطواشية الذين كان يستوردهم العالم العربى ومصر وتركيا فى أواخر القرن التاسع عشر لا يقل عن ٨٠٠٠ طواشى سنويا.[٤١] فبحلول ثلاثينيات القرن العشرين استطاع "بينزر" العثور على اثنين أو ثلاثة فقط من "تلك الكائنات الغريبة" فى كافة أنحاء تركيا، وقيل له إن "هؤلاء هم آخر هذا النوع".[٤٢]

أما "أوسبرت سيتويل" Osbert Sitwell فقد حقق إنجازا أكبر فى الصين أثناء زيارته لها بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤، إذ أنفق جل مساءاته فى شرب

الشاى مع ٢٠ شخصا سبق وخدموا فى القصر الامبراطورى فى "المدينة الحرام"•. ووصفهم بأنهم أصبحوا عجائز ثرثارين وبدا عليهم الذبول والحزن وهم يمضون آخر أيامهم فى "دار الطواشية المسنين" المجاور لنادى جولف "با باو شان" العصرى.[٤٣]

• المدينة الحرام: اسم كان يطلق على القصر الامبراطورى (المترجم)

مراجع الكتاب

Pb= paperback

١- في البدء

1. John Usher، or Ussher، archbishop of Armagh، was responsible for working out the year، while the day and hour were contributed by John Lightfoot، master and later vice chancellor of Catharine Hall، University of Cambridge.
2. Leakey and Lewin.
3. Tannahill (1).
4. Darlington (2)، pp. 54-55.
5. Ford and Beach، pp. 22-24.
6. N. I. Berrill *Sex and the Nature of Things* (London 1954).
7. Coon p. 39.
8. See، among numerous other studies of the chimpanzee، J. Goodall in *Advances in the Study of Behavior*، ed. Lehrman، Hinde and Shaw (New York 1970); J.B. Lancaster in *American Anthropologist 70* (1968); A. Kortlandt in *Progress in primatology*، ed. Starck، Schneider and Kuhn (Stuttgart 1967); Albrecht and Dunnett *Chimpanzees in West Africa* (Munich 1971); Teleki *Predatory Behavior of Wild Chimpanzees* (Lewisburg، Pa. 1973); Sugiyama in *Comparative Ecology and Behavior of Primates*، ed. Michael and Crook (London and New York 1973).
9. Wilson، Edward O.
10. Edward S. Deevey، "The Human Population،" in *Scientific American CCIII* (1960)، PP. 194-204.
11. Donald Kolakowski and Robert Malina in *Nature* 251 (October 4، 1974).
12. Diane McGuinness in *Perception* 5 (October 1976).
13. Darlington (2) PP. 52-53 and (1) PP. 276 and 329.
14. C. Packer in *Nature* 255 (May 15، 1975).
15. Tanner and Zihlman in *Signs* I iii I (Spring 1976).

16. World Health Organisation review by Dr. Mark Belsey، reported in *Sunday Times* (London) October 3، 1976.
17. Deevey، see note 10 above.
18. William T. Divale in *World Archaeology* 4 (October 1972).
19. Calvin Wells *Bones، Bodies and Disease. Evidence of disease and abnormality in early man* (London 1964)، PP. 177، 179.
20. Sigerist p. 223.
21. Dr، C. Gopalan in the *Lancet*، November 18، 1972.
22. Dr John Dobbing in *Archives of Disease in Childhood* (October 1973).
23. Frazer pp. 293-94; and Whitmarsh *The World's Rough Hand.*
24. Gladys Planas and Joseph Kuc in *Science* (November 29، 1968); H. de Laszlo and P. Henshaw in *Science* (July 1954); and V. J. Vogel *American Indian Medicine* (Norman 1970).
25. R. Benedict، "Rituals،" in *Encyclopaedia of the Social Sciences* XIII.
26. W. J. Perry *The Growth of Civilisation* (London 1924)، pb 1937 p. 28.
27. Grahame Clark and Stuart Piggott *Prehistoric Societies* (London 1965)، pb 1970 p. 71; in Grimal I p. 47; Walter Torbrugge *Prehistoric European Art* (New York 1968)، P. 15; Lewinsohn P. 5; cited Clark and Piggott p. 87; and Seltman p. 22.
28. Wells، see note 19 above، p. 34.

٢-الرجل فى السيادة

1. Toben Monberg in *Man* 10 (1975); G. Roheim Australian Totemism (London 1925); Malinowski (2); Anna in *Ethnology* 15 4 (1977); and P. M. Kaberry *Aboriginal Women، Sacred and Profane* (Philadelphia 1939).
2. J. H. Hutton Caste in *India* (Cambridge 1946).
3. Report in the *Sunday Times* (London) October 2، 1977.
4. Tannahill (2) pp. 5-18.

5. Bettelheim pp. 104-27.
6. G. Roheim، "The Symbolism of Subincision،" in *The American Imago* VI (1949); M. F. Ashley – Montagu، "Ritual Mutilation among Primitive Peoples، "in CIBA *Symposia* VIII (1946).
7. G. Devereux، "The Psychology of Feminine Genital Bleeding،" in *The International Journal of Psycho-Analysis* XXXI (1950).
8. See Weideger، and others.
9. Deevey، see note 10 chapter 1 above.
10. Frank Hole and Kent V. Flannery in *Proceedings of the Prehistoric Society* (February 1968).
11. James Mellaart *The Neolithic of the Near East* (London 1975)، PP. 98 and 132.
12. *Ibid.* P. 99.
13. Excavations at Franchthi cave، southern Greece، reported in *The Times* (London) August 15، 1973; and Hole and Flannery، see note 10 above.
14. Mellaart، see note 11 above، p. 108
15. For the materials of ancient religious belief، see S. H. Hooke *Middle Eastern Mythology* (Harmondsworth pb 1963); also Brandon، under various headings.

٣–الحضارات الأولى

1. Report in the *Sunday Times* (London) February 5، 1978.
2. Bottero، in Grimal I pp. 164-65.
3. W. B. Emery *Archaic Egypt* (Harmondsworth pb 1961)، pp. 65-69; Vercoutter، in Grimal I pp. 124-26; and Boris de Rachewitz An Introduction to Egyptian Art (London 1960)، 1966 edn. pp. 70-71.
4. Herodotus I 184; Bottero، in Grimal I pp. 245-47.
5. Wells، see note 19 chapter I above، pp. 63-64، 53.
6. For women's employment in Egypt، see Vercoutter; in Babylon، Bottero. All in Grimal I، pp. 151، 206-17، 243-44.
7. For adultery among the Israelites، see Bottero; in Egypt، Vercoutter; both in Grimal I pp. 238، 136-37. In Babylon، H. W.

F. Saggs *Everyday Life in Babylonia and Assyria* (London and New York 1965)، pp. 140-43. Divorce among Israelites، see Bottero: in Egypt، Vercoutter; in Babylon، Bottero; all in Grimal I pp. 242-43، 140-41، 199. Also Saggs P. 143.

8. Quoted in Baron II p. 223.

9. D.D. Luckenbill Ancient Records of Assyria and Babylonia (Chicago 1926-27)، II p. 240.

10. Vercoutter and Bottero، in Grimal I pp. 86-87، 110، 190; Baron II p. 225; and Saggs see note 7 above، p. 143.

11. Vercoutter، in Grimal I pp. 78-81، 109-13، 135، 144.

12. Bottero، in Grimal I p. 187; Baron II p. 219; Vercoutter in Grimal I p. 136.

13- Sigerist pp. 302-3، 332-4; F. Reinhard، "Cynakologie und Geburtshilfe der altagyptischen Papyri،" in *Archiv fur Geschichte der Medizin* 1916-17 (Leipzig).

14. Bottero، in Grimal I p. 181.

15. *Ibid*; and report in *Sunday Times* (London) November 25، 1973.

16. Sigerist p. 241; Bottero، in Grimal I p. 193; Berlin Papyrus، quoted in Himes. P. 65.

17. Wells، see note 19 chapter 1 above، p. 67.

18. Bottero، in Grimal I p. 170; Leviticus 15 21-23، 34.

19. Sigerist PP. 243-44.

20. Observer (London) July 22، 1979.

21. Bettelheim pp. 129-31.

22. Middle Assyrian Laws para. 8، in G. R. Driver and Jhon . Miles *The Assyrian Laws* (Oxford 1935).

23. *Ibid.* para. 21; *Heinrich Zimmern Hethitische Gesetze ausdem Staatsarchiv von Boghazkoi* (Leipzig)، pp. 17-18.

24. Middle Assyrian Laws para. 53، see note 22 above; Leviticus 20 2-5; Brandon P. 445.

25. Josephus، quoted in Baron II p. 219; Deuteronomy 24 5; Leviticus 20 13 and 15-16.

26. By، for example، Ibn al-Baitar in his *Treatise on Simples.*

27. Himes pp. 59-78; on levirate marriage، Epstein (1) pp. 77-144.

28.Raban Asher، cited in Epstein (1) p. 262.

29. P. Ghalioungi، "A Medical Study of Akhenaten، "in *Annales du Service des Antiquites d'Egypte* (Cairo 1947); E.Snorrason، "Cranial Deformation in the Reign of Akhnaton، "in *Bulletin of the History of Medicine* (Baltimore 1946); and Wells، see note 19 chapter 1 above، p. 108.
30. Darlington (2) pp. 118-9.
31. Immanuel Velikovsky *Oedipus and Akhnaton* (London 1960).
32. Herodotus I 199، p. 92.
33. W. G. Lambert *Babylonian Wisdom Literature* (London 1960)، PP. 14 ff.
34. Bottero، in Grimal I، p. 179.
35. Quoted in Sagges، see note 7 above، p. 152.
36. Herodotus II 64، p. 127.
37. Vercoutter، in Grimal I، pp. 132، 137.
38. "Can the image of God be made to lose its maleness?، "report in *The Times* (London)، June 24، 1974.
39. I 14-15 from the King James version; 2 10-12 from the Common Bible. The theory propounded by raban Gordis that the *Song of Songs* was originally composed on the occasion of one of Solomon's marriages is not، in fact، generally accepted. The Synagogue and the Church both consider it an allegory of the "matrimonial alliance' between Jehovah and Israel (c.f. Baron I pp. 336-37).

٤-اليونان

1. Hesiod Theogony 190; Hermaphroditos، Flaceliere p. 32; Priapus، Licht pp. 220-24; Heracles، Pausanias IX 27 6-9 and Theocritus *Idylls* XIII. See also Robert Graves.
2. Staton in *Anthologia palatinus* (The Greek Anthology) XII 4.
3. H. D. F. Kitto The Greeks (Harmondsworth pb 1951)، pp. 126-31، 247-48.
4. Plato *Symposium* 213 d.
5. *Ibid.* 217 a-219 e.
6. *Ibid.* 183 a.
7. Aristophanes Birde 137-42.

8. See, for example, Athenaeus XIII 605.
9. Pseudo-Aristotle Problemiata IV 26, quoted in Dover P. 169.
10. Dover pp. 99-102.
11. Plutarch *Erotikos* 768 F; Thucydides *Historiae* VI 54-59; Aristotle *Constitution of Athens* 18; Plato *Symposium* 179 a, b.
12. Cited Licht P. 438.
13. Aeschines *Contra Timarchum* 12, 138, 13-15.
14. Flaceliere pp. 196-97.
15. Xenophon *Symposium* 2.
16. Plutarch *Life of Solon* 21.
17. *Ibid. De inimicorum utilitate 7.*
18. Hieronymus of Cardia *Historia Memoranda* frag. 6.
19. Speech against Neaera, quoted in Kitto, see note 3 above, p. 227.
20. Hesiod *Theogony* 585-612, and *Works and Days* 405-6.
21. Xenophon *Oeconomicus* VII 10; and Solon, reported in Plutarch *Erotikos* 769 A.
22. "The Betrothed." in *Departmental Ditties and other verses* (London and Calcutta, 9th edn. 1897).
23. *De republica* II 10 1271.
24. Aristotle Works IV. 583a; Marie C. Stopes, "Positive and negative control of conception in its various technical aspects," in *Journal of State Medicine* XXXIX (1931).
25. Salter (Philip), *passim.*
26. C. J. Fyller *The Nayars Today* (Cambridge 1977).
27. Plutarch *Life of Lycurgus* 15.
28. Herondas *The Two Friends*, in *Mimiambus* 6.
29. Plutarch, see note 27 above, 18.
30. Demosthenes (attr.) In *Neaeram* 122.
31. Athenaeus XIII 567
32. Thargelia, in Flaceliere p. 126; Thais and Aspasia, Licht pp. 344, 351-52.
33. Alciphron *Letters of Courtesans* I 40.
34. Herodotus II 134-35.
35. Antiphon De veneficio 14.
36. Athenaeus II 468.

1. Juvenal Sixth Satire 1-11، p. 127.
2. Livy 34 2-4. Scholars consider Livy's account of the Oppian law debate to be nearer faction than fact، but it seems to have been based on contemporary records.
3. Valerius Maximus *Memorabilia* IX 1 3.
4. C. G. F. Simkin *The Traditional Trade of Asia* (London and New York 1968) p، 45; figures adjusted to compensate for aurplus zero in Professor Simkin's calculations.
5. Seneca *De brevitate vitae*.
6. Aristophanes، in Pollux Onomasticon VII 95، frag، 320; Eubulus *Garland Sellers*، frag. 98، in T. Kock (ed.) *Comicorum Atticorum Fagmenta* (Leipzig 1880 – 88).
7. Alexis، quoted in Athenaeus XIII 568; see also Licht pp. 84-5.
8. Lucian (attr.) *Amores* 39.
9. Cited Sigerist pp. 478، 247.
10. Fuller details of the Roman woman's day may be found in Balsdon (2)، pp. 252-81; Carcopino pp. 183-90; and Kiefer pp. 15-66 and *passim*.
11. Suetonius *Augustus* 31.
12. Plutarch *Numa* 10.
13. Livy 39 9ff.
14. Josephus *Jewish Antiquities* 18 65-84.
15. Juvenal *Sixth Satire* 227-28.
16. Gellius Noctes *Atticae* I 6.
17. Seneca *Fragmenta* XIII 61.
18. Tannahill (2) *passim*.
19. Cassius Dio *Historia Romana* 54 16; L. Friedlander، cited Kiefer p. 61.
20. Balsdon (2) pp. 187-88.
21. Nicole Belmont، "Levana; or، How to Raise up Children،" in Forster and Ranum (2) p. 1.
22. Ovid III 779-82.
23. Lucretius On *the Nature of Things* IV.
24. Dover pp. 100-1.
25. Pliny XXVIII 80، XXX 49، and XXVIII 77.

26. Dioscorides *De materia medica* II 188، IV 19.
27. *On medicine، in sixteen books or discourses* XVI 17.
28. Soranus *Gynaecology* I 19 61-3.
29. Himes pp. 187-88.
30. All figures are to some extent speculative (see Brunt pp. 131 ff.) The infant mortality rate may be underestimated.
31. William H. McNeill *Plagues and People* (Oxford 1977).
32. Dr. Robert Yule، consultant pathologist، quoted in *The Times* (London) March 15، 1978.
33. Speech at Third International Congress of Human Genetics، Chicago، reported in *Time*، September 23، 1966.
34. Report in *The Times* (London) April 7، 1978.
35. Research at Mount Sinai School of Medicine، New York، reported in *New England Journal of Medicine*، October and James Smith of the Shadel Hospital for the Treatment of Alcoholism، Seattle، reported in the *Sunday Times* (London) June 17، 1973.
36. Lemere and Smith، *ibid.*
37. *Seneca Epistolae Morales* 86.
38. Research by Dr. Howard Gabriel of the Health Planning Council، Wichita، Kansas، reported in the *Sunday Times* (London) March 24، 1974.
39. Balsdon (1) P. 195.
40. *Annals* 2 73.
41. *Pro Marcello* 23.
42. Witold Kula، "The Seigneury and the Peasant Family in Eighteenth-Century Poland،" in Forster and Ranum (2) pp. 195-96.
43. For a fuller summary of the Lex Julia and the Lex Papia poppaea see Brunt PP. 558-66.

٦-الكنيسة المسيحية

1. *Epistles* 50 5.
2. Eusebius *Ecclesiastical History* IV 29 etc.
3. *Acts of John*، frag. (J 266): *Acts of Andrew*، Vatican MS frag. V. (J 325).

4. *Epistles* XXII 7، and *Confessions* VIII 7 17.
5. Augustine c. *duas epist. Pelag.* I 34 17.
6. *Ibid. De nupt. Et concup.* II 8، 12-13، 22; de civ. Dei XIII 13، XIV 17; *de pecc. Merit. Et remiss.* II 36 22; c. *duas epist. Pelag.* I 31.
7. *Sunday Telegraph* July 9، 1978.
8. Bailey (2) p. 152.
9. Council of Seville 590، iii.
10. Quoted Pierre Riche، in Grimal II p. 53.
11. Tertullian *Ad uxorem* I 5; also John Chrysostom، Cyril of Alexandria، Gregory I، Athanasius، Lactantius، Jerome، and Ambrose *inter alia.*
12. John Chrysostom *Epist. Ad Rom.* XXX 3; Methodius *Conviv* IX 4; Clement of Alexandria *Stromateis* II 23.
13. Ulpian *Cod. Just.، Dig.* L xvii 30.
14. Cited Bailey (2) pp. 133-34 fn.
15. Tertullian *Ad uxorem; Augustine De nupt. Et concup.* I 14-15.
16. Reported in *Time*، February 7، 1977.
17. I Peter iii 4; I Cor. Xi 9، 3، xiv 34; I Tim. Ii 11-12، 14.
18. Quoted Coulson p. 394.
19. *De cult. Fem.* II 2.
20. *Paidagogos* I 4، and *Stromateis* IV 8.
21. J. N. Biraben and Jacques le Goff، "The Plague in the Early Middle Ages، "in Forster and Ranum (1) pp. 48-80; and McEvedy and Jones p. 21.
22. Cited Darlington (2) p. 300.
23. Tannahill (1) pp. 184-5، 190-4.
24. Burchard *Decretum* 19، quoted Noonan p. 160.
25. Jerome *De custodia virginitatis* quoted Himes p. 93.
26. Cummean 11 penitential، in Benitential، in Bergues p. 209.
27. For further material on the penitentials، see Noonan *passim*; Jean – Louis Flandrin، "Contraception، Marriage، and Sexual Relations in the Christian West، "in Forster and Ranum (1) pp. 23-47; and R. C. Mortimer *Western Canon Law* (London 1953) pp. 24 ff.
28. *Judicia Greg. Pap.* 111 21، quoted in Bailey (1) p. 106.
29. *Sunday Times* (London) April 11، 1976.

30. F. Brown، S. R. Driver، and C. A. Briggs *A Hebrew and Englisg Lexicon of the Old Testament* (Oxford 1952).
31. *De Abrahamo* XXVI 134-36.
32. Justinian *Novella* 77 1-2.
33. Procopius *Anecdota* XI 36.
34. *Novella* 141 preamble، and para. 1.
35. *Apostolical Tradition* of Hippolytus 11 16 20; Council of Elvira 305-6، 71.
36. Rule of St. Benedict، 22; Council of Tours 567، 14; Council of Paris 1212، II 21، III 2.
37. Council of Toledo 693، 3; Lex Visigoth. III 5 7.
38. For a disussion of the Latin commentaries on these canons، see Bailey (1) pp. 86-89.
39. Canons of the Synod of Llanddewi-Brefi; *Poenitentiale Burgundense*; Theodoee's Penitential.
40. The homosexual provisions of the penitentials are discussed at some length in Bailey (1) pp. 100-10.
41. *Liber* Gomorrhianus 7.
42. Diocese of Cambrai 1300 – 1310، cited Flandrin، see note 27 above، p. 30.
43. *Time* January 26، 1976، September 20، 1976، and June 5، 1978.
44. Benedicti، echoing St. Jerome، in *La Somme des Pechez* (Paris 1601).

٧–الصين

1. Ko Hung (Pao-'u-tzu) *Neipien*، chap. 6; *Yu-fang-pi-chuech*، from *I-shin-po* chap. 28، quoted in Van Gulik P. 138. The late Dr. Van Gulik's book on sexual life in China China prior to the Manchu period is an invaluable source not only of information but ideas.
2. *I-ching* I 5.
3. *Kuan-yin-tuz*.
4. Chang Heng *Ch'I-pien*.
5. *Tung-hsuan-tzu* XII.
6. *Sunday Times* (London) November 7، 1976.

7. *Yu-fang-chih-yao*، in *I-shin-po* 28 XVIII.
8. *Yang-sheng-yao-chi*، in *I-shin-po* 28 XIX.
9. *Yu-fang-pi-chueh*، in *I-shin-po* 28 XIX.
10. Sun Szu-mo *Ch'ien-chin-yao-fang*، trs. In Van Gulik pp. 195-6.
11. See note 9 above، 28 II.
12. *Ibid*، XXIII.
13. See note 5 above، XIII.
14. *Ch'an-ching*، in *I-shin-po* 28 XXI.
15. See note 10 above، p. 196.
16. See note 5 above، III، V-VII، IV، X.
17. *Ibid*. IX.
18. Quoted Van Gulik p. 83.
19. Issue of November 20، 1950.
20. Hsu Ying-ch'iu *Yu-chih-t'ang-t'an-hui*، cited Van Gulik p. 160.
21. See Licht pp. 364ff. and 513ff. for Greek aphrodisiacs and other sexual magic.
22. See note 5 above، XVI.
23. Personal communication.
24. Quoted Michael Edwardes *Ralph Fitch. Elizabethan in the Indies* (London 1972) pp. 123-4; and Francesco Carletti *My Voyage around the World* (1594-1606)، New York 1964 edn. Pp. 181-3.
25. Quoted Van Gulik p. 261.
26. Confucius *Analects* XVII 25.
27. Quoted Van Gulik p. 60.
28. Lady Pan *Chao Nu-chieh (Women's Precepts)* IV – V.
29. Fu Hsuan *Yu-t' ai-hsin-yung*.
30. Quoted Van Gulik pp. 86-7.
31. *Li-chi*، section *Net-tes* I 12.
32. Cited Bailey (2) p. 73.
33.Cited Van Gulik p. 68.
34. *Pao-p'u-tzu* 25.
35. Nai-te-weng *Tu-ch'eng-chi-sheng*.
36. Rene Grousset *The Rise and Splendour of the Chinese Empire* (London 1952) pp. 171 and 236.
37. Quoted Van Gulik p. 269.

38. See Van Gulik pp. 276-50 for greater detail.

٨–الهند

1. Needham I.
2. Recipes possibly from Caraka (Ist-2nd centuries A.D.)، quoted Himes pp. 119-21.
3. McEvedy and Jones pp. 182-3.
4. *Laws of Manu* IX 94.
5. Plutarch، quoted Licht p. 33.
6. For example، *Rg Veda* X 18 8.
7. Pseudo-Maurikios *Taktika* XI 5; Boniface *Epist.* No 73 745-6; and al-Masoudi (ed.) J. Marquart) XXIV.
8. Michael Edwardes *Indian Temples and Palaces* (London 1969) p. 198-9.
9. Blofeld pp. 198-9.
10. Om prakash *Food and Drinks in Ancient India (from earliest times to c. 1200 A.D.)* (Delhi 1961) pp. 210، 222، 260.
11. Rawson (1) p. 98.
12. Bharati p. 292.

٩–الإسلام

1. Michael Edwardes *East-West Passage; The Travel of Iseas، Arts and Inventions between Asia and the Western World* (London and New York 1971) PP. 50-65; Hitti pp. 64-78; Anthony Baines (ed.) *Musical Instruments through the Ages* (Harmondsworth pb 1961)، 1969 edn. Pp. 327-30.
2. Jose Grosdidier de Matons، in Grimal III p. 33.
3. Koran IV 3.
4. *Ghazali's Book of counsel for Kings (Nasihat al-Muluk)*، trs. F. R. C. Bagley (Oxford 1964)، II 7 pp. 164-5.
5. *Ibid.* p. 172.
6. C. Pellat، "Les esclaves chanteuses de Gahiz، "in *Arabica* X 2 (June 1963)، pp. 121-47.
7. Quoted C. pellat، *Le Milieu Basrien et la formation de Gahiz* (Paris 1953) p. 254.

8. Djamil *Aghani* VII.
9. For Arab love literature in general، see Nada Tomiche in Grimal III pp. 98-113.
10. Van Gulik p. 189.
11. *Kamasutra* IV 2، and V 6.
12. penzer p. 13.
13. Marco polo *Travels*، tes. Ronald Latham (Harmondsworth 1958)، London 1968 edn. P. 101.
14. Hitti pp. 30-31.
15. For Avicenna see Himes pp. 141 ff.
16. Stent pp. 174-5.
17. Nefzawi IX p. 196.
18. *Ibid.* VI pp. 141-2.
19. Xenophon *Cyropaedeia* VII 60-65.
20. Reports in the *Sunday Times* (London) September 28، 1975، and *British Journal of Psychiatry* September 1974.
21. Quoted Saggs p. 151.
22. Bottero، in Grimal I p. 192.
23. Herodotus VI 32.
24. Stent pp. 147-50، 167.
25. Herodotus VIII pp. 533-4.
26. Suetonius XII 7.
27. Michael Psellus *Fourteen Byzantine Rulers* (Chronographia) IV 12.
28. *Ibid.* V 42.
29. Basham p. 173.
30. Burton *Suppl. Nights* I pp. 71-2.
31. *Sixth Satire* 365-77، p. 171.
32. Stent pp. 162-3.
33. See note 30 above، p. 71 fn.
34. Lucian *De Syria dea* 19ff.
35. Alfred G. Francis in *Transactions of the Royal Society of Medicine* (January 1926).
36. Stent p. 171.
37. See note 34 above.
38. Stent p. 172.
39. Letter to Jen An، trs. In Birch.

رغم أن الكثيرين قد ينظروا إلى العلاقات الجنسية باعتبارها علاقة خاصة بين شخصين، فإن نظرة أوسع على الأمور بعين مؤرخ تكشف أن الجنس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين والمعتقد، بالثقافة والجغرافيا، بالسياسة والاقتصاد، وهذا الكتاب موسوعة شاملة للعلاقات الجنسية منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى القرن العشرين، منذ أسلاف الإنسان الفطرية فى العصور السحيقة، وحتى ذلك الكائن المعقد فى الأيام الحديثة.

إن ذلك البحث الموسوعى زماناً ومكاناً فى الجنس يجيب عن تساؤلات عدة: كيف جرت صياغة العلاقة بين الرجل والمرأة على مدار التاريخ؟ ما الذى جعل من الجنس خطيئة؟ وكيف ساعدت الظروف التاريخية فى أن يصل الرجل إلى ما وصل إليه والمرأة إلى ما وصلت إليه؟

تطوف بنا مؤلفة الكتاب من الشرق إلى الغرب، من مصر الفرعونية إلى بلاد الإغريق، من روما إلى الهند إلى الصين، من العالم المسيحى فى العصور الوسطى إلى العالم الإسلامى فى بغداد والقسطنطينية.

إن هذا الكتاب واحد من الكتب التى تحتاجها المكتبة العربية، والتى يذخر تراثها بكتب تتناول هذا الموضوع المهم.

الناشر

ميريت

الغلاف : أحمد الباد